حسن حبشي
مدرس بدار المعلمين العالية ببغداد

نور الدين والصليبيون

حركة الإفاقة والتجمع الإسلامي في القرن السادس الهجري

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

حسن حبشي

مدرس بدار المعلمين العالية ببغداد

نور الدين والصليبيون

حركة الإفاقة والتجمع الإسلامي في القرن السادس الهجري

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

تصـــدير

للدكتور محمد مصطفى زيادة

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة فؤاد الأول

لا مشاحة فى القول بأن التاريخ المصرى فى العصور الوسطى — وتاريخ البلاد العربية والإسلامية جميعا — بحاجة إلى عرض جديد، مزاجه البحث العميق والاستقصاء، حبا فى الوصول إلى الحق. وليس سرا أن السالفين — يرحمهم الله جميعا بلا استثناء — ساروا على طريقة النقل من المراجع الكبيرة والصغيرة، والمعاصرة وغير المعاصرة، دون رجوع إلى العقل والسنن الكونية، فضلا عن قواعد الجرح والتعديل، كما دأبوا على اعتبار التاريخ ثبتاً جامداً لأخبار الدول، وتعاقب الملوك، وحوادث العزل والولاية، على شرط أن يتخلل ذلك الثبت عندهم من القصائد الشعرية ما يريح القارىء من عناء القراءة، كأنما التاريخ مشقة، أو قطعة من العذاب. ولا بد لقارئه بين الفينة والأخرى، من معلقة أو ملحمة، أو بيتين أو ثلاثة، إذا عدمت المعلقات والملاحم، كيما يتفكه بها، وهو يقارف المطالعة فى التاريخ. ومن الواضح أن مثل هـذا الإنتاج، لا يمكن إلا أن يسمى خليطا من الأدب والتاريخ، دون أن يرقى إلى التسمية بهذا أو ذاك، وهو على كل حال نمط فات أوانه، وانتهى زمانه، ومات أربابه وأحبابه، والمستطيعون صبرا على قراءته.

وأولئك السالفون من آباء تلك المدرسة وأبنائها وبقاياها، والتابعين لهم من غير إحسان أو إتقان، معذورون فى طريقتهم، مبتلون بها، لأنهم ينقلون من مراجع تلك طريقتها، ويظنون أنه ليس فى الإمكان أبدع مما

كان . وهذا مذهب غريب على التاريخ وأهله ، لأن التاريخ سجل التطور الإنسانى ، وهو لا يعيد نفسه ألبتة ، بل يتوالد بعضه من بعض ، ولا شبه بين السابق منه واللاحق إلا بمقدار ما بين أجيال الناس من شبه ظاهرى .

على أن العرض الجديد للتّاريخ المصرى فى العصور الوسطى خاصة ، وللتاريخ الإسلامى عامة ، لا يمكن أن يتأتى على يد مؤرخ واحد ، مهما حسن عمله ، إذ الأمر يتطلب أولا إحياء الكثير من الكتب والمراجع بالنشر العلمى الصحيح ، وتلك عملية طويلة ، ثم يتلو ذلك أبحاث عميقة فى مساحات تاريخية معينة ، ومواضيع محدّدة ، وتلك أيضا عملية طويلة . وكل هذا وذاك ، يتطلب جيلا عديدا من المؤرخين الذين يكونون بمثابة الرائدين ، يرودون القفور والمفاوز والأدغال ، ليمهدوا لأنفسهم ، أو لمن يقتفى أثرهم ، سواء بالقيام على نشر مرجع من المراجع الأصلية فى التاريخ ، أم بالتوفر على بحث مشكلة تاريخية واحدة .

وعنوان الكتاب الذى أقدم له بهذه الكلمة القصيرة يدل فى وضوح على أن صاحبه من الفئة الثانية من أولئك الرائدين ، المدركين بأن عملهم سوف يكون حجرا طيبا فى بناء المدرسة التاريخية فى الشرق الأوسط ، إذ يعالج فى روية وأناة ، وأسلوب فنى ، علاقة نور الدين بالصليبيين ، وهى ناحية واحدة من نواح متعددة فى تاريخ الحروب الصليبية ، ولا بد من التوفر على تلك النواحى المتعددة ، بأبحاث منفردة مشابهة ، حتى يصبح من المستطاع كتابة تاريخ الحروب الصليبية من الناحية الشرقية ، على وجه سليم . أما الاعتماد على فهم الحروب الصليبية وتدريسها من الناحية الأوربية فحسب ، ومن المراجع الأوربية فحسب ، فإنه لم يعد جديرا بالشرق الحديث .

ومما يجعل موضوع هذا الكتاب قمينا ببحث منفرد ، أن العلاقات بين نور الدين والصليبيين هى نقطة التحول فى تاريخ تلك الحروب ، لأن الأساس

الذى استطاع نور الدين أن يقيم أركانه ، هو الذى مكّن لصلاح الدين فى أرض مصر وفلسطين والشام وشمال العراق ، وساعده على إنجاح الحرب الخاطفة التى شنها على الصليبيين قبل حطين وبعدها ، حتى بات رتشارد قلب الأسد — ملك إنجلترا — يفكر فى إحلال المفاوضة والمحالفة ، والصداقة والسلام ، محل المقاتلة والمناضلة ، والعداوة والقتال . وربما كان استيلاء نور الدين على دمشق ، سنة ١١٥٤م ، أكبر دليل على صحة الدعوى بأن أعماله هى نقطة التحول فى تاريخ الحروب الصليبية . وأبلغُ من ذلك فى إثبات تلك الدعوى استيلاء نور الدين كذلك على مصر ، سنة ١١٦٨م ، بفضل قادته الطامحين من بنى أيوب ، إذ المعروف أن مصر صارت مركز الهجوم والدفاع عن الشرق الأوسط ضد الصليبيين منذ أواخر القرن الثانى عشر الميلادى فصاعداً ، وإليها يرجع الفضل فى إخراج الصليبيين نهائيا من الشام وفلسطين . على أن أفضال نور الدين لا تقف عند ذلك الحد البعيد ، بل يدل نجاحه فى توحيد الشرق الأوسط على ما تستطيعه البلاد الشرقية من الحياة الكريمة ، والهيبة والكرامة ، إذا توحدت أجزاؤها . وإذ كانت وسائل ذلك فى العصور الوسطى هى الفتح والنصر القريب والبعيد ، فإن من وسائل التعاون الحديث فى ميادين الثقافة ، والاقتصاد ، والتعليم ، ما يكفل الوصول إلى تلك الغاية الضرورية لإضاءة الهلال الخصيب وبلاده وأطرافه التى صارت فى نظر الدول الأوربية وحدة إقليمية ، كما ظلّت فى نظرهم زمن الحروب الصليبية .

وتتبين تفاصيل استيلاء نور الدين على دمشق فى الفصل الثالث من هذا الكتاب اللامع ، حيث قضى نور الدين قضاء مبرما على فكرة التوسع الصليبى جنوبا ، كما تتبين أخبار الاستيلاء على مصر فى الفصل الرابع منه ، حيث يبدو واضحا أن توفيق نور الدين فى تلك الناحية لم يؤد إلى إزالة الخلافة الفاطمية فحسب ، بل تعداه إلى وضع الصليبيين بين شقى الرحى التى طحنت قواهم ، فى دأب واستمرار ، إلى أواخر الحروب الصليبية .

على أن لهذا الفصل الرابع أهمية أخرى ، وهى احتواؤه على صفحات مبتكرة ، تغير ما توارد فى كتب المؤرخين بصدد بعض الحملات الصليبية ، لإخراج صلاح الدين وزير نورالدين من مصر . إذ المتوارد فى تلك الكتب أن أمورى — ملك بيت المقدس — حالف مانويل كومنين إمبراطور الدولة البيزنطية ، وروجر ملك صقلية ، لتنفيذ هذا الأمر ؛ والحقيقة — كما بينها المؤلف من المراجع الأصلية العربية والأجنبية فى ذلك الفصل — هى أن كلا من أولئك الملوك عمل لحسابه طواعية لتحقيق أغراض اقتصادية بحتة ، منبعها ما للمدن الإيطالية من أثر فى توجيه الصليبيين وغير الصليبيين ، منذ أن فتحت أسواق الشرق أبوابها للتجارة ، وصار للمدن الإيطالية جاليات تجارية قوية .

وللفصل الخامس من هذا البحث ميزة تستوجب الانتباه ، إذ عالج فيه المؤلف موضوع العلاقات الاجتماعية السلمية بين الصليبيين والمسلمين ، رغم ما بين الفريقين من حرب متواصلة أحيانا ، متقطعة أحيانا أخرى ، وهو موضوع لم يُسبق إليه بين المحدثين .

كل ذلك فى أسلوب علمى يُستشف منه أن المؤلف أوسع موضوعه — وحول موضوعه — قراءة وفهما ، وتحليلا وإمعانا ، فى معرفة التفاصيل ، مع العناية بإبعاد التفاصيل عن سبيله فى الكتابة ، وهو هنا مبتكر أيضاً إلى درجة لا يشاركه فيها إلا الأقلون من أبناء هذا الجيل ، فإن التاريخ ليس مجرد تدوين لتفاصيل أحداث الإنسان على نمط أصحاب الحوليات ، بل هو نقد وتحليل ، وشرح للقيم الحقيقية ؛ وهذا لا يتأتى طبعا إلا بعد تحقيق التفاصيل وتمحيصها وهضمها ، وتقديم عصارتها تاريخا يقرؤه الناس .

وأذكر أن المؤلف لم يأل جهدا فى عمله ، ولم يحسب الوقت أو للامتحان ومواعده حسابا ، بل كان هدفه أن يخرج رسالة علمية خالصة ، فى حجم معقول ، لا ضخامة فيها ولا تطويل ، ولا تنطع ولا رسوب فى الأسلوب ، وأرجو

أن يلازمه التوفيق لمثل هذا النمط فيما يزمعه من التأليف ، وفيما سوف يتأهل به لمكانة لائقة بين أفذاذ المؤرخين .

على أنى لا أقتصر هنا على مجرد التمنى لمؤلف حديث وهو فى أول الطريق ، بل أرجو كثرةً من أمثاله الذين تطمئن بهم قلوب أهل النهضة الحديثة ، كما أرجو كثرة من أمثال كتابه الذى يعد بحق نموذجا فى التآليف الحديثة ، فى المكتبة العربية الناهضة .

بغداد الجديدة { رجب ١٣٦٧ هـ / مايو ١٩٤٨ م }

محمد مصطفى زيادة

مقدمة المؤلف

فى هذا الكتاب بحث مقارن فى أطوار العلاقات بين السلطان نور الدين وملوك الصليبيين، فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى، قدَّمته لقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول لنيل درجة الماجستير، ولم أغير من صورته الأولى إلا قليلا، مما اقتضته معاودة النظر فى الموضوع ثانية. وعلى أية حال ملأت به بعض وقتى أثناء اشتغالى به، وجعلت همى الأول مطالعة المصادر الأصلية فى العربية واللاتينية، إلى جانب المراجع الإنجليزية والفرنسية الحديثة، المتعلقة بالشرق الأدنى فى ذلك القرن الذى شهد حركة إفاقة عامة فى البلاد الإسلامية بعد أن حل الصليبيون فى بعض أرجائها، وقد بدت تلك الإفاقة أول ما بدت بشمال العراق، ثم استضاءت بها شخصيات الشام، حتى سطعت نهائيا فى قيام الدولة النورية، ومحاولتها الناجحة فى تكتل القوى الإسلامية لدرء الخطر الصليبى، وسبيل ذلك توحيد مصر والشام وشمال العراق تحت راية واحدة. وأحسب أن أمثال هذه الموضوعات، هى بعض ما يجب أن ينصرف إليه هم المشتغلين بالتاريخ الإسلامى فى العصر الوسيط، لتجلية ما بالشرق من طاقات واستطاعات، وما يكمن فيه من وعى قومى يرمى إلى اعتبار الكتلة الممتدة من أطراف آسيا العربية إلى وادى النيل وشمال إفريقية وحدة إقليمية، متشابهة الخصائص، متجانسة الصفات، متحدة الأسس والأهداف؛ وحوادثُ العصور الوسطى فى الشرق الأدنى تشرح كيف تمكنت تلك البلاد من أن تدفع عن نفسها خطر القوات الصليبية، وأن تفسد أغراضها المتضاربة بفضل ذلك التكتل.

ويخال بعض القراء عند مطالعة عنوان هذا الكتاب أنهم سوف يجدون بين دفتيه عرضا لحياة نور الدين، منذ ولادته حتى مماته، وأخشى أنهم سوف يجدون غير ذلك، لأننى لم أكتب ترجمة لنور الدين، ولم أتعرض

لما بنى من المبانى والعمائر والربط والمساجد، بل إننى شديد الكراهية للصورة التى يحاول بها بعض الكتاب المسلمين الترجمة لنور الدين ،إذ يتخيله البعض رجلا تقياً سبهللة فى زى ملك ، ألقت إليه الصدفة بزمام الحكم ، وما ذلك عن كراهية منى لتلك الصفات ـ وهى جديرة بالاحترام ـ ولكن لما يرسمونه له من صورة الدرويش ، على حين أن الذين يستعرضون تاريخه يتجلى لهم فى وضوح مقدار الدهاء الذى انطبع عليه السلطان نور الدين ، وهو يحرك الشخصيات المختلفة ، لتحقيق فكرة الجبهة الإسلامية المتحدة ،وتكوينها من القوى الصغيرة المشتتة ، التى دبت فيها عوامل الضعف السياسى والاجتماعى والمذهبى ، وبجمل القول أن نور الدين — فى أى وضع — رجل تساوت فيه نواحى الإبداع والعظمة من الناحيتين الروحية والسياسية .

والواقع أن الذى يطالع المصادر الأولى لهذا العصر لا يجد إلا نتفا مبعثرة هنا وهناك لتقدير تلك الشخصية ، لأن أصحاب تلك المراجع اهتموا — إن كانوا مسلمين — بإبراز الجانب الدينى فى نور الدين والمبالغة فى تقواه — وإن تكن غير منكورة — مما يخيل معه للقارىء أن السلطان كان منصرفا إلى شئون أخراه بدرجة تصرفه عن معالجة شئون دنياه، وعالمه يومئذ عالم يضج بالصراع العنيف بين الشرق والغرب ،ومظهره قيام الإمارات اللاتينية بالشرق،ومحاولة المسلمين القضاء على هذه الإمارات ذاتها . وهؤلاء الكتاب المسلمون مثابون بقدر نواياهم .

إما إن كانوا مسيحيين فتتجلى عظمته من حيث وصفهم لأعماله فى كثير من السخط أحيانا ، واللعن أحيانا أخرى ، ورب لعنة كانت أصدق من المدحة فى الدلالة على أهمية الشخص ، وهنا تتجلى صنعة المؤرخ فى استخلاص الحقيقة من أى مصدر ، بالغا ما بلغ فى المدح أو القدح .

ولا أحب أن استعرض فى هذه الكلمة فصول الكتاب ، إذ أتركه يتحدث عن نفسه ، لكننى أشير عرضا إلى العلاقات السلمية بين المسلمين والصليبيين ، لأن طبقات المجتمع فى هذا العصر هرمية ، قمتها السلاطين

والخلفاء والأمراء فى المجتمع الإسلامى ، والأباطرة والدوقات والقوامس فى المجتمع الصليبى . أما ما تحت هذه القمة فى كلا الجانبين فطبقات الشعب ، وإذا كان هناك تنافر ما فإنه اقتصر على القمتين ، وأما ما سواهما فعلاقات من المودة والرحمة والترابط ، التى تسمو إلى درجة الأخوة ، وأى سمو فى الأخوة أجل من أن يفتح المسيحى كنيسته للمسلم للصلاة فيها !

وإننى لا أستطيع أن أختم هذه المقدمة إلا بشكر أستاذى الدكتور مصطفى زيادة الذى أتممت هذا البحث تحت إشرافه وإرشاده ، كذلك أرفع الشكر لأستاذى صاحب العزة شفيق بك غربال وكيل وزارة المعارف العمومية ، لتشجيعه المتواصل إياى وغيرى من أبناء المدرسة الحديثة فى التاريخ . وأزجى شكرى لأستاذى الدكتور حسن ابراهيم حسن ، لتفضله بالمشاركة فى امتحان الماجستير والمناقشة ، ولا أحب أن يفوتنى التنويه بفضل مسيو كوينتز « M. Quentz » مدير المعهد الفرنسى للآثار المصرية بالقاهرة ، إذ تفضل فأذن لى بمراجعة ما أريد من مكتبة المعهد .

وبعد فأرجو أن أكون وفقت بعض التوفيق فى تبيان شىء من ملامح ذلك العصر الغامضة ، وحسبى ذلك ، والسلام .

منيل الروضة . القاهرة
الأحد ٢٦ سبتمبر ١٩٤٨

حسن حبشى

الفصل الأول

القوى الاسلامية والمسيحية بالشرق الأدنى

فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى

ظهور حركة مقاومة الصليبيين بشمال العراق . حركة مودود الأولى سنة ٥٠٤ هـ . استغاثة رضوان بالخلافة العباسية . إعلان أهل بغداد للجهاد . حملة مودود الثانية ٥٠٥ هـ . اتحاد أمراء شمال العراق والشام . مقتل مودود . حملة إيلغازى لنجدة حلب . قيام بلك بالدعوة للجهاد وأسره جوسلين الأول ثم بلدوين الثانى . قيام آق سنقر فى إمارة الموصل . مقتله على يد الحشاشين . ظهور زنكى بالموصل . محاولته تكوين جبهة إسلامية بالقوة . موقف دمشق . موقف صفوة الملك زمرد خاتون منه وزواجها به . حصاره بعلبك . اصطدامه بالتحالف الدمشقى الصليبى . جوسلين الثانى . زنكى والرها . سقوطها فى يده ٥٤٢ هـ . معاملته لمختلف الجماعات بها . مقتله ٥٤٤ هـ .

طلع القرن الثانى عشر الميلادى على المسلمين وقد تكونت بالشرق الأدنى أربع قوى صليبية . هى مملكة بيت المقدس وإمارات أنطاكية وطرابلس بالشام ، والرها بشمالى العراق[1] . وكان لمملكة بيت المقدس الرئاسة على تلك الإمارات . وإنما تزيد هذه الرئاسة أو تنقص تبعا لشخصية المهيمن على شئون المملكة ، كما يتضح ذلك من عهد بلدوين الأول (١١١٠ — ١١١٨ م) وفولك الخامس (١١٣١ — ١١٤٢م) اللذين جعل كل منهما من شخصيته موئلا وملاذاً وناصحاً لبقية أمراء الصليبيين بالشام واستتب الأمر

---

(١) فيما يتعلق بتفصيل تكوين هذه الإمارات اللاتينية ، راجع حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص٤٨ — ٨٠ .

للصليبيين فى تلك الجهات الأربع منذ قيامهم بها تقريبا ، ويرجع معظم الفضل فى ذلك الاستتباب لما تردت فيه الإمارات والجماعات الإسلامية من ضعف ظاهر للعيان ، فضلا عن الانشقاق المذهبي الناشب بين خلافة بغداد السنية وخلافة القاهرة الشيعية مما سهل على الصليبيين زحفهم إلى قلب فلسطين فى كثير من الأحيان ، ولو تأتى للأقطار الإسلامية أن تتحد يومذاك فيما بينها ، وتنسى ما بين بعضها والبعض الآخر من الحزازات لاستطاعت أن تحفظ فلسطين من عبث الطارق الأجنبي ، وأن تحفظ بالتالى نفسها من تطلع هذا الغريب إليها ، ذلك أن فلسطين هى خط الدفاع الأول عن بقية العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى .

غير أن فكرة الوقوف فى وجه الصليبيين أخذت تنمو فى مستهل ذلك القرن بين أفراد قلائل من المسلمين بشمال العراق أولا ثم ببلاد الشام ولكنها لم تنضج تماما ، فلم يكن المحاربين «عزيمة صادقة فى جهاد ولا حماية بلاد[1]» ، ولعل فكرة مناهضة الصليبيين قد وجدت بفضل زوال الخوف الذى استولى على مختلف القوى الإسلامية فى بادىء الأمر من تقدم الصليبيين السريع فى الشرق ، وبروز المطامع الشخصية بين زعماء الصليبيين أنفسهم ، حتى أخذ بعضهم فى الكيد للبعض الآخر ولو اقتضى الأمر من أحدهم محالفة خصوم أبناء جنسه ودينه ، مع أنه لم يمض على مجيئهم للشرق إلا بضع سنين .

أما العالم الإسلامى يومذاك — باستثناء مصر والعراق — فكان مؤلفا من ولايات صغيرة لا تعدو الواحدة منها — فى بعض الأحيان — بلدا واحدا ، وكلها متنافر سياسيا ومذهبيا ، وأهمها حلب وأميرها رضوان الذى قصر فى مساعدة القوات الإسلامية وتركها تواجه الصليبيين وحدها مما أدى إلى هزيمة الدماشقة عند بلدة « البارة » سنة ٤٩٠[2]هـ . وتنبه رضوان —

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٥ .

(٢) ابن القلانسى : شرحه ، ص ١٣٤ ، G. T., p. 184 ; Raym. d'Agiles, p. 244

بعد لأى — إلى الخطر الصليبي ، فاتحد مع سكمان صاحب خلاط ومع ابن ياغى سيان فى أنطاكية على مباغتة العدو الزاحف جنوبا صوب أنطاكية بقيادة بوهيمند النورمانى فى فبراير ١٠٩٨ م ، إلا أن المسلمين لم يوفقوا فيما اعتزموه[١] .

ثم هناك شيزر العربية الخالصة التى أرادت أن توجد لها مركزا سياسيا مستقلا عن السلاجقة بإيثارها العافية مع الصليبيين[٢] ، وهذه سياسة نهجها بنو منقذ الكنانيون فعدوا فى تاريخ تلك الحقبة مثلا للمسالمة والأخوة وأمثال هذه الصفات ، فلم يكونوا رغم كثرتهم فى شىء من الشر وإن هان ، فتراهم يجزون من ظلم الصليبيين مغفرة ومن إساءتهم إحسانا .

أما دمشق فكانت وقت مقدم القوات الصليبية الأولى تحت إمرة طغتكين الذى عقد مع بلدوين الأول ملك بيت المقدس سنة ١٠٩١ م معاهدة اتفقا بمقتضاها أن يتقاسم الاثنان مع الفلاحين أرض السواد وعجلان وجبل عوف[٤] . على أن تلك التوفيقات التى صادفها الصليبيون أنتجت سلسلة من الأمراء المسلمين الذين حملوا علم الجهاد بشمال العراق ، لا سيما بعد أن بدا عجز السلاجقة عن الوقوف فى وجه الصليبيين . لكن ما هى علة ظهور حركة المقاومة فى شمال العراق خاصة دون بقية نواحيه ودون بقية العالم الإسلامى عامة ؟ . . . لعل نظرة إلى الخريطة تفسر لنا السبب ، وهو متاخمة الرها التى استولى عليها الصليبيون لذلك الإقليم الذى أدرك أهلوه أن لا بد من تطلع

---

(١) Gesta Francorum, p. 85; G. T., p. 194—199. ، حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٣١ — ١٣٢ .

(٢) Gesta Franco., p. 181, note 6, G, T., p. 295.

(٣) Derenbourg : Vie d'Ousama, t. I, p. 15 — 28, Ency. Isl. art Shaizar, J. R. A. S., 1933, p. 279.

(٤) لم يلبث ملك بيت المقدس أن نقض هذه المعاهدة ، راجع ابن القلانسى ، الذيل ، ص ١٦٤ ، ٢٧٤ ، Gibb : Damascus Chronicle of the Crusades, p. 92 وراجع الملحق الوارد فى Grousset : Hist des Croisades, t. I, p. 678 – 684.

الصليبيين — أن آجلا أو عاجلا — للتوغل فى بلادهم وانقضاضهم على أطراف تلك المناطق العليا من العراق عند أول فرصة ملائمة ، وهكذا لعبت الجغرافية دوراً هاما فى بعث المسلمين على التفكير الجدى فى المبادرة إلى مهاجمة المسلمين ، وبدءوا بالرها ذاتها .

كانت الرها من أقرب البلاد إلى نفوس المسيحيين من الناحية الدينية ، بسبب ما يزعمونه من القوى السحرية الفعالة لبعض قديسيها أمثال مار برسومة ، واعتزازها بمنديل المسيح(١) ، وقد أصبحت الرها بعد استيلاء الصليبيين عليها سنة ١٠٩٨ م من أمنع المعاقل بفضل تحصيناتهم لها ، ولم يخف على المؤرخين الذين كتبوا بصددها مقدار الأهمية التى ينعم بها من تكون الرها فى يده ، لتوسط موقعها ولسيطرتها على الطرق المؤدية إلى حلب والموصل(٢) ، فهى تقع على وجه الإجمال غربى دجلة وتصل جنوبا إلى الصحراء وتوجد فى شمالها جبال أرمينيا(٣) ، ولقد كانت هذه الحدود قديما عرضة للتغيرات بتغير العصور والأمم المجاورة ، ومهما يكن الأمر فقد كانت فى الغالب بمنجاة من أيدى المغيرين(٤) ، أما سكانها فأغلبهم من الأرمن الذين لعبوا دوراً غير تافه فى تاريخ تلك الحقبة واتجهت أهواؤهم إلى الصليبيين ، لذا كان طبيعيا وقت ذاك أن يفكر كبار الأمراء المسلمين فى انتزاعها من أيدى الصليبيين ، واتخذت الفكرة مظهرها العملى سنة ١١٠٩ م فى اتفاق رضوان أمير حلب وإيلغازى أمير ماردين على الإغارة على أملاك تنكريد النورمانى أمير الرها ، غير أن الجفوة لم تلبث أن دبت بينهم ، وسرعان ما تحولا إلى محاربة سنقر أمير الموصل ، ومن ذلك وحده يظهر

(١) Migne : Ency. Theol. arte "Edesse".

(٢) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٤٤ ، Dussaud : Topegraphie Hist. de

(٣) la Syrie, p. 482; Stevenson : Crusaders in the East, p. 153.

(٤) يذكر Duval : Hist. Pol. Relig . . . . d'Edesse, p. 97. أن للرها سبعة أبواب كانت لاتزال قائمة سنة ١٨٩١ ، أنظر أيضا Doeum. Arm., t. 1, p. G. T., p. 708 p. 340 — 342.

جليا أن فكرة «الجهاد» لم تكن مختمرة فى النفوس تماماً . وأن حركة بعض الأمراء المسلمين وقتذاك لم تكن خالصة لوجه الجهاد .

على أن الفكرة لم تلبث أن ظهرت قوية على يد مودود أتابك[١] الموصل سنة ١١١٠ م ، إذ اغتنم فرصة استغاثة القاضى ابن عمار[٢] أمير طرابلس بالخليفة البغدادى المستظهر بالله لدرء الخطر الصليبى عنه وأعلن الجهاد بعد موافقة الخليفة ورضاء السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه. وخرج مودود بجيش كبير وإن كان الانسجام مفقودا بين عناصره . فزحف أولا على أطراف الرها — وهى أقرب الإمارات إليه — حتى لا يطعن من الخلف إذا تقدم صوب طرابلس . ولعل ما شجعه على ذلك أيضا ما ترامى إلى سمعه من التنازع وقتذاك بين بلدوين دى بورج أمير الرها وبين تنكريد أمير أنطاكية . فطمع مودود أن تيسر الجفوة بينهما عليه فتح الرها . وكيفما كان الأمر فمن الطبيعى أن يتطلع مودود إلى ضرب تلك الإمارة بعد أن انضم إليه إيلغازى أمير ماردين وسكمان القطبى أمير خلاط وميافارقين . فزحف صوب الرها وألقى الحصار عليها سنة ١١١١ م[٣] .

لم يكن من العسير على مودود فتح الرها لما اجتمع عنده من العسكر الكثيف والرغبة فى الجهاد. هذا إلى الجفوة التى استحكمت حلقاتها بين بلدوين

---

(١) أجمل ابن القلانسى ، ص ١٨٨ ، سيرة مودود ، أما تفسير « أتابك » فى الدولة السلجوقية فراجع عنه دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « أتا » .

(٢) ولى بنو عمار أمر طرابلس منذ ١٠٧٠ م ، وهم سلالة أسرة شيعية انحدرت من بلاد المغرب مع الفاطميين ، وتولت حكم طرابلس شبه مستقلة عن مصر حتى جاء الصليبيون فهددوها بزعامة كونت تولوز ، راجع تاريخها بالتفصيل فى حبشى : الحرب الصليبية الأولى، ص ٧٦ — ٧٩ ، ابن القلانسى ، ص ١٤٦ — ١٤٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٧٨ — ١٨٠ ، وابن الجوزى : مرآة الزمان ، ص ٥٢٨ ، والدائرة ، مادة «ابن عمار» وطرابلس،
Gesta, p. 185 — 188; Raym. d'Agile, p. 275, Derenbourg : Autobiographie d'Ousama p. 378 seq., Dussaud : Topogr. Hist. p. 84.

(٣) Albert d'Aix : Liber Christianae (R. H. Occ. Cr.) t. IV, p. 670; Matthiew d'Edesse, p. 91.

دى بورج وبين تنكريد ، غير أن آماله ذهبت بددا لإزالة بلدوين الجفوة بين الأميرين الصليبيين وجمعه كثيرا من الأرمن تحت رايته وسيره بهم شطر الرها ، مما حمل مودودا على رفع الحصار والرجوع عن محاولته ، وبذلك فشلت أول محاولة فى سلسلة «الجهاد» ضد الصليبيين فى تحقيق أهدافها ، وإن دلت فى الوقت ذاته على إفاقة القوى الإسلامية ، وليس أدل على تلك الإفاقة من تسرب فكرة الجهاد إلى نفوس العامة فى البلدان المستظلة بظل الخلافة العباسية واعتناقها إياها إلى حد أنذر الخليفة العباسى بوجوب الانتباه إلى الروح الجديدة التى تمثلت فى قدوم جماعة من أشراف حلب وصوفيها وتجارها وفقهائها إلى بغداد مستغيثين من إفساد الصليبيين فى بلادهم ، إذ اجتمع أهل بغداد وقت صلاة الجمعة فى شعبان ٥٠٤ ﻫ وأنزلوا الخطيب عن المنبر وحطموه ، ونادوا بوجوب القيام بالجهاد ، وزادوا فمنعوا الناس من الصلاة — وهو حدث جد خطير فى الدولة الإسلامية — وتكرر هذا الحادث مرة أخرى بمسجد الخليفة ذاته (١) .

ويرجع مقدم الحلبيين إلى بغداد إلى أن تنكريد وجد — حين رجوعه من الرها إلى أنطاكية بعد جلاء مودود — أن رضوان ملك حلب أغار على أنطاكية فى غيبته وذلك رغم موادعة مبرمة بينهما . وكان الدافع لرضوان على تقرير تلك المحاولة ما جال بخاطره من أن الأمر أوشك أن ينتهى بالخلاص من الصليبيين على يد مودود وأحلافه أمام الرها . فطمع أن يساهم بنصيب فى محاربتهم بالإغارة على أنطاكية . لكن الحوادث جرت على غير ما توقع وتمنى ، فلم يستطع الاستمرار فى حملته على أنطاكية بل انعكست الآية حين خرج تنكريد سنة ٥٠٤ ﻫ متخشن الصدر على حلب وأهلها وأميرها . وعاث فسادا فى بعض نواحيها . وأسرف فى الانتقام من المسلمين الذين صادفهم . ولم يكتف تنكريد بذلك بل ازدهاه النصر فتقدم إلى

---

(١) ابن القلانسى : الذيل ، ص ١٧٣ .

الأثارب — وهي من أملاك حلب ومن أقوى الحصون الإسلامية إذ ذاك — واشتد في حصارها حتى سقطت في يده في ديسمبر ١١١٠ م (= ٥٠٤ هـ) ، وتتابعت انتصارات تنكريد بعد ذلك في القرى المجاورة . وهكذا أدت سياسة رضوان إلى هزيمته ، وهل هناك ما هو أدل على تدهور أحوال حلب من اضطرارها إلى دفع جزية كبيرة إلى أمير أنطاكية بعد ذلك كله [١] ؟ وتلك الأحوال هي التي حملت بعض الحلبيين قبلا إلى قصد بغداد طالبين من الخليفة إعلان الجهاد ، كما أدت بالكثيرين من أهلها إلى النزوح عنها والتماس الحياة حرة في أماكن أخرى .

أذعن الخليفة وقتذاك لمظاهرة البغداديين لإغاثة الحلبيين . وشجعه على تلك الحركة أن ألكسيس كومنين إمبراطور الدولة البيزنطية كتب إلى السلطان محمد السلجوقي يستعديه على الصليبيين لما رآه فيهم من سوء النية ، كما بعث إلى السلطان بكثير من الهدايا والتحف . وأنفذ الكتب يطلب إليه الإيقاع بالفرنجة ويعرض عليه اتفاق القوات البيزنطية والإسلامية على طردهم ويشير من طرف خفي إلى نواياهم في قصد بلاده . إذ يذكر أنه منعهم من « العبور إلى بلاد المسلمين » . وغير بعيد أن يكون ألكسيس قد رمى من وراء ذلك كله إلى ضرب القوات الصليبية بالإسلامية ليفرغ له الجو وليضعف كلا من الجانبين ، ومع أن هذا الرأي قد خفي على المسلمين إلا أن عزيمة بغداد استقرت على وجوب تسيير الجيوش للجهاد ، ومن ثم ألقيت القيادة مرة أخرى إلى مودود سنة ٥٠٥ هـ (= ١١١١م) ، فتوافد عليه أمراء النواحي المختلفة بجنودهم وغلمانهم ، ودبت في القوم الحماسة تذكيها شتى العوامل ، منها ما هو ديني ومنها ما هو شخصي بحت . وخرج مودود في سنته هذه بتلك القوى قاصدا الرها معقل الصليبيين الأشب ، فعزت عليه هذه المرة أيضا بسبب وجود بلدوين الأول ملك بيت المقدس بها وقتذاك فرأى مودود

(١) راجع الشروط في ابن العديم : منتخبات ، ص ٣٩٨ ، وابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٨٢ ، Stevenson : Crusaders In The East, p. 90

الانصراف عنها إلى ضواحيها ، ومال بمن معه إلى تل باشر أملا فى أن يجد فى الاستيلاء عليها ما يعوضه عن الارتداد عن الرها . واشتد مودود فى حصار تل باشر[١] التى دافع عنها صاحبها جوسلين الأول . وكادت البلدة أن تستسلم لولا أن عمد جوسلين إلى رشوة أحد القادة المسلمين واسمه أحمديل الكردى فأبى هذا القائد مواصلة الحصار ، وأشار بوجوب الرحيل عنها لنجدة حلب[٢] التى كان تنكريد النورمانى قد عزم على التنكيل بصاحبها رضوان انتقاماً منه بسبب مهاجمته لأنطاكية من قبل فى غيبته . وتظاهر أحمديل الكردى بوجوب استغاثة رضوان بجيش مودود الذى خاف مغبة الانشقاق فى صفوفه . فنزل على إرادة أحمديل ، وتحويل مودود بمن معه إلى حلب ، وأغذ القوم المسير حتى بلغوها ، ولكنهم لم يجدوا من أميرها ترحيبا إذ فزع من كثرة عددهم ورفض السماح لهم بدخولها أو مد يد المساعدة لهم ، رغم أنهم قدموا لنجدته واستجابة لدعوة الحلبيين أنفسهم . وظل مودود أمام أبواب المدينة حتى انصرف عنه معظم قواده ورجاله مؤثرين العودة إلى أوطانهم .

على أن مقدم مودود إلى حلب — وإن لم يؤد إلى نتيجة ما — فإنه نقطة انتقال هامة فى تاريخ حركة الإفاقة الإسلامية ، إذ يبدو أنه أدى إلى تطلع مودود لمهاجمة الصليبيين بالشام ذاتها، وإلى تفكيره فى القطع بينهم وبين الرها. وبذلك انتقل مسرح النضال بين زعماء حركة الإفاقة الإسلامية وبين الصليبيين إلى أرض الشام ، ومن ثم أخذ مودود فى التقرب إلى بعض الأمراء الشاميين من المسلمين . فانعقدت المودة بينه وبين طغتكين أتابك دمشق ، واتفق

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠٢ ، وابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ١٦٩ .

(٢) ابن القلانسى : الذيل ، ص ١٧٥ ، وابن العديم : منتخبات ، ص ٥٩٩ — ٦٠٠ ، Matthiew d'Edesse, Chroniques, p. 114 — 115.

رأيهما على مهاجمة الصليبيين فى طرابلس . ووعدهما سلطان بن منقذ أمير شيزر بالمساعدة ، وهكذا ظهرت بادرة من الاتحاد بين الأمراء المسلمين بشمال العراق وبلاد الشام لأول مرة منذ مقدم الصليبيين إلى الشرق[١] .

غير أن تلك الحملة التى هاجمت طرابلس سنة ١١١١ م لم تستطيع تحقيق شيء ما لحلول فصل الشتاء ، لذا رحل مودود عن الشام ، ثم مالبث بلدوين ملك بيت المقدس أن أغار على بعض قرى دمشق سنة ١١١٣ م . فكتب طغتكين إلى مودود يطلب إليه القدوم إلى الشام مرة أخرى . واجتمع الأميران بمرج سلمية[٢] وذهبا معا إلى دمشق لإعداد العدة . وهناك قتل مودود بيد أحد الباطنية فى تلك السنة. فكان مصرعه ضربة للجهاد الإسلامى وإنقاذا للجماعات الصليبية ، لكن إلى حين .

ذلك أن فكرة محاربة الصليبيين هدأت مؤقتا بعد مقتل مودود لاضطراب الأمور بين أمراء المسلمين بشمال العراق[٣] ، كما ساور الشك نفس السلطان محمد تجاه طغتكين . ورأى أن مقتل مودود إنما هو أمر مدبر بين طغتكين وبين الحشاشين ، وطبيعى أن يؤدى هذا السوء فى الظن بطغتكين إلى الجفوة بينه وبين السلطان السلجوقى وإلى خمود فكرة قتال الصليبيين ، لكن الفكرة ما لبثت أن انبعثت من جديد على يد إيلغازى لحمل الراية بعد مودود . وكان الخطر الصليبى لا يزال محدقا بحلب من ناحية أنطاكية التى تولى أمرها روجر (١١١٢ — ١١١٩ م) بعد تنكريد ، إذ أدرك هذا الأمير الجديد ما تحت الوثبات الإسلامية السالفة من معنى ، فأراد أن يهزمها بالحرب قبل استواء عودها . وتبين له أن فى قدرة الإمارات الإسلامية

---

(١) ابن القلانسى : الذيل ، ص ١٧٥ ، ١٨٤ — ١٨٥ ؛ Albert d'Aix, Op. Cit., p. 693 — 696 ; Metthiew d'Edesse : Chronique, p. 107 — 108, G. T., p. 486.

(٢) ابن القلانسى : شرحه ، ص ١٨٥ ، Stevenson : Op. Cit., p. 62 — 63.

(٣) راجع الدائرة مادة « إيلغازى » .

المختلفة — إذا اتحدت جهودها — أن تقذف بالجماعات الصليبية من الشرق، سواء أكان ذلك عن طريق الحرب أم المقاطعة الاقتصادية . لذلك تطلع روجر لأخذ حلب فقام سنة ١١١٩ م بالإغارة على بعض بلادها، واستولى على «بزاعة»(١) وضيق على حلب نفسها حتى كادت أن تعدم القوت، ولم يرجع عنها حتى قاسمها بعض المناطق الواقعة قرب أبوابها . فالتمست حلب النجدة من بغداد مرة أخرى فلم تنلها . فاتجهت نحو إيلغازى فوجدت فيه ملبيا لها بالعتاد والرجال، وخاف صاحب أنطاكية من تحرج الأمور بإمارته إذا ما ترامى بين أهلها خبر النجدة الإسلامية، فاستغاث ببلدوين الثانى ملك بيت المقدس لقرابته منه(٢) . غير أن روجر استبطأ النجدات الصليبية فقام بمهاجمة «إيلغازى» دون أن يأخذ للأمر أهبته من القوة ومن رباط الخيل، فانتصر عليه أمير ماردين، واستولى منه على حصن «قسطون» غربى معرة النعمان، وكانت خاتمة النصر مقتل روجر نفسه . على أن أهمية هذه الحادثة لا تقف عند حد النصر المادى القريب، بل تتعداها إلى ما صحبها من اتحاد بعض الأمراء المسلمين أمثال دبيس بن صدقة أمير الحلة فى العراق، وسلطان بن منقذ أمير شيزر، وطغتكين أتابك دمشق، ووقوفهم جميعا إلى جانب إيلغازى(٣)، ولم يكن ثمت شك فى أن انتصار إيلغازى ومقتل روجر كانا ضربة وجهت إلى صميم القوى الصليبية فى الشام، ورن صداها فى كل مكان، حتى إن الخليفة المسترشد بعث إلى إيلغازى خلعة التشريف وسماه «نجم الدين» تعظيما لقدره(٤) .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ١٦٢ .

(٢) G. T., p. 536; Rey : Resumé Chorn. de l'Hist. des Princes d'Antioche, p. 340 — 342.

(٣) إبن العديم : منتخبات، ص ٦١٥ — ٦١٩ .

(٤) لم يفت الشعر تسجيل ما جرى فيقول أحد الشعراء .

قل ما تشاء وقولك المقبول — وعليك بعد الخالق التعويل
واستبشر القرآن حيث نصرته — وبكى لفقد رجاله الإنجيل

راجع ابن الأثير : الكامل فى التواريخ، ص ٢٢٥ .

قويت نفوس المسلمين بهذا النصر، كما تعرضت أنطاكية لأحرج موقف يمكن أن تصل إليه أحوالها، لولا قيام «برنارد» الأسقف البابوى بجمع الأمور فى يده، فلم تطر نفسه شعاعاً رغم تضعضع نفسية أهلها المحليين وما لاحظه عليهم من العزوف عن مقاومة العدو وميلهم إلى التسليم. فقام بخطة تنطوى على كثير من الشجاعة ولعلها تنطوى أيضا على كثير من التهور، إذ عمد إلى تجريد سوريى أنطاكية من أسلحتهم حتى لا يثبوا على الفرنجة إذا قدم العدو، وذهب إلى أبعد من ذلك فمنعهم من مغادرة بيوتهم إذا جن الظلام، ووكل إلى الصليبيين وحدهم حماية الأسوار والحصون والقلاع، وجعل منهم العسس، وأخذ يطوف بنفسه ليرى مدى تنفيذ هذا الأمر ... خطة حاكم عسكرى حازم لبلد محارب فى عصر حديث.

أقبل بلدوين الثانى ملك بيت المقدس واستطاع دخول أنطاكيـة سالماً فتلقاه أهلها بالترحاب، والتحم بعد ذلك بالمسلمين بقيادة «إيلغازى» عند «تل دانيث» فى أغسطس ١١١٩ م، وقدر له النصر عليهم، فاطمأنت أنطاكية وأخذت جيوشها تشن الغارة على بعض البلاد الإسلامية[١].

وبينما تلك الحركة الإسلاميــــة الأولى بين مد وجزر بشمال العراق وأطراف حلب. واجهت الرها سنة ١١٢١ (= ٥١٦ هـ) خصما عنيفا فى «بلك بن أرتق» صاحب قلعة خرتبرت[٢]، الذى تطلع أيضا للقضاء على الصليبيين بتلك الجهات الشمالية. لذلك رأى جوسلين الأول — وهو صاحب الأطماع الكثيرة وخصم القوة الإسلامية — أن يتربص لهذا الخصم وينقض عليه قبل استفحال أمره. إلا أن الحظ وافى «بلك» فأسر جوسلين

---

(١) إبن العديم : منتخبات، ص ٦٢٢ — ٦٢٥ ; Matthiew G. T., p. 527 — 531 ; d'Ed. p. 343 ; Dussaud : Topogr. Hist. p. 167, 192.

(٢) Le Strange : Lands of the Eastern Caliphate, p. 117.

ومن معه عند سروج[١] وقادهم جميعا إلى قلعة خربوط ، وكان ذلك من أكبر الانتصارات التى أحرزها المسلمون على الصليبيين فى تلك الحقبة ، لما ترتب عليه من ضياع قوة صليبى الشام المعنوية . وتطلع الجماعات الإسلامية إلى الوثوب عليهم من كل ناحية .

ولم يخف ذلك على بلدوين الثانى ملك بيت المقدس الذى صارت إليه الوصاية على إمارة أنطاكية بعد مقتل روجر ، وعلى الرها بعد أسر جوسلين ، وأدرك أن واجبه يحتم عليه القيام بعمل حاسم ليفهم المسلمون أن القوة الصليبية لا زالت قوية باطشة ، وأنها تستطيع الدفاع عما بيدها ضد أية محاولة إسلامية يراد بها إضعاف هيبة الصليبيين فى أية إمارة من إماراتهم. لذا أخذ بلدوين الثانى فى الاستعداد لمهاجمة حلب، غير أن بلك فاجأ بلدوين فى بعض الطريق وأسره ووضعه مع جوسلين . وترتب على ذلك خلو ثلاث من الإمارات الصليبية الأربع — وهى أنطاكية والرها وبيت المقدس — من حماتها الذابين عن بيضتها ، فأصبحت فى حال يرثى لها من الضعف. وعدمت المدافع ، وصارت غرضا يرمى بالسهام ، على أنه بقيت هناك طرابلس ، ولم يكن فى «بنص» أميرها ما يؤهله لجمع كلمة الصليبيين ولتزعم حركتهم. وليس لديه من القوة ما يمكنه من تخليص الأميرين الصليبيين ، كما تعرضت مملكة بيت المقدس ذاتها لخطر القوات الإسلامية المتاخمة التى طمعت فى الاستيلاء عليها بعد أسر بلدوين الثانى ، لذلك عمد أهلها إلى إقامة « استاش جارنييه » Estache Garnier أمير صيدا مكان الملك إلى أن يطلق سراحه ، وكان استاش رجلا موطأ الكنف لجماعته، وفارساً بارعا محببا إلى نفوس الصليبيين فآثروه بتلك المكانة وذلك العبء وهما جد ثقيلين[٢]

(١) ابن القلانسى : الذيل ، ص ٢٠٨ ، ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب، ص ٦٣٤ ، ابن الأثير : الكامل فى التواريخ ص ٣٤٤ ؛ Matth. d'Edesse, p. 131 — 132]; Rey : Colonies Fran. p. 306.

(٢) O. T., p. 538.

غير أن جوسلين تمكن من الفرار من الأسر بمعونة جماعة من الأرمن[١] الفدائيين ، فذهب توا إلى الرها ، وجيش جيشاً لاستخلاص سيده بلدوين ملك بيت المقدس . ثم خرج جوسلين من تل باشر قاصدا حلب سنة ١١٢٢م فأحرق بعض نواحى بلدة « باب » انتقاما من بلك ، كما هدم كثيرا من قبور أولياء المسلمين بناحية « حيلان [٢] » . وعاد إلى تل باشر محملا بالغنائم والأسلاب ، وبعد ذلك بقليل مات بلك ١١٢٤ م (٥١٨ هـ) وهو قائم على حصار « منبج »[٣] التابعة لإمارة طرابلس الصليبية، ففقد المسلمون فيه رجلا أثبتت أعماله أنه زعيم يجمع كلمة القوى الإسلامية ضد الصليبيين [٤] .

انتقل عبء الجهاد بعد ذلك إلى الأمير الاسفهسلار [٥] « آق سنقر البرسقى » أتابك الموصل الذى استغاث به أهل حلب [٦] فى سبتمبر (شعبان ٥١٨ هـ) حين حاصرهم بلدوين الثانى وحليفه دبيس بن صدقة وشرعا فى قتالها والمضايقة حتى قلت الأقوات وخيف وقتذاك على حلب . وأرجف القوم من الجانبين بقرب سقوطها لولا أن أدركها آق سنقر البرسقى بالجيش الضخم فرفع المحاصرون عنها الحصار ، « ورحلوا منهزمين وتبعهم سرعان الخيول يتلقطون من يظفرون به ولم يلو منهم منهزم على متلو » ، فلا عجب إذا مال القوم إليه واجتهد هو فى المراماة دون البلد الذى تسلمه نوابه فى أواخر تلك السنة .

على أن هذا النصر الذى لقيه البرسقى أغراه بمتابعة حركته ضد الصليبيين،

---

(١) ابن القلانسى : شرحه ، ص ٢٠٩ — ٢١٠ ، الدول والملوك ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ب — ١٩٢ ا ، والدائرة مادة Karput وراجع أيضا — G. T., p. 538 539, Mat. d'Ed., p. 133—134. Stevenson : Crusaders in the East, p. 111, note 8.

(٢) ابن العديم : شرحه ، ص ٦٣٨ — ٦٣٩ ، والدائرة ، مادة « حلب »

(٣) ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٤) ابن العديم ، شرحه ، ص ٦٤٢ .

(٥) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٦ .

(٦) راجع فى تحديد التاريخ وتحقيقه Stevenson : Crusaders in the East, p. 111, note 8.

كما أن تسلمه حلب أطمعه فى تكوين محور إسلامى يمتد بين الموصل وحلب، ولعل هذا هو الذى دفعه إلى الانقضاض على بعض البلدان المتاخمة له والموجودة بيد الصليبيين ، مثل « كفر طاب » والتأهب لمقاتلتهم ، إلا أن جماعة من الحشاشين وثبوا عليه [1] سنة ١١٢٦ (ذو القعدة ٥٢٠هـ) وقتلوه ، وهكذا زالت الشخصية الرابعة من بين الشخصيات الإسلامية التى فكرت فى الجهاد ضد الصليبيين ، وتجلى خطر الجماعات الاسماعلية التى أخذت تثب فتقتل كل عامل للوحدة الإسلامية . وما كاد مسرح الحوادث يخلو من البرسقى حتى خيل للناس ولمن يرقبون تطور الأمور فى بلاد الشام آنئذ أن الجو قد صفى للصليبيين ، إلا أنه ما لبث أن ظهر زنكى وهو أقوى الشخصيات التى تمخض عنها النصف الأول من القرن الثانى عشر .

☆ ☆ ☆

لم يكن عماد الدين زنكى وليد الصدف، ولكنه نشأ على مقربة من مسرح النضال بين القوتين الإسلامية والصليبية ، بل اشترك فى بعض الحوادث التى جرت بينهما ، ثم إنه منذ نعومة أظفاره لمس التناحر بين القوات الإسلامية[2] وحظى بكثير من عطف السلطان محمود السلجوقى أحيانا ، وتمتع بصداقة الخليفة المسترشد العباسى أحيانا أخرى ، كما شهد عن كثب ما هنا لك من الصراع بين السلطان والخليفة حول السيطرة الفعلية فى الدولة الإسلامية وساهم إلى جانب السلطان فى ذلك الصراع الذى انتهى بانهزام الخليفة سنة ١١٢٧ م .

من ذلك كله يتجلى إلمام زنكى التام بأحوال العالم الإسلامى المضطربة إبان تلك الفترة الانتقالية فى تاريخ العصور الوسطى، ولم يخف عليه مقدار الضعف الذى دب فى أوصال القوة المسيطرة على ذلك العالم الذى يكون رقعة غير

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج ٤ ، ص ٦١ .
(٢) ابن الأثير : أتابكة الموصل ، ص ٣١ ، ٣٤ — ٣٥ .

صغيرة تمتد من العراق إلى مصر وتشمل جميع منطقة بلاد الشام والجزيرة العربية، وإن فرقت العقائد بين أفراده . وأدرك زنكي أن الأمر معقود للقوة ، وطمع أن يكون هو ذاته صاحب تلك القوة . لكنه رأى أن الأمور مرهونة بأوقاتها وظروفها ، وأن عليه اغتنامها عندما تلوح له الفرصة التى تبدت له فعلا حين دس جماعة من أنصاره وأقاربه يحسنون للسلطان توليته أتابكية الموصل ، ونجحت خطته وتم له ما أراد ، وخرج منشور السلطان بتعيينه[١] سنة ١١٢٧ م (٥٢١ هـ) .

ومن ثم يمكن القول بأن عماد الدين لم يكن يعجز عن تحقيق مآربه بمختلف الوسائل التى سنراها ممثلة فى سياسته التى يرمى من ورائها إلى تقوية نفوذه فى النواحى التى تحت سلطانه أولا ، ثم محاولة ضم ما يمكن ضمه من البلدان الإسلامية التى سوف يعتمد عليها لتموين قواته ، حتى إذا تم له ذلك كله استطاع أن يخرج بما اجتمع لديه من القوات لمحاربة الصليبيين وطردهم عن أطراف العراق والشام واستخلاصها لنفسه .

بدأ زنكى سنة ٥٢٢ هـ بتأمين حدود ولاية الموصل من الشمال وذلك بالاستيلاء على جزيرة « ابن عمر »[٢] شمالى الموصل ، ثم نصيبين والخابور وحران[٣] ، وأصبح يتاخم الرها أكثر من قبل ، فلما فرغ من تلك الناحية اتجه ببصره إلى بلاد الشام ، وطمع فى حلب التى كثرت بها الفتن الداخلية وقتئذ حتى طمع فيها من الصليبيين جوسلين الأول أمير الرها ، وبوهيمند الثانى أمير أنطاكية ، ولم يعدم زنكى الوسيلة لتبرير زحفه على حلب فاتخذ من أخبار تفكير الأميرين الصليبيين فى مهاجمة حلب ذريعة للتدخل فى شئون

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٤٧ ، وأتابكة الموصل ، ص ٦٠ — ٦١ ، وابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٤ ، Stevenson ; op. cit. p. 122.

(٢) الدول والملوك ، س ٢٢٤ ب — ٢٢٥ ا .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٠٢ ، ٣٨٣ ، Le Strange : Lands of The Eastern Caliphate, p. 93.

الشام . فاستصدر من السلطان السلجوقى عام٥٢٢ (١١٢٨ م) منشورا بأن تكون حلب من بين البلاد الداخلة فى حكمه [١] ، وأضاف إلى ذلك زواجه من ابنة رضوان صاحب حلب سابقا حتى تكون له شرعية الحكم بها [٢] .

اتجه زنكى بعدئذ صوب الجنوب حيث إمارة دمشق وهى التى شغلت الجزء الأكبر من مجهوده وعزت عليه، وكانت دمشق من الإمارات الإسلامية الهامة بالشام ، وفى وقت ظهور زنكى كان متولى أمرها ظهير الدين أتابك الذى رفع من مكانتها فى أعين المسلمين والفرنجة على السواء ، لكنه مات سنة ١١٢٨م بعد أن استخلف على دمشق من بعده ولده تاج الملوك بورى .

وحوالى ذلك الوقت امتد خطر الباطنية بالشام،ولاسيما حين تولى أمرهم إسماعيل العجمى الذى اتخذ « بانياس » مقاماً له ، إذ علم اسماعيل هذا بعزم بورى على الفتك بطائفته ، فلم يجد سبيلا لمضايقته إلا بمنح بانياس للصليبيين والانتقال إلى بلادهم [٣] ، وعند ذلك أخذ بورى يعمل على مضايقة الحصن، ورأى الصليبيون وقتذاك أن الفرصة قد سنحت لمهاجمة دمشق [٤]، وأقبلت جماعاتهم فى نوفمبر ١١٢٩ بقيادة فولك ملك بيت المقدس الجديد لتحقيق ما تمناه كثير من أسلافهم لتكون دمشق جزء من الدولة الصليبية بالشام . لذلك جرت المراسلات بين بورى وزنكى لدفع ذلك الخطر عن دمشق ، وكتب بورى إلى ولده « سونج » — وكان على حماة — يأمره بالانضمام إلى زنكى لمحاربة الصليبيين، على أن زنكى لم ينهض لمساعدة بورى حبا فى إنقاذ دمشق من الفرنجة بل جريا وراء تحقيق أطماعه ، ولم يلبث أن قبض على «سونج» ، وزحف على حماة وحمص واستولى عليهما، واكتفى بذلك مؤقتا [٥].

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٤١ .

(٢) ابن العديم : منتخبات ، ص ٦٥٨ .

(٣) الدول والملوك ، ج ٣ ، ص ١٨ .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٢٤ — ٢٢٦ ، Gibb : Damascus Chronicle, p. 197 et seq.

(٥) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ص٥٦٨ — ٥٦٩ .

فى تلك الأثناء وقع الأمير دبيس بن صدقة صاحب الحلة فى يدى بورى. وكان دبيس حليفا للصليبيين، فر من العراق خوفاً من الخليفة المسترشد بالله. فأراد زنكى الاستحواذ عليه ليجعل منه رهينة يستخدمها فى تحقيق مآربه وأطماعه لدى الخليفة. فكتب إلى بورى يعرض عليه استعداده لإطلاق سراح « سونج » إن أسلمه دبيسا، وتم الاتفاق والتبادل. ثم لم يلبث بورى أن قتل فى أوائل يونيو ١١٣١ (٥٢٦ ه) بيد الباطنية[١]، وخلفه ابنه اسماعيل. فظن الصليبيون أن ساعة دمشق قد دنت لصغر سن صاحبها وطمع فيها من لا يعتد به. فاجترأ « دى بور » أمير بيروت على أخذ عدة أحمال من الكتان الذاهب إلى دمشق تحرشا بالأمير اسماعيل. على أن خاتمة الحوادث خيبت ظنون الصليبيين وهدمت آمالهم لما أصابه اسماعيل من الفوز فى مهاجمة حصن « بانياس » وامتلاكه إياه فى نوفمبر ١١٣٢ (محرم ٥٢٧ ه) مما أحدث دويا شديداً ارتاع له الأفرنج « وامتلأت قلوبهم رعبا ووجلا وأكثروا التعجب من سهولة الاستيلاء على بانياس مع حصانتها وكثرة الرجال فيها »[٢].

هنا يحق للشخص أن يتساءل عن علة عدم تحرك مملكة بيت المقدس وعدم مدها يد المعونة إلى جماعة الصليبيين، وترجع علة جمودها إلى انشغال ملكها فولك بمؤامرة « هيج دى بواسيه » كونت يافا[٣]، على أن اسماعيل

(١) ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٤، ص ٧٨، JRAS., p. 273، وقد رثاه الشريف الرضى على قبره بقصيدة جاء فيها :

بعدا ليومك فى الزمان فإنه   أقذى العيون وفت فى الأعضاد

أنظر أيضا ابن القلانسى، الذيل، ص ٢٢٩ — ٢٣٠، ٢٣٢ — ٢٣٣.

(٢) ابن القلانسى، ص ٢٣٧.

(٣) جاء « دى بواسيه » أبو هيج المذكور هنا، إلى الشام مع قريبه بلدوين الثانى وصار واليا على يافا، ثم مات فقام هيج مكانه، وأيده بلدوين الثانى لحبه إياه وعطفه عليه، إذ نشأ فى بيته وبين بناته، فلما كبرت مليزاند وتزوجت فولك كانت صلات « هيج » بها مما أثار شبهة زوجها فحقد عليه وخاصمه، فما كان من هيج إلا أن اتخذ من بين الأمراء من اتخذه =

لم يكتف بهذا النصر بل توجه إلى حماة واستولى عليها من يد مستحفظها « سنقر » غلام الياغسياني تابع زنكي[١] ، وكأن هذا الانتصار وما سبقه من الانتصارات قد أمده بقوة طمع بها أن يستولى على كثير من البلدان المجاورة فحاول أخذ شيزر ونزل عليها ، وأمر بالعيث فيها وفى نواحيها حتى حمل إليه أميرها سلطان بن منقذ من الهدايا ما أشبع طمعه ، فانكفأ إسماعيل إلى دمشق فى ذى القعدة ٥٢٦ هـ (= سبتمبر ١١٣٤ م) بعد أن صالحه أمير شيزر على مال يحمل إليه[٢]. ولم تنقض بضعة أشهر من بعد ذلك حتى هاجم اسماعيل شقيف تيرون المطل على ثغر بيروت[٣] ، وأخذه من يد الضحاك بن بجدل التميمى .

حدث كل ذلك والصليبيون يعدون العدة للسير إلى دمشق ، ولم يلبث الخبر أن شاع بأنهم تحركوا فعلا للزحف عليها ، فلم يكن من اسماعيل إلا أن قابلهم فى « حوران » ثم غافلهم وأغار على عكا والناصرة[٤] وطبرية ، مما أدى

= لمساعدته فى الانتقام من فولك ، ثم نشب نزاع بين هيج وبين جوتييه القيصرى الذى وقف فى حشد من الصليبيين فى بلاط فولك ورمى كونت يافا بتهمة محاولة اغتيال الملك . فحاجه هيج وانفقا على المبارزة . وفى اليوم المضروب اختفى هيج إذ هرب إلى عسقلان واحتمى بحاميتها المصرية التى اغتنمت هذه الفرصة وأخذت تعيث فى الشمال . فأغضبه ذلك الأمر ، فرجع إلى فولك يسأله العفو . وفى هذا الوقت استولى أتابك دمشق على بانياس من الصليبيين مما جعلهم يؤمنون بضرورة الاتحاد فيما بينهم . فاصطلحوا على أن يبعد هيج ثلاث سنوات عن بلاد الشام يذهب فيها إلى إيطاليا . غير أن أحد الفرسان الصليبيين اغتاله فثارت الشبهات حول فولك . وأرجف الناس بأنه المدبر لذلك الاغتيال . فدفع التهمة عن نفسه بأن قتل قاتله . بعد أن أقسم القاتل أنه قام بذلك من تلقاء نفسه . غير أن مليزاند اشتد غضبها على زوجها وعلى قاتل هيج . أما فولك فقد حاول أن يستل من نفس زوجته كل حقد عليه . فأسلم إليها مقاليد الأمور « حتى إن جميع شئون المملكة صارت تدبر بمشورتها ، وتجرى وفق إرادتها » كما يقول مؤرخ العصر وليم الصورى وهى عبارة يمكننا أن نفسر على ضوئها مجرى الحوادث فى أنطاكية فيما يلى . راجع G. T. p. 626 — 634 وكذلك ابن العديم . ص ٦٩٦ .

(١) ابن القلانسى : الذيل ، ص ٢٣٨ — ٢٣٩ ، والكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣

(٢) ابن الأثير : نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٣) Rey : Colon. Franc. p. 513

(٤) الدول والملوك ، ج ٣ ، ص ١٥٧ .

إلى رجوعهم عن دمشق للدفاع عما بيـــدهم وذلك فى ذى الحجة ١٢٨ هـ (= أكتوبر ١١٣٤) . ومهما يكن من أمر تلك الحرب فالواضح أنها أضرت بمصلحة الفريقين المتحاربين واستفاد منها زنكى، ولا عجب أن يدرك الصليبيون ذلك ويطلبوا الصلح من اسماعيل لا خوفا من بطشه كما يزعم الكتاب المسلمون[١] ، بل إبقاء عليه ليكون شجى دائما فى حلق زنكى .

غير أنه يظهر أن رضاء اسماعيل بمصالحة الصليبيين جعله فى نظر المعاصرين خائنا لمصالح المسلمين ، وكان من بين أولئك أمه زمرد خاتون التى أخذت تأتمر عليه ، خشية أن يتخذ زنكى من ذلك الموقف ذريعة للغارة على دمشق بحجة حماية المصالح الإسلامية . فلما رأى اسماعل أن يد القتل قد تمتد إليه بين لحظة وأخرى كاتب هو زنكى يسأله القدوم عليه لأخذ دمشق[٢] . ولعبت أمه دور السياسى الماكر إذ اهتبلت هذه الفرصة فجمعت الأكابر والمقدمين ، وعرضت عليهم قتل ولدها اسماعيل لم تأخذها فى ذلك وشيجة البنوة أو عاطفة من الرحمة والمحبة ، فأقروها على ما اعتزمت القيام به[٣] ، ومن العجيب أن ابن القلانسى[٤] يمدحها المدح العظيم لهذه الفعلة ، فيقول إنه قد حملها « فعلها الجميل ، ودينها القويم ، وعقلها الرحيم ، على النظر فى الأمر لما يحسم داءه ، ويعود بصلاح دمشق ومن حوته ، فتأملت الأمر فى ذلك تأمل الحازم الأريب ، فلم تجد لدائه دواء ، ولا لسقمه إشفاء إلا بالراحة منه [أى من اسماعيل] فصرفت الهمة الى مناجزته ، فأمرت غلمانها بقتله ، وترك الاهمال له ، غير راحمة له ولا متألمة لفقده » .

هنا وضحت الفرصة لزنكى وضوحا تاما لتحقيق حلمه فى ضم دمشق ، فبادر بإرسال رجاله للشخوص إليها تلبية لدعوة صاحبها إسماعيل ، غير أن

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٣ .

(٢) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ص ٩ ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٥٦ و Gibb : op. cit. p, 230.

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٩٠ .

(٤) راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

زمرد خاتون كانت قد أتمت تنفيذ الخطة التى رسمتها بقتل ابنها، وإقامة أخيه «محمود» من بعده سنة ١١٣٤ م (ربيع الآخر سنة ٥٢٩ هـ). فما كاد زنكى يبلغ ظاهر دمشق ويعسكر بأرض عذراء تمهيداً للحصار حتى علم بما جرى، وسرعان ما أدرك ألا أمل له فيما أراد لما رأى من شدة مراس الدماشقة ورغبتهم الصادقة فى الدفاع عن مدينتهم، إذ أبوا أن يدخلها عماد الدين إلا على آخر جثة من رجالهم. وكان الخليفة المسترشد بالله يخشى من نفوذ زنكى، وينظر بعين جازعة إلى توسعه فى الممتلكات. ولم يخف عليه غرضه من الزحف على دمشق. فأرسل يأمره برفع الحصار عنها، وهل كان إلا أن يؤمر فيجيب؟

عندئذ فكر زنكى فى الوسيلة التى تمكنه من الاستيلاء على دمشق دون أن يغضب أهلها، أو يثير الخوف منه فى نفس الخليفة العباسى، فتزوج[١] من «زمرد خاتون» وتمكن بفضل هذا الزواج الذى تم سنة ١١٣٨ (٥٣٣ هـ) من أخذ الأمور فى يديه. بيد أنه عجز عن إدراك مشروعه العظيم وتحقيقه[٢]. ثم لم تلبث الفرص أن خدمته إذ اغتيل محمود صاحب دمشق يوم ٢٢ يونيو ١١٣٩ (٢٣ شوال ٥٣٣ هـ) على يد ثلاثة من غلمانه. فحزنت أمه عليه، وأرسلت إلى زوجها زنكى — وكان بالموصل — تحرضه على الانتقام من مغتاليه. واتخذ زنكى — من حادث الاغتيال — ذريعة توصله إلى مآربه. فادعى أنه يريد معاقبة القتلة وحماية دمشق نفسها مما قد يبيته الصليبيون نحوها

(١) ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٤، ص ١٧٨.

(٢) كان زنكى يريد أخذ حمص، فعزت عليه أولا لشدة مراس القائم بتدبير أمورها وهو أنر (ابن العديم، منتخبات من تاريخ حلب، ص ٦٦٧، ٦٦٨)، ثم لم يلبث زنكى أن تسلمها وعوض «أنر» عنها حصن بعرين (ابن العديم، شرحه، ص ٦٧٨ — ٦٧٩) وكانت حجته فى الاستيلاء عليها أن يتخذها مركزا لصد الجماعات الصليبية، لاسيما وقد اغتنم فولك الثالث — ملك بيت المقدس — فرصة قدوم تيير الإلزاسى ١١٣٨ م مع جماعة من الفرسان الحجاج، ووجههم فى حملة خربت أرباض تل مجلون. G. T., p. 665 — 668. أما زواجه من زمرد خاتون فيراه بعض المؤرخين المسلمين ضرورة اقتضاها ما رآه هو من تحكمها فى دمشق، فظن «أنه يملك البلد بالاتصال بها»، أنظر الكامل، ج ١١، ص ٢٥، ومفرج الكروب لابن واصل، ص ٤٥.

عاجلا أو آجلا على غرار ما فعلوه سابقا . هذا وقد رأى زنكى فى قرارة نفسه أنه هو ذاته خير من يحمل الراية الإسلامية فى نضاله ضدهم ، فلم لا تكون دمشق تحت سلطانه الشرعى حتى يتمكن من الدفاع عنها ، وهل هناك من هو أجدر منه بذلك العبء ؟ إلا أنه أراد شيئا وأرادت المقادير سواه ، ثم حققت المقادير ما أرادت حين آلت الأمور فى دمشق أخيرا إلى يد الأمير أنر صاحب بعرين وبعلبك[١] .

على أن ذلك التطور فى أحوال دمشق لم يقلل من عزم زنكى فى الاستيلاء عليها ، فرأى أن يبدأ ببعلبك[٢] التابعة لها ، فشدد الحصار عليها حتى تخاذلت أمام هجماته القوية وسلمت له بالأمان ، لكنه لم يرع عهده ونكث[٣] بوعده . وأحس لدماشقة أن ساعتهم قد قربت ، ولا سيما أن زنكى صار على مقربة منهم ، وتبينت لأنر ضرورة التعاون مع قوة أخرى لرد عادية زنكى عن دمشق . وتمخضت هذه الضرورة عن التحالف الدمشقى الصليبى[٤] . ورحب الصليبيون باستغاثة أنر ترحيبا كبيرا[٥] ، لما فيها من الفرصة المواتية لتحطيم زنكى وقوته الفتية التى هددت أملاكهم وأوفد أنر رسولا من قبله هو أسامة بن منقذ[٦] إلى ملك بيت المقدس فولك الخامس ، (١١٣١ — ١١٤٢) فوجد الرسول العربى من الملك الصليبى إقبالا واضحا لفكرة الحلف بين دمشق والصليبيين . على أن فولك لم يشأ أن يبت فى الأمر دون استشارة مجلس المملكة ، أو بعبارة

---

(١) الكامل ج ١١ ، ص ٣١ — ٣٢ ، ابن العديم ، منتخبات ، ص ٦٨١ ، Derenbourg : Vie d'Ousama, Vol I, p. 172.

(٢) كانت بعلبك فى ذلك الوقت فى يد أنر الذى تسلمها من يد محمد بن بورى بعد مصرع أخيه محمود ؛ أنظر فى ذلك ابن القلانسى ، ص ٢٦٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٢ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٥١ .

(٥) G. T., p. 689

(٦) ابن القلانسى : ص ٢٥٩ — ٢٦٠ ، وابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ص ٣٤ ، وابن العديم : منتخبات ص ٦٨٢ ، وهذه المراجع لا تنص صراحة على اسم أنر ، لكن يستفاد ذلك من كتاب أسامة نفسه ، والظاهر أن فولك الخامس كان على اتصال بأسامة ، شديد الاعجاب بالفارس العربى ، راجع كتاب الاعتبار ، ص ٦٥ .

أخرى لم يرد الموافقة على الحلف إلا بعد دراسة ما حمله إليه أسامة من عروض .

لكن ما هى العروض التى قدمها أسامة باسم « أنر » ثمنا لتلك المساعدة لدرء الخطر عن إمارة إسلامية لها ماض غير منكور فى دفع الصليبيين عن بلاد الشام ؟ الواقع أنه ليس لدينا غير ما رواه ابن الأثير وابن القلانسى من أن أسامة تعهد للصليبيين بأن يحاصر الأمير أنر « بانياس » ويسلمها إليهم ، وكانت خاضعة لزنكى ، غير أنه عرض عليهم أن يسلمهم عددا من الرهائن توكيدا لصدق تعهده ، كما جعل نفقة الحملة التى ينهضون بها لمساعدته على حسابه[1] . وتم الاتفاق أخيرا بين ريموندى بواتييه أمير أنطاكية وبين فولك الخامس على مساعدة أنر ضد العدو المشترك .

تقدم فولك بجيشه صوب دمشق فى جمادى الآخرة سنة ٥٣٤هـ (يونيو ١١٤٠) ، فلما رآه زنكى تظاهر بالفرار أمامه خديعة منه ، حتى إذا أبعده عن الطريق إلى دمشق انقلب إلى الهجوم عليه . وما زال به حتى هزمه ففر فولك فى ثلة ضئيلة من الصليبيين إلى حصن الأكراد . وهناك حاصرهم زنكى وقطع عنهم الإمدادات ، حتى أكلوا لحوم الخيل والحمير « بلا ملح » . وهناك أرسل فولك إلى أمير أنطاكية وإلى جوسلين الثانى أمير الرها ليجمعا قواتهما وينهضا لمساعدته[2] . وبينما هذان الأميران وجيوشهما فى الطريق لنجدة فولك اعترضهما ابراهيم بن طرغت والى بانياس من قبل زنكى . فالتحم الفريقان فى وقعة قتل فيها الوالى ابراهيم . وعندئذ تحول الأنطاكيون صوب بانياس ذاتها وانضم إليهم ريموند الثانى صاحب طرابلس وفولك وأنر ، واشتد أتابك دمشق فى حصار بانياس حتى قل القوت عند حاميتها فاضطرت للتسليم إلى أنر الذى

---

(١) ابن القلانسى : الذيل ، ص٢٧٢ ، والكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٤ .

(٢) J. R. A. S. 1932 p. 194.

ر بوعده للصليبيين فأعادها إليهم[١] ، وتملكها وليم دى بور[٢] . ولما أدرك الصليبيون صدق أنر فى تحقيق الشروط المبرمة بينه وبينهم عملوا على تحقيق هدفه ألا وهو ضمان استقلال دمشق منعا من سقوطها فى يد زنكى الذى كان يتأهب لحصارها وقتذاك .

على أن زنكى لم يرد حينئذ أن تتطور الحوادث إلى حروب سافرة بينه وبين الصليبيين بل كان يتجنب الاصطدام بهم وجها لوجه ، فما كاد يسمع بتجمعهم مع عسكر دمشق حتى رحل إلى ناحية حوران . غير أنه سرعان ماعاد إلى الغوطة ، فلما كان صباح السبت السابع من ذى القعدة ٥٣٤ هـ(٢٢ يونيو ١١٣٩)[٣] اقتربت الجيوش الزنكية من سور دمشق قبل أن يتنفس الفجر وأحدقت بالمدينة على حين غفلة من أهلها . ولذا استولى زنكى على كثير من الخيل والغنائم ، وإن عجز عن دخول دمشق ذاتها[٤] . ولم يكد فولك يسمع بما جرى حتى نهض لإغاثتها ، فاضطر خصمه لرفع الحصار عنها ، غير أن دمشق لم تفد من تلك الحوادث كلها شيئا كثيرا ، بل كان الصليبيون هم الذين أفادوا منها كل الفائدة ، لاسترجاعهم بانياس دون خسائر جمة ، ولإيقاعهم الخلف بين القوى الإسلامية وانقسامها بعضها على بعض . لكن زنكى لم يرفع الحصار عن دمشق إلا لأنه رأى أن يؤخر محاسبتها ليوم يكف فيه الصليبيون عن مساعدتها . ولم يخف ذلك على خصميه أنر وفولك فاضطرا للبقاء على تحالفهما .

ولقد أدى هذا التحالف الدمشقى الصليبى إلى نتيجة سالبة وأخرى موجبة ، أما النتيجة السالبة فتتمثل فى أن عماد الدين خاف من هذا الاتحاد ، فأرجأ

---

(١) G. T., p. 671 — 673

(٢) راجع قصة إجبار فولك لوليم دى بور على رد غنم استولى عليها إجابة لسؤال أسامة . وهى واردة فى الاعتبار ، ص ٦٤ — ٦٥ .
Derenbourg : Vie d'Ousama, Vol. I, p. 185,—186 Autobiogr d'Ousama, p, 393.

(٣) تحقيق التاريخ العربى والميلادى فى Gibb : op. cit. p. 262, note 1

(٤) ابن القلانسى : الذيل ، ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

مهاجمة دمشق إلى وقت آخر تواتيه فيه الظروف . وأمنت دمشق هجومه عليها إلى حين ، فقام أنر وأسامة بن منقذ بزيارة الصليبيين فى بيت المقدس[١] ، وتوثقت عرى المودة بين رجال الجانبين ، وصار هناك شبه « أخوة » بينهما ، وكتاب أسامة حافل بهذه الصور المشرقة التى تجلو لنا صفحة من الحياة الاجتماعية ، وهى صفحة فيها شىء كثير من التفكه والنكتة ، فضلا عما فيها من دلالة على الاتحاد الوثيق الذى نشأ بين الدماشقة ، والصليبين[٢] ، أما النتيجة الموجبة فمظهرها تفكير زنكى فى توجيه القوة الحربية الاسلامية التى تحت يده فى سرايا نحو بلدان الصليبيين ، مما كان عاملا على تقوية الأطراف البعيدة[٣] . على أن زنكى لم يأخذ فى إنفاذ تلك السرايا إلا حين مات فولك ملك بيت المقدس وتولت الأمر الملكة مليزاند ، إذ قامت فى نوفمبر ١١٤٣ بالوصاية على ولدها بلدوين الثالث الذى لم يعد عمره ثلاث عشرة سنة .

من الطبيعى أن يتأثر سير الأمور فى دمشق بمجريات الحوادث فى مملكة بيت المقدس ، ويعد تولى مليزاند الحكم نقطة انتقال فى تاريخ التكتل الصليبى لانصرافها إلى عمل كل ما من شأنه إبقاء السلطة فى يديها والاستئثار بها دون ولدها ، وتغلب مطامعها الشخصية على الصالح الصليبى العام ، مما أدى فيما بعد إلى فشل الحملة الصليبية الثانية وإلى انقسام من حولها من أمراء بيت المقدس وإلى قيام النزاع بين أنطاكية والرها وطرابلس ، بعد أن كانت شخصية زوجها فولك الثالث خير عامل على التوحيد والنصرة . والواقع أن الصليبيين لاسيما بعد موت فولك الخامس — أصبحوا يستنجدون بزنكى ضد بعضهم البعض وقد

Derenbourg: La Vie d'Ousama, t. I, p. 188; Aut. d'Ousama. p. 460—465. (١)

Derenbourg : La vie d'Oussma t ; I: p. 166. (٢)

(٣) بعث زنكى سرية بقيادة الأمير لجة التركى ، كما قام نائبه فى حلب الأمير سوار بدفع أمير أنطاكية عن بزاعة سنة ١١٤٢ . واستولى زنكى فى نفس السنة على قلعة « أشب » التى عرفت فيما بعد « بالعمادية » راجع Gibb : Damascus Chronicle, p. 264, note 1 وانظر أيضا ابن القلانسى . ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٣ — ٢٧٨ .

تجلى ذلك قبل هذا التاريخ بعدة أعوام فى مسألة أنطاكية[١] . حين استعانت أليكس زوجة بوهيمند الراحل بزنكى ضد أبيها رغبة منها فى الاستئثار بحكم أنطاكية ، وحركتها الأطماع لركوب هذا المركب الوعر[٢] على إن لهذا دلالته الصريحة على مبلغ ما وصلت إليه القوة الإسلامية من البأس والخطر ، ومبلغ تأثير المطامع الشخصية فى توجيه السياسة الصليبية .

---

(١) استطاع بوهيمند أمير أنطاكية خلال فترة حكمه القصيرة أن يجتذب إليه قلوب رعيته لتساوى الإبداع فى الخلق والخلق ، إلا أنه ما لبث أن مات فى عمر الزهور إذ لقى مصرعه على يد جماعة من جند إيلغازى الدانشمندى وحملت رأسه إلى بغداد فى فبراير ١١٣٠م . راجع G. T., p. 599 — 600, Michael, III, 2, p. 217.

(٢) لم يخلف بوهيمند سوى طفلة صغيرة هى كونستانس من زوجه أليكس التى أدركت أن قيام أبيها بالوصاية سيشل يدها،فواطنت زنكى بخضوع أنطاكية له إن هو نهض لمعاونتها، الا أن أباها بلدوين الثانى قبض على رسولها فى بعض الطريق . فنهض إلى أنطاكية فى رعيل من الأشراف ودخلها رغم أرادة ابنته التى راحت اليه تلتمس منه العفو فأجابها اليه بعد أن خلعها من الوصاية ، وقطع الطريق على زنكى ثم لم يلبث بلدوين أن مات فخلفه فولك دوق أنجو تبعا لوصية الملك الراحل (G. T., p. 601 — 602) ورأت أليكس الفرصة سانحة لجمع الأمور فى يدها لا سيما بعد أن ضمت إليها بعض الأمراء الأقوياء أمثال جوسلين الثانى أمير الرها ، وبنص صاحب طرابلس ، ووليم صاحب حصن صهيون ، وقد وقف بنص ضد فولك فيما بعد أثناء قدومه إلى انطاكية (انظر ابن العديم ، منتخبات ، ص٦٦٤ ، والكامل طبعة أوربة ، ص ٤٠٠ Gipp : op. cit, p. 512 . ولعل انضمام أولئك الأمراء إليها أصرح دليل على أن القوة الصليبية فى الشام أخذت تسير فىالدورالذى مرت به القوات الإسلامية من قبل ، ألا وهو دور الانحلال والضعف ، على حين نجد أن القوة الإسلامية أخذت تمضى قدما فى سبيل القوة المادية والتكاتف الذى تجلى فى شخصية نور الدين فيما بعد مما لم يخف على أشراف أنطاكية ، وأدركوا وجوب القضاء على تلك المؤامرة الصليبية الإسلامية قبل استفحالها فدعوا فولك لنجدة الإمارة والضرب علىأيدىالعابثين بهدوئها ، الطامعين فى امتلاكها والقضاء على النفوذ الأكبر للملك بيت المقدس من الذى اشتد التفاف الأمراء حوله يوما بعديوم، وأخمد الثورة قبل ان تستشرى ، وعهد بتدبير الأمور إلى رينوما سوار الأنطاكى ، راجع Rey : Les Dignetaires p. d'antioche, p. 117, G. T., p. 613 — 614, Du Cangs-Rey : 391. إلا أن أليكس كانت دائمة التطلع لأخذ السلطان فىيدها ، فراحت تلتمس المعونة من بيزنطة . لذلك رأى ملك بيت المقدس ومشيروه وجوب الإسراع فى البحث عن زوج لكونستانس فاختاروا ريموند دى بواتييه راجع : G. T., 649 — 651 Chalandou . Comènes, II, p. 180.

ثم جاء دور الرها حين ظهرت الجفوة بين ريموند دى بواتييه صاحب أنطاكية وبين جوسلين الثانى صاحب الرها ، وهى جفوة اشتدت بين الأميرين الصليبيين حتى كان كل منهما — على قول وليم الصورى —[1] يفرح إذا ألمت بالآخر نكبة . وعلى الرغم مما بذله فولك من العمل على التوفيق بينهما مخافة قوه المسلمين التى لم يخف على أحد تفاقمها ، إلا أن هذه الجفوة سرعان ما عادت بين الأميرين عقب موت فولك . ذلك أن جوسلين الثانى صاحب الرها كان على جانب كبير من الرعونة أدت به إلى إقحام نفسه فى المنازعات الكهنوتية داخل الكنيسة اليعقوبية رغم مهادنتها للكنيسة الرومانية ، إذ أبى الاعتراف بأثناسيوس الثامن (١١٣٨ — ١١٦٦م) ، وأسرف فلم يظهر أدنى احترام للمقدسات الدينية[2] ، وكان اليعاقبة يعتزون بكف مار برسومة ويتبركون به فى ديرهم المعروف باسم هذا القديس ، فتجاهل جوسلين ذلك كله وأنكره عليهم وأبى إلا أن يأخذه فيما سلبه منهم ، مما أثار غضبهم ودفعهم إلى الارتماء فى أحضان المسلمين لا سيما مساعدتهم لمجاورهم قرا أرسلان ومسعود صاحب قونية .

أضف إلى ذلك انكباب جوسلين على ملذاته الخاصة ، وإيثاره الإقامة فى تل باشر وتركه مدينة الرها فى حماية جماعة من الأرمن والسريان ، وهم يتألفون من الإسكافية والحاكة والبزازين والطرزية والشمامسة[3] . أما الفرنجة فلم يكن منهم من شارك فى حمايتها سوى شرذمة ضئيلين .

وكيفما كان الأمر فقد أضحى واضحا لزنكى أن الفرصة سنحت لمهاجمة الرها ، على أنه تظاهر بعدم التفكير فيها حتى لا يتيح الفرصة لمن بها للتجمع

---

(١) Stevenson : Crusaders, p. 149. G. T., p. 709.

(٢) بل إن هناك من المسيحيين من يذهب فيعده أميراً غير مسيحى ، يتبين لنا ذلك من كلام Michael., Chroniques, p. 342. حيث يقول إن رهبان دير مار برسومة ساروا أمامه « كما لو كان مسيحيا » .

(٣) J R A S, P. 280.

ضده أو لمد يد المعونة إلى أهلها ، وإذذاك يتعذر عليه امتلاكها ، ولذا خرج زنكى سنة ٥٣٨هـ يريد الاستيلاء [١] على أطراف الإمارات التى حوله كديار بكر . ومع أن المؤرخين رأوا أن خروجه إلى تلك النواحى كان حيلة منه لستر مقصده الحقيقى فالواقع أن استيلاءه على ديار بكر فى تلك السنة كان من الخطة الزنكية المرسومة لتوطيد المملكة التى يريد إنشاءها ، وتكوين جبهة إسلامية شامية على أنقاض الإمارات والبلدان التى بأيدى الفرنجة والأمراء المسلمين الضعاف على السواء ، علما منه بأنه فى هذه الأوقات ذاتها كانت هناك هناك قوات الإمبراطورية البيزنطية ترقب الأمور عن كثب ، رغبة منها هى الأخرى فى امتلاك تلك البلاد .

ولقد رأى زنكى أن الموقف يحتم عليه تكوين هذه الجبهة لدفع الخطر البيزنطى من الشمال ، واستئصال شأفة الفرنجة فى الغرب والجنوب ، ومع أن هجومه على ديار بكر يمكن — مع هذا كله — أن يعتبر تعمية فإن الحيلة جازت على جوسلين الثانى ، إذ اطمأن باله وفارق إمارته وعبر الفرات إلى « تل باشر » ، ثم جاءت عيون زنكى إليه وعلى رأسها فضل الله بن جعفر نائبه على حران تحمل إليه نبأ مفارقة جوسلين لمدينة الرها . فلم يلبث قائده صلاح الدين الباغسيانى أن تقدم بجموعه يوم ٢٨ نوفمبر [٢] (أول جمادى [٣] الآخرة ٥٣٩) نحو الرها ، كل ذلك وجوسلين عاكف على صبواته ، على حين قام بالدفاع عن البلدة ثلاثة من رجال الدين أحدهم فرنجى ، والثانى

---

(١) ابن الأثير : **الكامل** ، ص ٤٤٣ ، ج ١١ ، ص ٤٣ .

(٢) هذا هو التاريخ الوارد فى الحوليات السريانية التى نشرها الأستاذان جب وترتون فى J. R. A. S., 281 ، أما عماد الدين فقد قدم لمحاصرتها يوم الخميس ٣٠ نوفمبر .

(٣) تفصيل قوات زنكى وقواده وموقع كل منهم بالنسبة إلى الرها وارد فى J.R.A.S., 218 — 280 ، أما فيما يتعلق ببعض أسماء الأماكن الواردة هنا فراجع op. cit. p. 103 note 4. هذا وقد حفلت المصادر العربية بذكر الدافع لزنكى على هذا الحصار ، راجع الروضتين لأبى شامة ، ج ١ ، ص ٣٦ ، وابن خلدون . العبر ، ج ٩ ، ص ٥٣٥ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٧٥ . J.R.A.S, p. 280 — 281

سريانى . والثالث أرمنى[١] . ريثما تصل إليهم الإمدادات من أميرها جوسلين ومن مليزاند الوصية على عرش مملكة بيت المقدس ومن ريموند دى بواتييه أمير أنطاكية . على أن الفضل فى استمرار هذه المقاومة وشدة الدفاع يرجعه وليم الصورى إلى « هيج » مطران البلد اللاتينى [٢] . وقد ترك لنا هذا المؤرخ صورة مشرقة لدفاع أهل البلدة وتفانيهم فى القتال ، فضلا عن الموقف النبيل الذى وقفه المطران هيج من دفعه الرواتب من ماله الخاص لحماية الرها . وقوله « إنه يسعده أن يموت فى الدفاع عنها » ؛ وقد تباطأ ريموند دى بواتييه فى نجدة الامارات الصليبية ، وتلك من الغلطات الجسام التى أخذها عليه أحد المؤرخين الصليبيين حين راح يستعرض حياته بعد قتله [٣] ، أما مملكة بيت المقدس فقد أرسلت نجدة بلغت البلد متأخرة .

خاف زنكى أن يتسرب الملل إلى جنده . لا سيما التركمان من طول مقاومة الأعداء لهم وشدتهم ، وخشى أن يجد العدو فسحة من الوقت تصله فيها الامدادات ، فكاتب أهلها طالبا التسليم فأبوا ، فعجل بنصب آلات الحرب وضربها بالمجانيق ، وعملت المجاعة فى القوم عملها ، فلم تلبث المدينة أن سلمت إليه يوم ٢٦ جمادى الآخرة ٥٣٩ هـ (٢٣ ديسمبر ١١٤٤ [٤]) بعد حصار عنيف وبعد أن أحيط بها من جميع الجهات وحيل بينها وبين ما يصل إليها من الميرة والأقوات ، حتى « صار الطائر لا يكاد يقترب منها خوفا من صوائب سهام منازليها ويقظة المضيقين عليها[٥] ، كما ترك لنا أحد شعراء الأرمن وصفاً لشدة فتك المسلمين بمن كان داخل الأسوار[٦] .

(١) J R A S, 1932, Op. Cit

(٢) G T, p. 711.

(٣) G.T., p. 773.

(٤) ابن القلانسى : الذيل ، ص ٢٧٩ ، المنتظم لابن الجوزى ، ج ٨ ، ورقة ١٠٠ ، JRAS, p. 284 ; Gibb : op. cit. p. 267.

(٥) ابن القلانسى : الذيل ، ص ٢٧٩ .

(٦) فيما يتعلق بهذه الناحية فى الشعر الأرمنى راجع Documents Armenien 5, 258, vers 960 — 1045 ; Greg. Le Prêtre, p. 158.

ثم أمَّن زنكى أهل الرها وحلف لهم الأيمان المغلظة على ذلك وإن اختلفت المراجع فى بقائه على هذا اليمين (١) . والظاهر أن جند زنكى قد ازدهاهم النصر والفتح ، فأخذوا فى السلب والنهب ، الأمر الذى لم يرض زنكى ألبتة، إعجابا منه بالبلد وإكبارا منه أن يفسدها. «ورأى أن فى تخريب مثلها لا يجوز فى السياسة (٢) » ، والظاهر أن زنكى لم يستعمل الفظاظة إلا مع الفرنجة (٣) . أما من سواهم كالأرمن والسريان والروم فقد وسعتهم رحمته، يؤيد هذا رواية ميخائيل الشامى والمؤرخ المجهول (٤) .

لكن ما هى أهمية سقوط الرها فى يد زنكى ؟ ألأنها معقل من معاقل الكاثوليكية ؟ أم لأنها بقعة من الغرب المسيحى وسط الشرق الاسلامى ؟ أم لأنها كانت تهدد طرق القوافل التى تمر عبرها إلى شتى بقاع البلاد الأسلامية ؟

الواقع أنها ذلك كله . وهى أيضا أول ثغرة نفذ منها المسلمون إلى غيرها من البلدان الصليبية التى لم تلبث أن سقطت فى يد زنكى . ثم إن سقوطها فى أيدى المسلمين يعتبر أول لغم وضع فى أساس البناء اللاتينى فى الشرق ، كما أنه أطمع المسلمين وأمراءهم لا سيما فى عهد نور الدين من بعد — فى الانقضاض على أطراف تلك الأمارة ، التى لم يبق منها فى يد جوسلين سوى تل باشر

---

(١) الفارقى فى ابن القلانسى ، ص ٢٧٩ ، حاشية رقم ١ .

(٢) الكامل ، ج ، ١١ ، ص ٤٥ .

(٣) Grousset : Hist. des Croisades, t. II, p. 191.

(٤) J R A S.، p. 285, 290, Mich., p. 263. ويذكر المرجع الأخير أن صلاح الدين الباغسانى ذهب إلى القلعة بعد دخول المسلمين الرها وأمسك بيد المطران وقال له « نطلب من قداستكم أن تقسم لنا على الصليب والإنجيل أن تخلص لنا لأنك تعلم تمام العلم أنكم جميعا تستحقون الموت لأنكم قاومتمونا واحتقرتم نبينا ، ونحن مستعدون لأن نحسن معاملتكم ونطلق سراح أسراكم ، وإنكم لتعرفون أنه منذ احتلال المسلمين لهذا البلد بقى فى يمينهم مدة قرنين مزدحما بالسكان ، واليوم — بعد خمسين عاما من احتلال الفرنجة إياه — صار خرابا ، وإن الحاكم [يعنى زنكى] لمستعد لحسن معاملتكم » ؛ فأخرجوا من القلعة جميع من بها من السريان والأرمن ونهبوا الفرنجة وحدهم ، كذلك يشير إلى أن المسلمين لم يتعرضوا لغير كنائس اللاتين .

وسميسطا ودلوك ومرعش وعنتاب وعزاز وألبيرة ، التى لم يلبث جوسلين أن سلمها من تلقاء ذاته إلى نجم الدين تمرتاش صاحب ماردين عدو زنكى [١] .

وسواء أكان تسليم ألبيرة رغبة من الصليبيين فى صد زنكى عنهم أم زيادة فى الإيقاع بينه وبين صاحب ماردين ، فالواقع أن سقوط الرها كان أول ضربة عملية ضد القوة الصليبية فى الشام ، ودلت على أن أمورهم أخذت منذ ذلك الحين « تتفسخ ، ومعاقلها تفرع [٢] » ، وهذه هى أول خطوة عملية فى إقامة السياسة التى انتهجها نور الدين فيما بعد .

لكن ما هو الثمن الذى حصل عليه الصليبيون لقاء تسليمهم ألبيرة ؟ لاشك أن هناك غاية أعمق من زيادة النزاع ، والمتتبع لسياستهم فى هذا العصر يرى أنهم أخذوا فى تكوين شبه تحالف مع الإمارات التى يمكن أن تناهض القوة الإسلامية الفتية الجديدة ، فكان هذا ثمن المصادقة بين الصليبيين أصحاب ديار بكر ضد زنكى ، غير أن هذه المحالفات كانت محالفات شخصية فردية .

ومهما يكن الأمر فقد عد المسلمون سقوط الرها فتحا مبينا ، وأن المحاربين فيها كانوا مجاهدين ، ومن مات بسيف الصليبيين فقد مات شهيدا ، مغفورة له خطاياه [٣] .

ترى هل يمر على المسيحيين انتصار زنكى دون أن تكون له ذيول؟ وهل لهم أن يطمئنوا إلى مجريات الأمور على ذلك المنوال ، الواقع أن هناك

---

(١) هذه هى رواية ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٧٦ — ٧٧ ، أما ابن القلانسى « الذيل » ص ٢٨٠ فيذكر أن عماد الدين توجه إلى حصن البيرة وأخذ فى مضايقته حتى ضعف أمره وعدمت الميرة فيه ، وكاد أن يتم له الاستيلاء عليه لولا ما بلغه من وثوب الملك فرخانشاه على نائبه بالموصل الأمير نصير الدين ، فخاف العماد من اضطراب الأمور فى ولايته فرفع الحصار عن ألبيرة ، وجرى بعد ذلك تسليم الافرنج بها إلى صاحب ماردين فى قول ، أو غزو صاحب ماردين لها فى قول آخر . أما ابن الأثير فى كتابه أتابكة الموصل ، ص ١٢٦ ، فيرى أن شدة مقاومة الحامية فى الدفاع عنها أرغمت زنكى على الارتداد عنها ، أنظر أيضا JRAS. p. 286 — 287.

(٢) البندارى : مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٨٦ .

(٣) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٤٦ .

جماعات من أهلها ساءتها النكبة الملمة ببلدهم فأخذت تتحين الفرصة للتخلص من المسلمين ، يدفعها إلى ذلك عامل الدين من جهة وعامل السياسة من جهة أخرى .

أما من الناحية الدينية فتتمثل لنا فى غضب أهلها من استيلاء المسلمين على موجودات الكنائس ، وينص المؤرخون جميعا على أن الأرمن وحدهم بعد الصليبيين — كانوا أشد سكانها نقمة على المسلمين وتأففا منهم ، فقاموا بتدبير الثورة ضدهم ، واهتبلوا فرصة انشغال زنكى فى محاصرة دمشق فيما بعد لمحاولة إخراج المسلمين من الرها ، غير أن « مكتوم أمرهم ظهر ، ومخفى أمرهم انتشر[١] » فبادر زنكى إلى الضرب على أيدى موقظى الفتنة[٢] ولكنه كان شديد العطف على السريان ، حتى لقد زار فى بعض المرات كنائسهم ، وأمر أن يوضع فيها جرسان كبيران كما كانت العادة قبل مجىء الفرنجة ، وعهد بحماية البلد إلى مطرانهم ، أضف إلى هذا أن عسكر الصليبيين المتجمع بناحية تل عدى شمالى أنطاكية (وهو العسكر الذى أوفدته مليزاند لنجدة جوسلين الثانى) كان قد ورد الرها فى رمضان ٥٣٩ هـ (= مارس ١١٤٥م) لإنجاد أهلها ، فأنهض زنكى إليه حملة وافرة العدد من طوائف التركمان والأجناد[٣] فأعملت فى ذلك العسكر مقتلة عظيمة . ومن ذلك يتبين لنا أنه كان هناك شىء من الاتصال بين أرمن الرها وصليبيى أنطاكية ، هدفه القضاء على العدو المشترك . لكن زنكى كان قد اطمأن باله من ناحية أهل الرها بعد أن أعطاهم درسا قاسيا عرفوا منه مقدار بأسه وشدة بطشه ، وبث عيونه حولهم ورأى أن يحتاط لأملاكه بإخضاع الحصون والقلاع التى كان يخشى أن تكون فى يوم ما مبعث خطر على دولته المرجاة كما أراد ألا يكون فى وسط بلاده ما هو ملك غيره حزما واحتياطا ، فأرسل تجهيزة حاصرت فنك ، ومضى هو لحصار قلعة

---

(١) ابن القلانسى ، الذيل ، ص ٢٨٢ .

(٢) J AR S, 1933, p. 291.

(٣) الذهبى : تاريخ الإسلام ، ص ٩٤ .

دوسر أو جعبر محاولا أخذها من يد صاحبها سالم بن مالك العقيلي ، ولبث مضايقا لها دون أن يستطيع امتلاكها، وترددت بينهما الرسل بغية تسليمها إلى زنكى . فأبى ابن مالك ، فأقام الأتابك على حصارها ، ودس صاحبها من كان عماد الدين يأتمنه ويدنيه إليه وهو خادم فرنجى اسمه «يرنقش»[١]. فقتله ليلة ٦ ربيع الآخر ٥٤١ هـ (٤ سبتمبر ١١٤٦) ولعله كان باطنيا[٢].

بهذا ختمت صفحة أعمال زنكى ، وبموته انتهت الحلقة الأولى من سلسلة المحاولات الإسلامية فى تكوين جبهة قوية لمقاومة الصليبيين ولطردهم من بلاد الشام ،وعلى الرغم من فشل جميع المحاولات التى قام بها الأمراء المسلمون فى شمال العراق لذلك الغرض فإنها اختمرت فى النفوس.ووجدت ما يزكيها من أطاع زنكى ، وبدا ضعف الصليبيين ، ولكنها كانت تصطدم فى ذلك كله بمؤامرات الحشاشين الذين أخروا تكوين الجبهة الاسلامية حتى منتصف القرن الثانى عشر ليتم تأليفها على يد نور الدين بن زنكى . ومجمل القول إن محاولات الأمراء المسلمين فى شمال العراق وبلاد الشام كانت بذرة طيبة وجدت تربة قوية طيبة فأتت أكلها بفضل التكتل الشرقى واستعداد البلاد الإسلامية وإفاقتها من الضربات التى أخذت تتلاحق عليها منذ مقدم الحملة الصليبية الأولى إلى أطراف منطقة الهلال الخصيب .

---

(١) هكذا فى ابن القلانسى ، ص٢٨٤ ، ٢٨٨ ؛ ويسميه صاحب الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٢ ، ٤٦ « برتقش » ، أما ابن الأثير . الكامل ، ج ١١ ص٥٠ JRAS, p. 291 (1933) فلم ينصا على اسم قاتله راجع أيضا Cibb : Damascus Chronicle, p. 271. note 3 . وتاريخ الإسلام للذهبي ، ورقة رقم ٩٤ .

(٢) يحتال المؤرخون لتبرير قتله . فيزعمون أن الأتابك نام ليلته وهو سكران فشرع الخدام فى اللعب فزجرهم نخافوه . فلما نام وثب عليه كبيرهم فقتله . والظاهر أن هذا الخادم كان على صلة بسالم بن مالك العقيلي . يؤيد ذلك أن قتلته خرجوا بعد ذبحهم إياه . وراحوا إلى قلعته، انظر الذهبي تاريخ الإسلام ، ص ٩٥ .المنتظم لابن الجوزى . ج ٨ ص١٠٥، ١٠٧ اخبار الدول المنقطعة ، ورقة ١٦١ ب ، وأبو شامة فى الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٢ ، وابن الأثير : الأتابكة ص ١٣٢ . والكامل ج ١١ ص ٥٠ ، والنجوم الزاهرة . ج ٥ ، ص ٢٧٩ وابن العديم : منتخبات . ص ٦٨٨ وابن عساكر ، ج ٥ ص ٣٨٥ ، Gregoire le Prêtre, p. 159 — 160 et note 1, p. 160.

الفصل الثاني

السلطان نور الدين

وبلدوين الثالث ملك بيت المقدس

(١١٤٣ — ١١٥٤ م)

سياسة نور الدين إزاء إنر . محاولة ألتونتاش الاستقلال عن دمشق . موقف صليبي بيت المقدس من حركته . نقض التحالف الدمشقي الصليبي . تسليم صرخد لأنر وفشل الحملة الصليبية . أسباب هذا الفشل . البابا يوجين الثالث يدعو للحرب الصليبية الثانية . استجابة لويس السابع وكونراد الثالث . موقف الأمبراطورية البيزنطية . موادعتها مسعود سلطان قونية . وصول لويس السابع إلى أنطاكية . فشل ريموندى بواتييه فى توجيه الحملة الصليبية ضد حلب بسبب سياسة مليزاند ملكة بيت المقدس . الجفوة بين ريموند ولويس السابع . مؤتمر بيت المقدس الصليبي . تقرير مهاجمة دمشق . عوامله ونتائجه . بلدوين الثالث ومحاولته الاتفاق مع دمشق . تخوف نور الدين وقيامه بحملة حوران . استغاثة دمشق ببلدوين ١١٥٠ . نور الدين « يجاهد » أرباب دمشق . الصلح بينهما . معاودته إثارة دمشق . رحيل الصليبيين . هجوم نور الدين على دمشق ونزوله « البقاع » . أبق يطلب الصلح . مهاجمة بلدوين الثالث لعسقلان تحمل نور الدين على ضم دمشق إليه نهائيا سنة ١١٥٤ .

انقسمت مملكة زنكى بعد وفاته إلى قسمين . الشرقى وعليه ابنه الأكبر غازى ومقره مدينة الموصل ، والغربى وعليه ولده الآخر نور الدين محمود ومقره مدينة حلب . وقد أدى الوضع الجغرافى للقسم الغربى لأن يكون صاحبه وريثا للمشكلتين الكبيرتين اللتين صرف زنكى فى معالجتهما معظم أيامه،

وهما دمشق والقوات الصليبية بالإمارات اللاتينية المختلفة .

على أن نور الدين فى مملكته بحلب كان أحسن مكانا من أبيه، لاضطلاع أخيه غازى من ناحية الشرق على الأقل بمراقبة القوات المتطلعة للوثوب من كل حدب وصوب على شق المملكة الزنكية . والواقع أن نور الدين لم يكد يستقر بحلب حتى بدت له أطاع دمشق حيث كان « أنر » صاحب الكلمة النافذة والرأى المسموع إلى جانب أميرها محمد بن بورى، فتطلع أنر لاسترداد بعلبك قبل أن يفيق الزنكيون مما نزل بهم من مقتل عميدهم ، ولم يجد أدنى صعوبة فى تحقيق بغيته ، إذ سلمها إليه واليها نجم الدين أيوب بن شاذى فى جمادى الأولى ٥٤١ هـ (أكتوبر ١١٤٦ م [١]) . وقد قرر أيوب أن يسلمه إياها اعتقادا منه فيما يبدو أن نور الدين لن يتحرك لنجدته إذا هو اختار المقاومة ، وأن أنر سيكون الشخصية البارزة بين القوى الإسلامية من بعد زنكى ، ولا أقل من المسارعة إلى كسب صداقته بتسليم بعلبك إليه ، ولم يعدم من المؤرخين من يبرر عمله هذا فينعته بأنه «عمل دل على معرفة منه بالأمور » ويظهر أيضا أن أيوبا كان أكثر جنوحا للسلم فى كل أعماله ، وأن ما عرضه عليه « أنر » ثمنا لتسليم بعلبك قد كفاه مؤونة التردد ، إذ أقطعه أتابك دمشق إقطاعا ومالا وعشر قرى من بلاد دمشق [٢] .

ولقد بدا كأنما نجم الدين كان محقاً فيما فعل من تسليم بعلبك لأنر، فإن نور الدين لم يحرك ساكنا على الرغم من ذلك التحدى العنيف السافر من أتابك دمشق ، على أن هذا الموقف السلبى الذى استهل به نور الدين عهده إنما يرجع إلى السياسة التى رسمها لنفسه لتكميل مشروع أبيه ، وهو المحافظة على الرها والتفرغ لمحاربة الإمارات الصليبية الباقية، إذ رأى أن تلك العملية

Gibb : Damascus Chronicle, p, 273. (١)

(٢) ابن القلانسى : الذيل، ص ٢٧٧ — ٢٨٨ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٥٣ ، Gibb : Op. Cit. Loc. Cit., note 1.

تتطلب منه اكتساب عطف المسلمين الذين علمتهم مواقف زنكى منهم أن يقفوا من ابنه موقف التشكك والارتياب، واعتقد أن سياسة الحرب ضد الصليبيين لن يقدر لها النجح إلا بعد لم شمل القوى الإسلامية وتكتلها جميعها كتلة واحدة يمكنها من المقاومة بل ومن الهجوم، لذلك تقرب نور الدين إلى أنر بدلا من أن يعلن الحرب عليه أو يحاول إخراجه عما بيده، فتزوج من ابنته سنة ١١٤٧ م . على أن زواج نور الدين من ابنة أنر لم يؤد إلى إلغاء الحلف القائم بين دمشق وبين مملكة بيت المقدس وسائر الصليبيين بالشام، بل ظل أنر حافظا للموادعة التى بينه وبينهم، لعلمه أن ضياع ذلك الحلف قد يؤدى إلى ضياع دمشق . ولو كان الأمر بيد « أنر » وحده لبقى ذلك الحلف قائما على الرغم من زواج نور الدين بابنته، غير أن الظروف عملت على تحطيم الحلف فى سرعة غير منتظرة ولا مرجوة من جانب أتابك دمشق . ذلك أن « ألتونتاش »(١) والى حوران فكر فى الاستقلال بولايته، وأعلن الخروج على الأمير محمد بن بورى وأتابكه أنر، وتلفت حوله باحثا عن عضد له فلم يجد سوى مملكة بيت المقدس لتحقيق مأربه، شجعه على ذلك علمه بأن سياسة المسالمة التى دأب عليها فولك الخامس نحو دمشق قد انتهت بوفاة هذا الملك فى نوفمبر سـنة ١١٤٧ م، وقيام الملكة الوالدة مليزاند بالوصاية على ولدها بلدوين الثالث . وكانت مليزاند قد قربت إليها أحد أقاربها واسمه « مناسى »(٢) الذى تطلع للاستبداد بالحكم، ولم تجد الملكة

---

(١) هكذا فى Stevenson . Crusaders in the East, p. 158, Gibb : Op. Cit, p. 276 والروضتين لأبى شامة، ص ٥٠، أما صاحب الذيل، ص ٢٨٩، ٢٩٠ فليسميه «أليونياس»، ويسميه وليم الصورى Tantayos، راجع ثبت الأعلام الواردة فى آخر هذا الكتاب، وفى الاعتبار لأسامة بن منقذ شبيه بهذا الاسم برسم «آلتونتاش»، وهو فى المخطوطة الأصلية بغير نقط، وإنما التنقيط من الناشر الدكتور فيليب حتى كما نص على ذلك فى ص ٧٨ حاشية رقم ١٧٨ .

(٢) Rey : Colonies Franques, p. 544. ; G. T., p. 780 — 781 وسيأتى تفصيل هذا الدور فى نهاية الحرب الصليبية الثانية بعد قليل .

الوالدة أدنى غضاضة فى مساعدته رغم أن ذلك يضر بمصالح ابنها والمملكة معا ، ولم تتحرج عن التآمر على ولدها بلدوين الثالث من أجل تحقيق مطامع « مناسى » ، فلا عجب أن شجعت تلك الحال والى حوران على التفكير فى مفاوضة مملكة بيت المقدس رجاء معاونته فى الانفصال عن دمشق ، فغادر حوران فى ذى الحجة سنة ٥٤١ تاركا بها زوجته مع قليل من الجند (١) التابعين لحوران. وقد رأى الأمراء الصليبيون فى بيت المقدس فى ذلك العرض فرصة طيبة لمد نفوذهم إلى تلك البقاع ، عسى أن يؤدى ذلك فى النهاية إلى أخذ دمشق وما حولها وبذلك يجد أولئك المخاطرون إمارة جديدة تسع نشاطهم ويكوّنون فى نواحيها مناطق تستظل بالنفوذ الصليبى، ووافقهم على هذا الرأى مؤتمر ضم أمراء أنطاكية وطرابلس ، فأرسلوا إلى « أنر » رسلا من قبلهم ينبئونه بانتهاء أجل الموادعة التى بينه وبين القوى الصليبية بالشام، وأنهم آخذون فى مساعدة والى حوران لتحقيق مطلبه ، فأجابهم « أنر » بأن استمرار الحلف الدمشقى الصليبى يعود على الجانبين بالفائدة (٢) ، ووصل رسلهم بكثير من الهدايا والخلع مما يدل على صدق فى رغبته إبقاء الحال على ما هى عليه .

الواقع أن أنر أدرك أن تحالفه مع الصليبيين — رغم ما فيه من الحط لكرامته فى أعين بعض المسلمين — أسلم عاقبة من بقائه وحيدا أمام نور الدين الذى ما فتىء يتطلع إلى استرجاع بعلبك والعودة إلى مشروع الاستيلاء على دمشق لذلك رأى أنر ألا بد له من الإبقاء على ذلك الحلف . ويظهر أن جانبا من مجلس الدولة بمملكة بيت المقدس كان يؤثر أيضا المحافظة على ما بين المملكة وبين دمشق من الموادعة ، بدليل الرسالة التى أنفذوها إلى أنر مرة أخرى

---

(١) ابن القلانسى : الذيل ، ص ٢٨٩ .
(٢) G. T., p. 716 — .717.

يطلبون منه الإذن للقوات الصليبية أن تعبر أرضه لترد ألتونتاش إلى ولايته ويتعهدون له ألا يصيب دمشق وما حولها أى خطر منهم[١] . وقد حمل تلك الرسالة « برنارد فيشيه » « Bernard Vachier[s] » أحد فرسان الصليبيين وكان متقنا للسان العربي ، فعاد هذا الفارس إلى بيت المقدس وأيـّد رأى « أنر » وأوضح الملك بلدوين الثالث — وكان غلاما — ولحاشيته أنه من الخير للصليبيين بالشام أن يغضوا الطرف عن حملتهم التى جهزوها لمساعدة والى حوران .

غير أن جماعة من الفرسان والبارونات بمملكة بيت المقدس رأوا ألا يتراجعوا عن عهد قطعوه لألتونتاش على الرغم من إدراكهم التام لضرورة المحافظة على التحالف الدمشقي الصليبي ، وذلك لأن مشروع مساعدة « ألتونتاش » كان قد اختلط فى الواقع برغبة بعضهم فى امتلاك أراض وحصون جديدة على حساب القوات الإسلامية المجاورة . لذلك انتهى الأمر بقيام الحملة بقيادة الملك بلدوين الثالث وجماعة الأمراء والبارونات فى مايو سنة ١١٤٧ من طبرية ، ثم عرجت الحملة نحو « جولان » على شاطىء اليرموك لأنه أقصر الطرق المؤدية إلى حوران ، وواصلت السير حتى بلغت وادى الزيدى حيث انضمت إليها فئة من رجال ألتونتاش قاصدة صرخد[٢] . وبينما الحملة الصليبية فى طريقها خرج أنر بما استطاع جمعه من القوات الإسلامية وعزم على أن يقطع على المغيرين طريقهم ويحول بينهم وبين إتمام رحلتهم[٣] . فنزل أولا على صرخد ، وفاجأها فى غيبة صاحبها ألتونتاش ، لكنها استعصت عليه ، فأرسل يستعين بنور الدين الذى لبى دعوته . وأقبل نور الدين فى مايو

---

(١) G. T, p. 717.

(٢) ابن الجوزى : المنتظم فى أخبار الأمم، ج ٨ ، ص ١١٥ — ١١٦ ، G. T. ,p. 718

(٣) ابن القلانسى : الذيل ، ص ٢٨٩ ، Gibb: Damascus Chronicle, p. 277

١١٤٧[١] فى جيش كثيف وجماعة من التركمان « فلم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته وعدته ووفور عدته » ، وقد فزع مسيحيو صرخد وأصحاب ألتونتاش من قوة معين الدين ونور الدين « وزاد من جزعهم ما بلغهم عما لقيته هذه الحملة الصليبية طول الطريق من الظمأ والمشقة » ، مما سيؤدى إلى تأخير وصولها إليهم . لذا أرسلت زوجة ألتونتاش من حوران إلى أنر وإلى نور الدين تتلمس منهما الأمان ، ولم تكن صادقة فيما أظهرته من الرغبة فى الاستسلام ولكنها طمعت فى أن تكسب الوقت ، حتى إذا وصلت الإمدادات الصليبية إلى صرخد صار من اليسير رفع الحصار عنها ، ولم يفت مرماها الأتابك أنر فألح فى الحصار وتم له ما أراد ، فتسلم صرخد دون أن يتناهى خبر التسليم إلى رجال الحملة الصليبية ، ومن ثم لم يعد هنالك ما يدعو لها ألبتة . كما أنه لم يعد ثمت أمل فى إرجاع الحلف بين دمشق وبين بيت المقدس بعد أن نهج الصليبيون بمملكة بيت المقدس هذا النهج الخاطىء ورسموا لأنفسهم سياسة ملتوية أضرت بمصالحهم ، وكشفت عن مبلغ فساد أمورهم وقصر نظر القائمين بتدبير شئونهم .

على أن الحملة الصليبية لم تشأ العودة صفر اليدين ، بل رأت التحول عن طريقها إلى بصرى ، ولم يكن رجالها مصيبين فى ذلك التوجيه الجديد ، لأنهم بلوا فى أثنائه بنقص فى الأقوات والمياه والجند ، فضلا عما عانوه من مشقات الطريق[٢] . ولما علم أنر ونور الدين بتلك الخطوة الجديدة « نهضت جيوشهما كالشواهين إلى صيدها ، والبزاة إلى أحجالها » وكان الصليبيون قد تغلبوا على بعض صعوباتهم حينما دلهم ألتونتاش على آبار عذبة يستقون منها ، لكنهم

---

(١) حقق تاريخ هذه الحملة ونهوض نور الدين الأستاذ جب فى المرجع السابق ، ص ٢٧٧ ، حاشية رقم ١ ، كما صحح ما جاء فى ابن القلانسى ، ص ٢٨٩ ، س ٦ من تحت .

G. T., p. 719. (٢)

لم يكادوا يبلغونها حتى وجدوا أنر ونور الدين وجنودهما قد سبقوهم [١] إليها ، وحالوا بينهم وبينها ، وجرت بين الفريقين وقعة حول تلك الآبار فى السابع والعشرين من محرم ٥٤٢ هـ (يونيو ١١٤٧) [٢] . وامتلك المسلمون بعدها بصرى . [٣]

لم يجد الصليبيون بداً بعدئذ من التراجع إلى بيت المقدس مخافة أن تتقدم جيوش المسلمين فتغير على بلادهم بعد الاستيلاء على بصرى لقربها من حدود المملكة الصليبية . وقد أظهر بلدين الثالث ـ رغم صغر سنه ـ بطولة لم تكن تنتظر من فتى فى مثل عمره ، لكن قد توجد الحكمة وسداد الرأى والشعور بالمسئولية فى الشباب والشيب ، إذ أبى التراجع والسلامة لنفسه دون رجاله وأصر على أن يشاطر جيشه مصيره ولو أدى به إلى التهلكة ، على أن أنر لم يتعقبهم أو يتخطف ساقتهم . [٤]

ولعل أعجب الصور القلمية التى تركها وليم الصورى بكتابه هى تصويره لارتداد الصليبيين بقيادة بلدوين الثالث فى أكمل نظام وأعجبه فلم يصرفهم هول الموقف عن المحافظة على جرحاهم ومرضاهم ، فجعلوا منهم فريقا يحمل هؤلاء رغم المشقة التى لاقوها ، مما دعى المسلمين للإعجاب بهم وقولهم عنهم « إنهم شعب حديدى » [٥] . ولعل هذا الإعجاب هو الذى أدى بأنر لكف المسلمين عنهم « إشفاقا من كرة تكون لهم » [٦] أى مخافة أن ينقلبوا إلى الهجوم فجأة فيفسدون عليه نصرته . ولعل « أنر » قد عمد إلى ذلك أيضا رغبة منه فى إفهام نور الدين — من طرف خفى ـ أن الصليبيين لا يزالون على جانب من القوة لا يستهان به ، وأن هذه النكبة التى حاقت بهم إن هى إلا نكبة

---

(١) G. T., p. 721.

(٢) Gibb : Damascus Chronicle. p, 278.

(٣) ابن القلانسى : الذيل ، ص ٢٩٠ .

(٤) G. T., p. 720.

(٥) G. T., p. 723.

(٦) ابن القلانسى : شرحه ، ص ٢٩٠ .

عارضة لاتلبث أن تزول ، ويكون هدف معين الدين من ذلك هو إخافة نور الدين منهم ، وتهديده بتحالفه معهم إن عاد أمير حلب إلى التفكير فى الاستيلاء على دمشق . وربما عمد أنر إلى ذلك الموقف من الصليبيين لأنه لم يرد القضاء على الصليبيين حفظا للتوازن ، ولأن إضعافهم وتحطيم قواهم يؤدى بنور الدين إلى التفكير الجدى فى الاستيلاء على دمشق وتيسير الأمر عليه .

وكيفما كان الأمر فقد ألفى الصليبيون أنفسهم فى موقف صعب ، إذ أخذت نبال المسلمين تنوشهم من كل جانب رغم تعليمات أنر ، كما ترصدهم التركمان فى معارج الطرق والأوعار . ولم ير الصليبيون بدآ من أن يبعثوا بمبعوث من قبلهم « يتقن اللسان العربى[١] » ليسأل أنر ونور الدين أن يأذنا لهم بهدنة يتمكنون خلالها من دفن قتلاهم ثم العودة إلى بيت المقدس فلم يقدَّر لهذا الرسول تأدية رسالته ، إذ عوجل فى الطريق على يد نفر من المسلمين أردوه قتيلا ، واضطر الصليبيون لمتابعة السير رغم أخطار الطريق وبعد الشقة وتربص العصابات لهم وقلة ما بيدهم من الزاد[٢] . وهنا تظهر حادثة تتجلى فيها روح الفروسية التى امتاز بها العصر الوسيط ، فقد وصل إلى الصليبيين مبعوث من قبل « أنر » يمدهم بالمئونة اللازمة حتى يعودوا إلى بلادهم ، كما جاءهم فارس عربى يبصرهم مسالك الطريق[٣] ، أفلا يدل ذلك أيضاً على أن أنر كان مرغماً على مصالحة نور الدين ، وأنه كان يخشى أن تنجو دمشق من الخطر الصليبى لتقع فريسة للخطر النورى الذى لم يخْف عليه ولا على بلدوين الثالث ؟ والواقع أن التحالف الدمشقى الصليبى كان

(١) G. T., p. 725. ولم ترد الإشارة فى هذا المرجع المعاصر إلى اسم ذلك والأغلب أنه هو نفس الفارس الصليبى « برنارد فيشيه » ، حيث يذكر وليم الصورى فى ثنايا عرض هذه الحال إلى أنه أوفد من قبل فى بعثة إلى المسلمين ، ولم يسبق للصليبيين أن بعثوا من قبل سوى « برنارد فيشيه » .

(٢) G. T., p. 724.

(٣) G. T., p. 724—725.

فى صالح الصليبيين أكثر مما هو فى صالح الدماشقة ، وإنما انتفعت به دمشق مؤقتاً فى إنقاذها من استيلاء زنكى عليها من قبل ، وكانت السياسة العامة تقتضى من الصليبيين أن يكونوا أكثر تبصراً وإدراكاً للحوادث والنتائج فلا يفصمون عرى ذلك التحالف لنزوة طارئة من أجل رغبة جالت فى نفوسهم ، وكان الأجدر بهم أن يردوا « ألتونتاش » عن قصده ، أو يتركوه لصاحب دمشق الذى كان بلا شك يعدها لهم منة كريمة عليه ، وبذلك تتأكد عنده رغبتهم الصادقة فى المحافظة على مودته ؛ غير أنهم لم يقدروا الظروف ، فأيدوا « ألتونتاش » فى نزوته وفشل كل منهما فيما استهدفه ، وهكذا خسر صليبيو بيت المقـــدس شيئين : أولهما تحالفهم مع دمشق وثانيهما استطاعتهم رد صاحبهم الأرمنى إلى بلده . ثم هنالك ما هو أشد من ذلك كله ألا وهو التحالف بين أنر وبين نور الدين ، الأمر الذى كان ينبغى على الصليبيين العمل على تجنبه حتى لا يتيحوا الفرصة لنور الدين للتدخل فى أمور دمشق ، فيصبح على مقربة منها ومنهم ، وخطراً عليهم . ولم يفت شبه هذا الأمر فولك الخامس[1]، فكان يسعى جهده لابقاء دمشق بعيدة عن مجال التحالف مع عماد الدين زنكى ، ولكن سوء سياسة مليزاند ورعونة تصرف مناسى وصغر سن بلدوين الثالث عملت على سرعة تدخل نور الدين فى أمور دمشق تدخلا لم يكن من صالح أنر ولا من فائدة الصليبيين، بل سيؤدى حالا إلى تمكين السلطان من تحطيم القوى الصليبية فى بلاد الشام بأجمعها .

على أن التحالف بين نور الدين وأنر أدى إلى أكثر مما يبدو لأول وهلة، لأن الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ، وهى الحملة التى أخذت تتكون فى أوربة

---

(١) دأب فولك الخامس (١١٣١ — ١١٤٢م) على قطع كل صلة تحالف بين الإمارات الإسلامية وبين زنكى ، ولذلك نراه ينهض لدفع عماد الدين عن حمص فى يوليو سنة ١١٣٧ ، وإن فسرها الكتاب المسلمون برغبته فى امتلاكها وضمها للصليبيين ، أنظر فى ذلك ابن العديم، ص ٦٧٢ — ٦٧٣ .

بعد سقوط الرها لم تفكر حين وصولها إلى الشرق فى تحقيق ما جاءت من أجله — اى استرجاع الرها — بل وقعت تحت تأثير الخطر الذى أحست به مملكة بيت المقدس من جراء التحالف بين نور الدين ، ووجهت قواتها ضد دمشق بغية الاستيلاء عليها .

ذلك أنه لم تكد أخبار سقوط الرها وانتصارات نور الدين فيها على من بها من الصليبيين تبلغ مسامع البابا « يوجين الثالث » حتى اعتزم أن يمثل الدور الذى مثله إربان الثانى من قبل ، وهو تأليب أوروبة، لا لاسترداد بيت المقدس بل لنصرة الصليب الذى أصبح مهدداً بالزوال من الشرق الأدنى، فبعث إلى لويس وغيره رسالة جاء فيها « من الأسقف يوجين ، خادم خدام الرب ، إلى أعز أبنائه فى المسيح لويس (السابع) ملك فرنسا . وإلى أبنائه الأحبَّاء ... إن الرها قد احتلها الكفرة كما احتلوا كثيراً غيرها من قلاع النصارى » والخطاب طويل حفظته لنا الوثائق الغربية بنصه [1]

وممن قام بالدعاية لتلك الحملة القديس « برنارد » الذى دفعته حماسته إلى مطالبة كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا المشاركة مع لويس السابع ملك فرنسا فى قيادة الصليبيين إلى الشام ، وقد لبى الإمبراطور والملك هذه الدعوة واستجابا لها وأخذ كل منهما يعد جيوشه للرحيل، وبذا يمكن أن يقال إن هذه الحملة الصليبية المعروفة بالثانية كانت حملة نظامية وليست هجرة شعوبية كالأولى ؛ ولقـــد تطلع روجر الثانى ملك صقليـة للمساهمة بنفسه فى هذا المشروع رغبـة منه فى أن يخرج بنصيب ، سواء أكان ذلك على حساب المسلمين أم الصليبيين بالشرق . على أن الواقع أنه كان يتطلع على وجه الخصوص إلى أنطاكية التى عدها من حقه [2] بحق قرابته للأمير الراحل ،

---

(١) Hist. Docum. translated by E. Henderson, p 333 — 336.
وهذا الخطاب من كتاب « وثائق تاريخية متعلقة بالعصور الوسطى » مترجمة بقلم المؤلف ولم ينشر بعد .

(٢) Chalandon : Comnènes, t. II, p. 265.

ولم يفت ذلك الملك لويس السابع ملك فرنسا ، فلم يوافق على ما عرضه «روجر» من الاستعداد للمساهمة بنفسه فى الحملة ، فضلا عن الرجال والسفن لأنه لا يتأتى لملك فرنسا أن يقبل تلك العروض التى كانت لابد أن تؤدى إلى اصطدام روجر بالأمير الفرنسى ريموند دى بواتييه صاحب أنطاكية وعم الملكة « إلينورا » زوج لويس السابع . على أن مشغلة لويس السابع بأمر أنطاكيـة لم تنته برفضه لعروض روجر ، إذ جاءه رسول من عند مانويل كومنين إمبراطور الدولة البيزنطية وهو فى بعض الطريق عبر أوربة يعرض عليه استعداده لتموين الجيش الفرنسى على شرط أن يعترف لويس السابع بسلطان الدولة البيزيطية على أنطاكية [١] ، وذلك فضلا عن مطالب أخرى طلبها الامبراطور البيزنطى من كل من لويس السابع وكونرد الثالث على أن تلك المطالب لم تلق قبولا .

تلفت مانويل حوله ليرى وسـيلة تساعده على تحقيق هدفه وإفهام الأوربيين أنه قادر على إيذائهم إذا شاء . وأراد أن يطعنهم فى الصميم . وأية طعنة أشد وقعاً على الفرنجة من أن يتم الصلح بينه — وهو الإمبراطور المسيحى — وبين مسعود — سلطان قونيـة المسلم — الذى لا بد من أن يعبر الصليبيون بلاده [٢] . وهكذا خدمت الظروف نور الدين خاصـة والإمارات الإسلامية عامة حيث شب النزاع بين إمبراطور الدولة البيزنطية وقادة الحملة الصليبية . ولم يلبث ذلك النزاع أن استحال إلى انقسام المسيحيين إلى معسكرين يسىء كل منهما الظن بالآخر . ثم وصل لويس السابع إلى أنطاكية [٣] يوم ١٩ مارس ١١٤٨م عن طريق القسطنطينية وآسيا الصغرى ،

---

(١) Chalandon : op. cit. t II, p. 289 — 290 (d'aprés Oden de Deuil)

(٢) يصرح المؤرخ اليونانى « نيكتاس » أن مانويل كومنين بعث بالرسائل إلى مسعود سلطان قونية يحثه على النهوض لقتال الألمان فى الوقت الذى كان فيه يعـد العدة لاستقبالهم ويتظاهر بالإخلاص لهم ، أنظر : Stevenson : Crusaders in the East, p. 159; Dict. des Croisades, arte Croisades, p. 285.

(٣) فيما يتعلق بأوليات نزول الفرنسيين فى أنطاكيـة ، والبارونات الذين صحبوا الملك لويس السابع راجع : Rey : Hist. des Princes d'Antioch, p. 367

فبعث مقدم حملته الفرح فى نفوس ريموند دى بواتييه ورجاله وأهل الامارة جميعا . ذلك أن أنطاكية كانت تتوقع منذ زمن بعيد أن تكون هدفا من أهداف نور الدين . إذ دلت بعض حركاته التى انتهت باستيلائه على أرتاح وكفر لاثا القريبة منهـا على أنه شديد الرغبة فى الاستيلاء على أنطاكية أو فى إضعافها على الأقل بالاستيلاء على أعمالها القريبة منه حتى لا تكون منفذاً يثب منه الصليبيون أو البيزنطيون على حلب والأملاك الإسلامية بين حين وآخر . ولذ أشار « ريموند » بتوجيه الجيوش الفرنسية بقيادة لويس السابع ضد حلب وحماة . وطمع أن يتمكن بمعونة الفرنسيين من الاستيلاء على مدن عدوه وحصونه قبل أن يتحرك ذلك العدو نحو أنطاكية . ولم يكن ريموند مبالغا أو مشتطا فى تقديره ، فإن إمارة أنطاكية كانت ملاصقة لأملاك نور الدين ، وخريطة الحروب الصليبية تبـين أن أنطاكية والرها أشد الإمارات اللاتينية ببلاد الشام حاجة لمساعدة الأوربيين، وهما فى الوقت ذاته محور الصراع الحقيقى بين نور الدين والصليبيين والبيزنطيين فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر .

لم يفت ريموند دى بواتييه أن يبين للصليبيين الأوربيين الخطر الجسيم الذى يهدد الإمارات اللاتينية بالشام من جراء وجود نور الدين قويا فى حلب ، لأن مجرد هذا الوضع الجغرافى يمكنه من السيطرة على الطرق المؤدية إلى أنطاكية ، ومن ثم إلى طرابلس وبيت المقدس ، ومعنى هذا قدرته التامة على ضرب الإمارات الفرنجية فى الشام متى شاء ، فإن لم يفعل ذلك فلا أقل من أنه يظل مصدر فزع ورعب لها ، أضف إلى ذلك أن استيلاء نور الدين على أرتاح وكفر لاثا أدى إلى وجود سور من الحاميات الإسلامية شرقى نهر العاصى ، يحول بين صليبيى أنطاكية وبين الداخل، ويهدد سلامة الإمارة بين حين وآخر .

وقد يقال هنا إن مملكة بيت المقدس كانت أولى بتلك الجيوش الفرنسية التى بقيادة لويس السابع من أية إمارة صليبية أخرى لوجود الفاطميين فى

مصر وقيام الدولة البورية فى دمشق ، وكلاهما ممن يستطيع الإضرار ببيت المقدس. والرد على هذا القول يتلخص فى أن مصر كانت تجتاز دوراً عصيباً هو دور الوزراء وتنازعهم السلطان فيما بينهم ، مما صرف الخلافة الفاطمية عن كل شىء إلا مشاكلها الداخلية ، أما إمارة دمشق فقد أخذت ترقب عن كثب الصراع بين نور الدين وبين الصليبيين دون أن تتدخل فى صف أحد الفريقين . أما المسلمون من أهل شمال الشام فقد رجفت قلوبهم، وخافوا على مصيرهم ومصير الإسلام فى تلك الفترة العصيبة، حتى ليرى وليم الصورى أن الفرصة كانت جد مواتية لتحقيق الهدف الصليبي لو لم يجعل الملك الفرنسى زيارة بيت المقدس مقدمة على ماسواها ، بل لقد ذهب لويس إلى أبعد من ذلك فصارح ريموند بأنه لم يحمل الصليب إلا دفاعا عن مملكة بيت المقدس وزيارة أماكنها المقدسة ، مما أحنق أمير أنطاكية . وربما يرجع سبب ذلك إلى أن مليزاند ـ القائمة بالوصاية على عرش مملكة بيت المقدس ـ بعثت إلى لويس تصرفه عن مهاجمة حلب ، وتدعوه للإسراع إلى بيت المقدس حيث كان الملك كونراد فى انتظاره(١)

أضف إلى ذلك أن سوء ظن الملك بريموند عم زوجته دفعه لسلوك سبيل أذهب ريح الحملة، فقد كره لويس من « إليانور » ماتبديه من محبـــة لعمها ريموند(٢) ، كما كره منها انفرادهما معا مما أثار ريبته ، وإن أمكن الرد على ذلك بأن ريموند كان يحاول إفهام « إليانور » الخطر النورى على إمارته ،

---

(١) G. T., p, 751 — 756; Rey : Hist. des Princes d'Antioch, p. 367.
Rey : Hist. des Princes d' Antionch p. 367; J.R.A.S. 1932, p. 278.

(٢) بل لقد حدثت فى مارس ١١٤٨ « فضيحة كبرى » بأنطاكية لعلاقات كانت بين ريموندى بواتيه وبين ابنة أخيه « إليانورا » ، حتى لقد جاهرت الملك بعصيانها أن تتبعه ، فرأى تطليقها ، إلا أن من حوله أشاروا عليه بتأجيل ذلك الطلاق إلى حين رجوعه إلى فرنسا ، حتى لايلوك الألسن عرض الملك أنظر فى ذلك : G. T., p.753, Laviss :Hist. de France, vol III, Part. I, p. 17 — 18, Migne: op. cit.

ويدعوها للتأثير على زوجها بما يتلاءم والصالح المسيحى ، وتوجيه قواته ضد نور الدين وحده .

ثم كشف لويس القناع عن خطته ، وتهيأ هو وجيشه للرحيل إلى بيت المقدس ، وطبيعى أن تصحبه ملكة فرنسا ، إلا أنها أصرَّت على البقاء إلى جانب عمها فى أنطاكية ، وتأزمت الأمور حتى طلبت الطلاق(١) من زوجها بسبب نكوصه عن تنفيذ رغبات ريموند ، ولعلها توقعت أن يرجع لويس السابع عن فكرته إذا هى هددته بالطلاق ، ويعود إلى تحقيق ما يريده دى بواتيه، غير أن زوجها أبى التراجع عما اعتزمه ، ورحل — تحت جنح الظلام — إلى بيت المقدس دون أن يخبر أمير أنطاكية برحيله . ولم يكد الصليبيون الأوربيون يرحلون عن أنطاكية ، وتترامى أخبار الجفوة بينهم وبين أميرها حتى تنفس المسلمون الصعداء، وحمدوا الظرف الذى خلصهم من خطر أوشك أن يلم بهم (٢) .

انقسم الصليبيون إلى معسكرين : أحدهما مؤلف من الجماعات الوافدة فى الحملة الصليبية الثانية ، والآخر قوامه الفريق الذى يرى ضرورة معاجلة نور الدين ، لاسيما والظروف مواتية ، وهذا الفريق الثانى يتزعمه — بطبيعة الحال — ريموند دى بواتيه الذى رآى أنه أحكم الصليبيين بالشام . لكن إذا كان الصليبيون قد عمدوا إلى غير ما تمناه ريموند ، ولم يقوموا بعمل إيجابى لانقاذ الرها أو مساعدة أنطاكية فقد فكر ريموند أن يحمل الراية التى تخلى عنها ملوك أوربة من أجل المصالح الصليبية ، ورآى أن الفكرة التى لبث على المطالبة بها — وهى مهاجمة حلب — لابد وأن يظل قائماً بها ، ولعله هدف من وراء ذلك أن يحرك العطف على مطالبه إذا هو نهض وحده للقضاء على نور الدين .

ثم بلغ لويس السابع بيت المقدس فى يونيو ١١٤٨ م فوجد كونراد فى

(١) G. T., p. 753.

(٢) Stevenson : Crusaders in the East, p. 155.

انتظاره بها ، فنزل ضيفا على بلدوين الثالث ، كما توافد عليه رعيل كبير من أمراء الفرنجة وأشرافهم من جميع بلاد الشام ، وفريق غير ضئيل من أمراء أوروبة . والتأم عقد الصليبيين من الملوك والأمراء والأشراف والبارونات ورجال الدين فى ٢٤ يونيو ١١٤٨ م لتحديد وجهة الحملة المزمع القيام بها [١] . وكان من الطبيعى فى غير تلك الظروف الراهنة أن يكون الاتفاق على وجهتها أمراً قد فرغوا منه قبل تحركهم من أوربة. غير أن الأحداث الطارئة دعت القوم إلى معاودة التفكير فى القيام بعمل ما — غير مساعدة أنطاكية — حتى يثبت الصليبيون أنهم لم يقصروا فى واجبهم .

وتقرير وجهة تلك الحملة إنما هو فى الواقع تقرير لمصير القوات الصليبية والإسلامية فى الشرق الأدنى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر وتبيان صريح لمدى ما قد يكون هناك من النصرة والتآلف بين الجماعات الصليبية. ومقدار استعداد أوربة لتأييدها بالمال والرجال[٢] .

تداول المؤتمرون فى حالة الصليبيين بالشام . ومن الغريب أنهم أمسكوا جميعاً عن الإشارة إلى خطر نور الدين ، والأغرب منه أنهم رأوا توجيه قواتهم ضد دمشق حليفة بيت المقدس ، وتلك الخطة خطأ شنيع فى سياستهم . إذ بدلا من محاولتهم ضم دمشق — كحليف — إلى جانبهم جاهروها بالعداء الصريح الذى لا مبرر له . ومن ثم أتاحوا لنور الدين فرصة ملائمة للتفكير الجدى فى ضم دمشق إليه فيما بعد والاتحاد معها الآن [٣] .

ولا بد أن الصليبيين قد تعللوا بأسباب يبررون بها مهاجمة دمشق ،والواقع

---

(١) G. T. P. 758 - 759.

(٢) تغيب عن هذا الاجتماع صليبيو أنطاكية وطرابلس ، أما أنطاكية فللنزاع القائم بينهم وبين لويس السابع كما تقدم بالمتن ، وأما فرنجة طرابلس فللنزاع القائم بين برتراند (بدران) بن ألفونس جوردان وعمه ريموند الثانى كونت طرابلس وانشغال الكونت ريموند بذلك النزاع ، راجع: Crousset : Hist. des Croisades, Vol. II, p. 255, note I (d'apres Vaissette : Hist. de Languedoc.).

(٣) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 155 , 159 —160.

أنه ليس بين أيدينا شيء صريح نستطيع الاستدلال به على تلك الدواعي، وإن كل ما هنالك من دلالة هو أن القائمين بتدبير شئون مملكة بيت المقدس لم يكونوا يفكرون فى المحافظة على الهيبة التى اكتسبتها المملكة الصليبية بالشام، بل اتجهوا إلى النفع المادى القريب وهو تأمين حدودها . وإزالة قوة دمشق حتى لا تكون فى يوم من الأيام مصدر خطر يهدد سلامتها ، ثم إن تلك الفكرة وافقت هوى فى نفس لويس السابع الذى انصرف عن نصرة ريموند دى بواتييه ، بل خرج من لدنه وقد جرح جرحاً عميقاً هيهات أن تبرئه الأيام . ثم خرج الجيش الصليبى بأجمعه ونزل وادى العجم عند بلدة منازل العساكر[١] جنوبى غربى دمشق . وتحول بعد ذلك إلى « داريا » وأحدق بالغوطة من ضواحى دمشق . وأخذ من ثم فى مهاجمة دمشق ذاتها[٢] واستطاع الصليبيون امتلاك المزة لقربها من الماء[٣] ،وكذلك نيرب والربوة، فلا عجب إذا اضطرب أهل دمشق وخافوا أن يتمكن الصليبيون من تحقيق هدفهم ، وبذلك تصبح مملكتهم إمارة لاتينية لا سيما أن الإمبراطور كونراد الثالث أبدى من الاستبسال ما مكن الصليبيين من احتلال الربوة[٤] .

لكن كان هناك معين الدين أنر وهو الحكيم الذى لا يمكن أن يفوته

---

(١) ابن القلانسى : الذيل ، ص ٢٩٨ ، Gibb : Damascus Chronicle, p. 283; Dussaud : Topographie Hist. p. 315.

(٢) وذلك يوم السبت ٦ ربيع الأول ٥٤٣ هـ = ٢ يوليو ١١٤٨م ، وهذا التاريخ بتحقيق Stevenson : Crusaders in the East. p. 160, note 4 ، وراجع المصادر العربية التى ذكرها بالحاشية بالإضافة إلى ابن القلانسى وترجمته الأنجليزية ، وكتاب الروضتين لأبى شامة ص ٥٦ .

(٣) Dussaud : Topogr. Hist. p. 309 — 310.

(٤) فى كل ما يتعلق بهذه الحوادث راجع ابن القلانسى ، ص٢٩٨ ، Gibb : Op. Cit. p. 283 — 284; G T. p. 7 —764 وكتاب الروضتين لأبى شامة ، ص٥٦ ، وابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٥٨ — ٥٩ .

تدبير ما يلائم الموقف مهما تحرجت الأمور . وقد أشار على الدماشقة بوجوب الارتماء فى أحضان نور الدين مما عجل بتكوين الجبهة الإسلامية فيما بعد . وأدرك الدماشقة أنهم أضعف من أن يقاوموا الصليبيين ورأوا أنه من الخير لهم أن يكونوا مع بقية المسلمين فى الشام يداً واحدة[١] ، ولم يعمد أنر إلى الاستصراخ بنور الدين إلا بعد أن أيقن استحالة دفع الخطر الصليبي الأوربى عن دمشق. ويذكر شاهد عيان أن الأتابك حصن ما يخشى من الجهات ، ورتب الرجال فى المسالك والمنافذ ، وقطع مجارى الميرة إلى منازل الأفرنج ، وطم الآبار وعفى المناهل » وذلك بعد ثلاثة أسابيع من شروع الصليبيين فى حصار دمشق ومهاجمتها .

وعلى الرغم من هذه الاستعدادات الضخمة فإن الصليبيين استظهروا على الدماشقة الذين ارتاعوا لهول ما شاهدوه ، وضعفت قلوبهم ، وأدى بهم الخوف إلى تفسيرهم كل ظاهرة بأنها تنطوى على مكيدة تدبر لهم . لذلك لم يجد الدماشقة بداً من إنفاذ المكاتيب إلى ولاة الأطراف مستصرخين مستنجدين .

وهنا انتقلت الحرب إلى المرحلة الثانية ، وهى المرحلة التى أخذت فيها خيل التركمان ورجالة الأطراف والغزاة[٢] تتتابع ، فقويت نفوس المسلمين وجرت بينهم وبين الصليبيين مناوشات دلت على عودة الطمأنينة إلى قلوب الدماشقة الذين ساعدتهم الظروف بوقوع الخلف بين قواد الحملة الأوربيين ، ذلك أن فريقا من الأشراف الصليبيين أخذوا يثبطون همة كونراد ولويس ، ويصعبون أمامهما الموقف الحربى ، ويشيرون عليهما بإخلاء ناحية الغوطة ، وجاز الأمر على العاهلين الأوربيين ، فما هى العلة التى دفعت هذا الفريق

---

(١) يذكر ابن القلانسى وابن الأثير وأبو شامة أنه لم يتأخر عن القتال الكهول ولا الزهاد ولا الفقهاء ولا الأئمة ، وعد المسلمون كل من يقتل فى ذلك اليوم شهيداً يستجاب الدعاء عند قبره .

(٢) راجع تفسير هذا اللفظ عند Gibb : op. cit. p. 283 note 3.

من الصليبيين إلى ذلك الموقف الشاذ وإلى محاولة التأثير على ملك فرنسا بما يضر المصالح الصليبية فى الشام ؟

هل كان ذلك راجعا إلى خيانتهم للمسئولية التى يحملونها ، أو إلى نجاح أثر فى شراء ضمائرهم ووقوفهم إلى جانبه كما يزعم مؤرخو تلك الحملة المسيحيون (١) ؟ ، الأغلب أن هؤلاء الأشراف كرهوا أن ينالوا حليفهم أنر بضرر ما ، وهو الذى أمدهم بالمئونة — عن غير ضعف — حين تراجعوا مخذولين عقب فشلهم فى حملة حوران (٢) .

كذلك يجب أن نبحث عن هذا الدافع فى ناحية أخرى ، تلك هى تضارب مطامع زعماء الحملة واختلافهم حول تملك دمشق ، ذلك أنهم أيقنوا من غلبتهم عليها ، فأطلت الأهواء ، وامتدت أيدى المخاطرين الصليبيين لامتلاكها (٣) ، فقد حدث أن ذهب تيير الإلزاسى كونت فلاندر إلى ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا وإلى بلدوين الثالث ملك بيت المقدس سائلا إياهم أن يولوه إمارة دمشق عقب أن يتم لهم فتحها ، فأجابه بعضهم إلى ملتمسه ، وبذلك كان بيع فراء الدب قبل صيده مثيرا للحسد فى نفوس بقية الأشراف الذين رأوا أنهم لا يقلون عن كونت فلاندر مكانة ولا إقداما ، أفهل يبعد أن تدفعهم الغيرة للعمل على إغراء العاهلين بالتخلى عن الغوطة حتى لا يتاح لصاحبهم ما يتمناه ؟ ذلك ما لا يستبعد منهم ، ولم تخف هذه المسائل على ابن القلانسى المؤرخ المسلم المعاصر لهذه الحوادث ، فقد ذكر أن الحال استقرت بين الإفرنج على منازلة دمشق ، وحدثتهم نفوسهم الخبيثة بامتلاكها ، وتبايعوا ضياعها وجهاتها .

---

(١) G. T. p. 765 et seq, ; Michel le Syrien, Chroniques t. III, p. 276; Lavisse : Hist. de France, t. III, Part 2, p. 18 — 19. ويلاحظ أن وليم الصورى لم يشر إلى اسم أحد من هؤلاء الأشراف الذين أغروا الملكين بالانصراف عن مهاجمة دمشق والذين اتهمهم بالرشوة .

(٢) G. T., p. 726.

(٣) Rey : Les Seigneurs de Berut, p. 14 — 15.

أما الرواية الإسلامية فترى أن العوامل التى دفعت الصليبيين للرحيل الجفائى عن دمشق هى ما تواتر إلى سمعهم من أن العساكر الإسلامية خفت من شتى النواحى لنجدة دمشق ، ثم ما ترامى إليهم من اجتماع نور الدين وأنر قرب البلد، ونهوضهما إلى حصن « عريمة » ومحاصرتهما إياه ، وأسرهما برترام بن ألفونس وأمه ، وانضمام جنود غازى أخى نور الدين إلى العسكر الإسلامى (١)، وكيفما كان الأمر فقد تم رحيل الصليبيين عن الغوطة، وحينذاك فقط أدركوا الخطأ الجسيم الذى ارتكبوه بتخليهم عن المنطقة التى كانوا فيها. ذلك أن الناحية الجديدة التى ضربوا معسكراتهم بها — وتعرف بباب كيسان — جعلتهم يلاقون المشقة الكبرى فى الحصول على الماء والذخيرة .

أما نور الدين فقد التقى بأتابك دمشق عند حمص فى أواخر ربيع الآخر سنة ٥٤٣ هـ (= سبتمبر ١١٤٨) أى بعد جلاء الصليبيين عن الغوطة ببضعة أشهر ، وفى حمص اتفق الاثنان على الشروط التى يطمئن إليها بال أنر ، وهى أن يحتل فريق من جند حلب قلعة دمشق لدفع الخطر الصليبى ، كما اتفقا على أن يخرج ذلك الجيش النورى عن دمشق حال انكشاف الغمة عنها ، وتأكد بينهما ذلك بالأيمان الغليظة . غير أن الأيمان مهما غلظت لا تكفى فيما يبدو لتغيير السياسة التى ورثها نور الدين عن أبيه ، ولم يكن من المعقول أن تبرح كتائب نور الدين قلعة دمشق بعد رحيل الصليبيين (٢) . لكن كيف جازت تلك الاتفاقية على أنر وهو السياسى الحكيم ؟ . . الواقع أنه لم تفته أطماع نور الدين ، لكنه أراد أن يلوح للصليبيين بالخطر الذى يضطرونه لو ضعهم فيه إذا هم احتلوا دمشق ، وذلك بأن يسلمها إلى عدوهم . ثم إن أنر بعث

---

(١) ابن القلانسى : الذيل ، ص ٢٩٩ — ٣٠٠ ، ابن الأثير : الكامل، ج ١١ ، ص ٥٩ ،
Gibb : Damascus Chronicle, p. 286 — 287.

(٢) ابن الأثير : أتابكة الموصل ، ص ١٦١ .

إلى الصليبيين سراً يبين لهم الخطر النورى عليهم إذا أسلم دمشق إلى نور الدين، كما هددهم بقوة غازى [١] .

والخلاصة أنه إذا استعرضنا موقف الصليبيين الحربى وتضعضع قوتهم ونفسيتهم ، واستيلاء اليأس على قلوبهم ، ونهوض نور الدين وأخيه سيف الدين لنجدة أنر ، ومجيء القوات الإسلامية لمعونة دمشق ، وذكرنا النزاع الذى دب بين قواد الحملة الصليبية وأشرافها ، وتحرك الأطماع فى صدورهم ، ونظرة فرنجة الشام إلى الألمـــان نظرتهم للغريب [٢] أمكننا أن نحكم بفشل الحملة الصليبية الثانية ؛ بل إن هذا الفشل تأكد منذ قدومها إلى الشرق حين وقف الإمبراطور ما نويل دى كومنين منها موقفه الملتوى ، ثم نشوب النزاع بين ريموندى بواتييه وبين لويس السابع ، وعدم مهاجمة حلب رأسا ، مما أتاح الفرصة للقوات النورية أن تتأهب للدفاع ، بل وأن تتحول من الدفاع إلى الهجوم استجابة لإغاثة أنر . لذلك كان لا بد لتلك الجماعات الوافدة من الغرب أن تتلمس السبيل لخروجها سليمة من هذا المأزق الحرج ، فاتفق رأى ملك فرنسا وإمبراطور المانيا على الرجوع إلى بلديهما ، ورحلوا يوم الأربعاء ٢٨ يونيو سنة ١١٤٨ [٣] .

هكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية فشلا أزرى بكرامة الصليبيين فى الشام وأدّى إلى تدخل نور الدين الفعلى فى أمور دمشق تدخلا أسعفته عليه ظروف مملكة بيت المقدس ، ذلك أن الأم الملكة مليزاند كانت وقت وصايتها على ابنها بلدوين الثالث — قد ألقت بمقاليد الأمور إلى مناسى [٤] ، فلما بلغ بلدوين مبلغ الرجال تطلع لأخذ الأمر فى يديه باعتباره الملك الشرعى ، إلا أن أمه كابرته، وطمعت فى بقائه تحت وصايتها وأن تتصرف هى فى الأمور

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٩ .

(٢) Stevenson : Crusaders in the East, P. 163.

(٣) G. T., P, 768.

(٤) Rey : Les Colonies Fran., P. 544.

كما تشتهى ، فلم يرض ذلك ابنها ، فطالبها بالحكم فأبت ، فألح فكابرت، فتحاربا ، فاعتصمت هى ببيت المقدس طمعا فى أن تثير عليه ثائرة رجال الدين إذا هو اقتحم البلد ، وكان الأشراف يؤيدون الملك الشاب ، كارهين لتصرفات الملكة الوصية ومناسى الذى اعتصم هو الآخر بحصنه المعروف بمجدل بابا[١] فضيق الملك عليه الخناق فاستسلم الحصن ، كل ذلك تمهيدا لاستنزالها من معتصمها وحتى لا يهب مناسى لنجدتها إن بادرها بلدوين ، وشرع بلدوين الثالث بعدئذ فى مهاجمة أنصارها ، فهاجم فيليب ميلى[٢] ، ووقف إلى جانبها ابنها أمورى صاحب السيرة العظمى فى تاريخ مصر ، وعلى الرغم من قلة نصرائها إلا أنها كانت امرأة جبارة الإرادة ، إذ اعتصمت ببرج داود فى قلعة بيت المقدس ودافعت عنها دفاعا دل على قوة شكيمتها ، وأنها جديرة بالملك وبالحكم،وكان رجال الدين من حزب الملكة الوالدة وعلى رأسهم فوشيه بطريرك بيت المقدس الذى حاول عبثا إصلاح ذات البين بين الملك وأمه ؛ وتمكن بلدوين الثالث فى النهاية من إنزالها من برجها،وأخذ الأمور فى يديه[٣].

انتهت الفترة التى قامت خلالها الملكة مليزاند وحزبها بالوصاية على عرش المملكة،وأخذ الملك بلدوين الثالث يعمل على تحقيق سياسة أبيه فولك وهى الإبقاء على الحلف بين مملكة بيت المقدس وبين دمشق،غير أن المراجع لا تشفى غلا هنا فى معرفة المقدمات التى سبقت عودة الحلف الدمشقى الصليبى ، ولم يذكر مؤرخ تلك الحقبة — وهو ابن القلانسى — سوى أن الدماشقة عاهدوا الإفرنج أن يكونوا يدا واحدة[٤] » . وهو نص يرجح أن الملك بلدوين الثالث سعى إلى ذلك الحلف حتى حصل على وعد بالعودة إلى المصافاة

---

(١) Rey : Op. Cit., P. 412 — 413.

(٢) Rey : Les Seigneurs de Berut, P. 29 ; De Cange-Rey: Les Familles d'outre-mer, P. 251.

(٣) G. T., P. 780 — 781.

(٤) ابن القلانسى : الذيل ، ص ٣٠٨ .

فى أواخر ١١٤٩ [١] ، وإن كنا على غير يقين تام من شخصية المسلم الذى تم على يده عودة التحالف بين دمشق ومملكة بيت المقدس ، أهو أنر أم خليفته مؤيد الدين الرئيس [٢] ؟ ويرجع الشك فى شخصية الأمير المسلم إلى عدم النص على تاريخ الحلف فى المراجع التى أشارت إليه ، ولعل أوضح تحديد له هو ما ذكره ابن القلانسى من الإشارة إليه مقرونا بتولى الظافر بالله أمر مصر، أى فى جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ (= أكتوبر ١١٤٩م) ، على حين أن أنر مات فى آخر ربيع الآخر من نفس السنة ، والفترة بين موت أتابك دمشق أنر وبين تولى الظافر أقل من أن يتم فيهامثل ذلك الاتفاق ، وإذن فالأرجح — دون الجزم — أنه تم على يد معين الدين نفسه وبرضاء مجير الدين أبق .

ومهما يكن الأمر فقدعلم نور الدين بأمر ذلك الاتفاق بعدعقده بقليل ، وأدرك مدى الخطر الذى تواجهه آماله من صيرورة دمشق وبلدوين الثالث إلباً واحداً عليه ، إذ دلت السوابق على الخطر الذى يهدد نور الدين من جراء وقوع الموادعة بين دمشق وبين مملكة بيت المقدس ، كما دل بلدوين الثالث على استطاعته تحويل دفة سياسة المملكة الصليبية فى وقت قصير إلى غير ما صارت إليه زمن أمه الملكة ، على أنه يبدو أن نور الدين فكر فى احتمال مخالفة الدماشقة لسياسة الرئيس، كما يبدو أيضا أنه اعتقد أن المصافاة الجديدة بين دمشق وبين بيت المقدس لم تلاق كثيراً من التشجيع بين كبار رجال المملكة الصليبية ذاتها ، وهذا ما يفسر لنا اغتنام نور الدين الفرصة عند قيام

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٤٠ .

(٢) جرت عادة أنر على الإمعان فى الأكل مما أدى الى إصابته « بالدوسنطريا » Dysentery ومالبث أن مات يوم ٢٣ ربيع الأخر ٥٤٤ هـ (= ٢٨ أغسطس ١١٤٩) ، وحينذاك اجتمع أرباب الأمور بدمشق كحسام الدين بلاق ، ومؤيد الدين الرئيس ، ومجاهد الدين بزان، وأعيان الأجناد بمنزل الأتابك الراحل واتفقوا على أخذ الأمور بأيديهم ، ثم ما لبث الاختيار أن وقع على مؤيد الدين بن الصوفى ، راجع ابن القلانسى ، الذيل ، ص ٣٠٦ .

جماعة قليلة من الصليبيين التابعين لبلدوين الثالث بالعيث فى الأعمال الحورانية ، وكتابته إلى زعماء دمشق يطلب منهم أن ينجدوه بألف فارس مع أحد المقدمين (١) .

لم يكن ذلك العيث من جانب الصليبيين يتطلب فى الواقع مدداً ضخما ، ولكن نور الدين أراد بطلب النجدة أن يعرف موقف مدبِّرى أمور دمشق ونزعة أهلها ، ويلاحظ هنا أن حوران من أعمال دمشق ، وليست تهم حلب اهتماما يدعو نور الدين للنهوض إليها دون دعوة من الأمير أبق صاحب دمشق ، وربما كان غرض نور الدين من حركته كلها أن يثبت أنه الشخصية الوحيدة التى تهتم بالمصالح الإسلامية وأنه مسئول عن دمشق وغيرها من البلاد مادام زعماؤها يفرطون فى مصالحها ، وأنه وصى بالفعل على دمشق مادام أبق قاصرا . ولقد أدرك البعض مرمى نور الدين فردوا كتابه أسوأ رد (٢) . لذلك نهض نور الدين فى مارس ١١٥٠ م بمن معه من الرجال لا لدفع جماعة الصليبيين عن حوران ، ولكن لنزال المسئولين فى دمشق الذين ردوا عليه ردا جافيا . وأرسل هؤلاء إلى بلدوين الثالث يطلبون إليه القدوم لنجدة دمشق مما عساه يجد من الأخطار (٣) . وهنا أعلن نور الدين أن فى عزمه الاستيلاء على دمشق ، وكأنما اعتبر رجالها من زمرة الصليبيين حين قال « لا أنحرف عن جهادهم » ، غير أنه أمر جنده وأصحابه بأن يسيروا سيرة حميدة فى زحفهم فى الأعمال الدمشقية حتى تواصل الدعاء « له من أهل

---

(١) ابن القلانسى : شرحه ، ص ٣٠٨ ؛ وأبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٦٩ ، ٤ ؛
Gibb : Damascus Chronicle of the Crusades, p. 296 — 297.

(٢) لم ينص ابن القلانسى : ص ٣٠٨ ، س ١٩ — وهو المرجع الوحيد بين المراجع العربية والصليبية الذى انفرد بالإسهاب فى تلك الناحية — على أسماء من عارضوا نور الدين ، ولكن يفهم من سياق قراءة الكتاب قراءة دقيقة ، ومراجعة الحوادث التاريخية أن تلك المعارضة كانت من جانب مؤيد الدين الذى خلف « أنر » .

(٣) كان بلدوين الثالث قد نهض إذ ذاك لعمارة غزة ، Stevenson : Crusaders in the East, p. 167, note 1.

دمشق وأعمالها وسائر البلاد » ، مما لا يدعو إلى الشك فى أنه عمل وقتذاك على التفرقة بين أهل دمشق وزعمائها . والظاهر أن الدعاية النورية كانت قوية فعلا حتى لقد نسب الناس إلى بركته وعدله وحسن سيرته توالى الغيث غب انقطاعه فى حوران والغوطة والمرج (١) .

وفى سادس عشرى ذى الحجة سنة ٥٤٢ (أبريل ١١٥٠ م) اقترب نور الدين من دمشق ، فنزل نهر الأعوج إلى الجنوب الشرقى منها ، واستقر أخيرا عند جسر الخشب (٢) الواقع جنوب داريا ، وكتب من هناك إلى أبق وإلى الرئيس ابن الصوفى الذى حل محل أنر فى الأتابكية يعيرهما بتقاعدهما عن نصرة المسلمين واطمئنانهما إلى الصليبيين ، كما يبين لهما قوته الشخصية وكثرة ما عنده من المال والرجال والعدة ، ويأمرهما أن ينفذا إليه حالا ألف فارس لإنقاذ عسقلان المصرية (٣) .

غير أن الرد الذى كتبه أبق على ذلك الخطاب لم يدل على شىء سوى قصر نظره إذ قال فيه مخاطبا نور الدين « ليس بيننا وبينك إلا السيف ، وسيوافينا من الإفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت علينا » ، ولا شك أن اعتزازه بالصليبيين أساء كثيرا إلى سمعته ، وهو أكبر ما يسعى

---

(١) ابن القلانسى : شرحه ، ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

(٢) Dussaud : Topographie de la Syrie, p. 315, note 3

(٣) أما نص هذا الخطاب الذى بعثه نور الدين إلى أرباب دمشق فهو « إننى ما قصدت بنزولى هذا المنزل طالبا لمحاربتكم ولا منازلتكم ، وإنما دعانى إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين الذين أخذت أموالهم ، وشتت نساؤهم وأطفالهم بين الإفرنج ، وعدم الناصر لهم لا يسعنى مع ما أعطانى الله — وله الحمد — من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين ، وكثرة المال والرجال ولا يحل لى القعود عنهم والانتصار لهم ، مع معرفتى بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها والتقصير الذى دعاكم إلى الاستصراخ بالافرنج على محاربتى وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلما لهم وتعديا عليهم ، وهذا ما لا يرضى الله تعالى ولا أحدا من المسلمين ، ولابد من المعونة بألف فارس تزاح (بهم) العلة ، (و) تجرد مع من توثق بشجاعته من المقدمين لتخليص ثغر عسقلان وغيره » فكان الجواب عن هذه الرسالة ما هو وارد بالمتن . راجع ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٩ ، وكتاب الروضتين ص ٦٦ ؛ Gibb : op. cit. p. 298 — 299

إليه نور الدين من تشويه الفكرة العامة عنه . ومع هذا فقد انصرف نور الدين عن الحرب ، وتقرر الصلح بينه وبين دمشق فى مايو ١١٥٠ م [١] وربما كان أبق هو الذى سعى إلى ذلك الصلح حتى نجح فيه بدليل موافقته على إقامة الخطبة لنور الدين من منابر دمشق بعد الخليفة والسلطان وكتابة اسمه على السكة [٢] . يضاف إلى ذلك أن نور الدين ربما رمى من وراء موادعته دمشق وأربابها إلى محاولته إظهار عطفه على أهلها اكتسابا لمحبتهم ولتأييدهم إياه ضد مدبرى أمورهم ، هذا فضلا عن أنه كان يسعى وقتذاك لتحطيم جوسلين الثانى الذى فكر فى استرداد الرها . والواقع أن نورالدين لم يكد ينتهى من عقد الصلح مع أبق حتى خف شمالا لدفع جوسلين عن الرها وسرعان ما التقى به وأسره [٣] وبقى فى الأسر تسع سنوات [٤] . ثم لم يكد نور الدين يفرغ من أمر جوسلين حتى انقلب إلى الاستعداد لمهاجمة دمشق ، وتتفق الروايات على نهوضه لقتال دمشق فى مستهل سنة ٥٤٦ (مايو ١١٥١) ونزوله على أرض عذراء ، حتى إذا أعد عدته للقتال أرسل فريقا من رجاله ليتربصوا عند جبل قصيون للجند الدمشقية المعسكرة على مقربة من ذلك المكان ، غير أن ذلك الجند لم يكن مستعدا للنضال فهرب إلى داخل المدينة ، ولم يتمكن منهم نور الدين .

لذلك تقدمت الجيوش النورية حتى نزلت على عيون فاسريا ما بين دومة وعذراء [٥] فأصبحت تهدد دمشق تهديدا واضحا ، واغتنم تلك الفرصة جماعة من

---

(١) Gibb : Damascus Chronicle, p. 299.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٩ ، تحت سنة ٥٤٥ هـ .

(٣) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ص ٦٩ — ٧٠ وابن العديم ، ص ٥٢٤ .

(٤) ابن العديم : شرحه س ٥٢٤ ، J R A S., 1932 p. 301

(٥) ابن القلانسى : شرحه ص ١٢ ، Gibb : Damascus Chronicle, p. 302-303 وقد ألم الكاتب الفرنسى Dussaud : Topographie de la Syrie, pp. 304, 308, 310 بالأحواش المختلفة التى تقع فى تلك الناحية ، أمثال حوش دير العصافير ، وحوش الفارة الواقع جنوب عذراء ، وحوش حمار ، وحوش الكواكب .

الأوباش فأخذوا يعيثون فى الضواحى الدمشقية فسادا، ومن المحتمل أن ذلك العيث كان بتدبير نور الدين نفسه ليدفع الدماشقة إلى الثورة على ولاة أمورهم، ويجعل منهم بذلك عاملا فعالا فى تيسير الفتح له. ومما يرجح ذلك أن نور الدين أظهر العطف الشديد على أهل دمشق وهو على أبواب مدينتهم، إذ أنفذ كتابا إلى «أبق» يقول له فيه «أنا ما أوثر إلا صلاح المسلمين وجهاد المشركين، وخلاص من فى أيديهم من الأسارى، فإن ظهرتم معى فى عسكر دمشق، وتعاضدنا على الجهاد وجرى الأمر على الوفاق والسداد، فذلك غاية الإيثار والمراد[1]» غير أن أبق لم يرد هذه المرة — فيما يبدو بشىء على كتاب نور الدين. والمتأمل لكتاب نور الدين يدرك إصراره على وجوب نهوض أبق لمحاربة بلدوين لعل عقد التحالف الدمشقى الصليبى ينفرط من جراء هذا النهوض، والظاهر أن أبق أخذ يقارن بين مطامع نور الدين الرامية إلى القضاء على استقلال دمشق وضمها إلى ملكه وبين قصد بلدوين فى التحالف مع دمشق لدفع العدو المشترك، وكان يدرك إلى جانب هذا أن هدف بلدوين الأكبر هو الاستيلاء على الجنوب حيث مصر وما تبقى فى يدها من بلدان الساحل الشامى، والظاهر أيضا أن إحجام أبق عن الرد على كتاب نور الدين يرجع إلى رغبة أبق فى ألا يتخذه خصمه وسيلة لإضعاف مكانته فى نفوس مسلمى البلد كما فعل إزاء خطابه السابق له.

لم يلبث نور الدين أن رحل إلى مشهد القدم القريب من دمشق، أى أنه أصبح أدنى ما يكون إلى البلد. ثم جرت المناوشات الأولى بينه وبين عسكر دمشق يوم ١٢ مايو سنة ١١٥١م[2]، على أنه لم يحاول دخول المدينة عنوة حتى لا يدع مجالا لمدع ما بأنه اغتصبها من أهلها قسرا، بل وقف دون قتال إشفاقا من قتل النفوس وإثخان الجراح، وفضّل الحصار؛ وسرعان

(١) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣١٣، والفارقى فى نفس المرجع والصفحة، حاشية رقم ١.

(٢) تحديد هذا التاريخ وارد فى Gibb : Op. Cit. p. 302 وانظر الروضتين، ص ٦٩.

ما ارتفعت الأسعار وعظم الخطب فى أرجاء دمشق ، لا سيما حين علم أهلها بنهوض مملكة بيت المقدس لنجدتهم ، لأن تلك النجدة تقتضى من الدماشقة تموين الصليبيين . فعمد نور الدين حينذاك للرحيل إلى داريا ليقطع السبيل على نجدة العدو من الدنو من دمشق،وعلم أنهم قاصدون نهر الأعوج فسبقهم إليه واستولى على بلدة «الزبدانى » وأقام مضاربه فى مشارفها[١] . على أن النجدة الصليبية استطاعت الوصول إلى دمشق بقيادة بلدوين الثالث ، فخرج أبق وأتابكه وابن الصوفى لمقابلة ملك بيت المقدس والترحيب به وبباروناته، وكم كانت خيبة الدمشقيين — أو على الأصح خيبة مدبرى أمورهم — حين أبصروا تلك النجدة الصليبية فى قلة من الرجال والعدد ، إذا هى قيست إلى نور الدين وجماعته .

ثم اتفق أبق وبلدوين الثالث على الخروج بمن معهما إلى ناحية حوران أو بالتحديد بصرى ، لعلهما يصرفان نور الدين عن دمشق[٢] . وكان نور الدين قد فصل فئة من جنده للإقامة ببصرى إلى جانب سرجال عاملها من قبله ، حتى إذا قدم الصليبيون من تلك الناحية لنجدة دمشق كانت مهمة تلك الفئة قطع الطريق عليهم ، وقد أعلن نور الدين لأهل بصرى أنه مرسل إليهم بتلك الفئة من جنده لحمايتهم مما عسى أن ينزل بهم على يد الصليبيين ، وغرضه من ذلك ضم العرب إلى جانبه ليقارنوا بين صنيعه الجميل معهم ، وبين إهمال أبق إياهم . غير أنه يلاحظ أن الصليبيين تقدموا وحدهم صوب بصرى فوصلوا إلى رأس الماء[٣] ، والتقوا هناك بجماعة من جند نور الدين فلم يقووا عليهم . ثم تحول الصليبيون بعدئذ إلى بصرى نفسها ، فبرز لهم سرجال برجاله ، وظهر عليهم وردهم عن مقصدهم . وهنا أحس الصليبيون

---

(١) ابن القلانسى : شرحه ص ٣١٣ — ٣١٤ ، Gibb : Op. Cit. P. 304 — 306

(٢) ابن القلانسى : الذيل ، ص ٣١٤ ، Dussaud : Topographie, P. 315,

(٣) Dussaud : op. cit. loc. cit. note 3 حيث يشير إلى المراجع العربية المختلفة التى اعتمد عليها فى تقرير موقع هذا المكان .

أن خيبتهم ترجع لنكوص « أبق » عن الخروج معهم إلى بصرى ، فأرسلوا إليه يلتمسون باقى المقاطعة المبذولة لهم ثمنا المساعدة على ترحيل نور الدين عن دمشق (١) وقالوا له « لولا نحن ندفعه ما رحل عنكم » ، وقد غضب أبق من هذا الكتاب ، وعاد الصليبيون إلى بيت المقدس دون أن يحققوا شيئا ما لأنفسهم أو لصاحبهم أبق (٢) .

لم يكد الصليبيون يرحلون عن بصرى حتى انقلب نور الدين عن فكرة الحصار إلى الهجوم مباشرة على دمشق ، واستقر رأيه هذه المرة على امتلاكها لعلمه بشدة ميل الأجناد والرعية إليه وإشارتهم إلى ولايته وعدله . فنزلت الجيوش النورية البقاع أولا يوم ٥ يوليه ١١٥١ ، ثم زحفت منها إلى أرض « كوكبا » فنزلتها يوم ٧ يوليو ١١٥١ ، وأخـــذت فى الاستيلاء على كل ما يمكن أن يتخذ ذخيرة يتمونون بها أثناء الحصار . وحصل نور الدين فى أثناء ذلك على الشيء الكثير من الأغنام والجمال والغلة والقمح والدواب ، فلما تم له ذلك رحل إلى جسر الخشب من أرض داريا (٣) ثم تحول عنها إلى أرض القطيعة جنوب دمشق (٤) . وبنزول نور الدين هناك أصبح فى الواقع داخل حدود دمشق ، كل هذا وجندها ساكن لم يتحرك ، ولعلهم رأوا ألا قبل لهم بدفع الجند النورى ، ولعل هذا الاعتقاد هو الذى حمل أبق على

---

(١) انفرد ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص٨٩ ، بذكر هذه «القطيعة» والإشارة إليها ؛ والمفهوم من كلامه أنها شبه جزية سنوية فرضها الفرنجة على الدماشقة ، ويذهب المؤرخ نفسه إلى أبعـد من هذا فيزعم أن تلك « القطيعة » أخافت نور الدين من امتلاك الصليبيين لدمشق « ولا يبقى حينئذ للمسلمين بالشام مقام » مما دفعه النهوض للدفاع عنها .

(٢) ابن القلانسى : الذيل ص ٣١٤ — ٣١٥ ، أبو شامة كتاب الروضتين ، ص ٧٢ ، ٤ ، Gibb : Damascus Chronicle p. 307

(٣) ويذكر Dussaud, op. cit. p. 315, 317 أن موقع هذا الجسر شديد القرب من دمشق وإلى الجنوب منها ، أنظر Gibb : Damascus Chronicle p. 30S

(٤) هى أرض الميدان الحالية المعروفة لمن زار دمشق ، راجع Dussaud : op. cit. p. 317, note 1, d'apres Sauvaire : Description de Damas II p. 233, وانظر أيضا ابن القلانسى ، الذيل ، ص ٣١٥ ، Gibb : op. cit p 308

طلب الصلح من نور الدين ، وقد تم الصلح فعلا بين الفريقين يوم ٢٦ يوليو ١١٥١ م[١] على يدى برهان الدين على البلخى الفقيه الدمشقى نيابة عن أبق ، والأمير أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب نائبان عن نور الدين . ومع أن ابن القلانسى كان معاصرا وشاهد عيان لحوادث هذه الفترة بالذات يوما بيوم إلا أنه لم يذكر لنا شروط الصلح بين الطرفين ، ومن ثم خلت بقية المراجع التى أخذت عنه كابن الأثير ، وأبى المحاسن، وأبى شامة . وهكذا تم لنور الدين بسط سلطانه على دمشق ، وفتحها فتحا هينا فلم ينتقم ولم يبح المدينة لعسكره ، بل كل ما جد أن صار « أبق » تابعا له بها .

ولقد أدى هذا الموقف إلى تحفز الصليبيين للاستيلاء على عسقلان الذى أدى هو الآخر بدوره إلى قيام نور الدين بإنهاء مسألة دمشق [٢] وذلك بضمها إليه ضما نهائيا ، ولتحقيق ذلك الهدف عمد إلى سياسة ظاهرها المودة والإخاء ، وباطنها القضاء على أبق واستخلاص الولاية منه . فسلك سبيل التقرب إلى أبق ، وأوهمه برغبته فى تناسى الماضى وإن كان فى الوقت ذاته لا يدع فرصة تمر دون أن يؤلب القلوب ضد مجير الدين الذى تناهى فى الظلم والذى طأطأ للصليبيين ، حتى كانت رسلهم تجوب أرجاء دمشق لجمع الجزية التى فرضوها عليها ، ومعنى ذلك أنها تابعة تبعية إقطاعية لصليبيى بيت المقدس[٣] وكان قصر نظر أتابك دمشق مما لم يخف بطبيعة الحال على نور الدين الذى أكثر من وصله بالهدايا والخلع الجمة بين آن وآخر ، وشرع فى مكاتبته برسائل تفيض رقة استماله بها إليه . حتى إذا ضمن جانبه واطمئنانه إليه عمد إلى إثارته ضد كل من يتوسم فيهم معارضة مشروع ضم دمشق إلى المملكة النورية ، ونجحت خطة نور الدين نجاحا عظيما ، يدل عليه قيام « أبق » بالقبض على كثير من كبار رجالات دمشق ، ممن حبسهم وأبعدهم عن إدارة

---

(١) ابن القلانسى : الذيل ، ص ٣١٥—٣١٦ ، Gibb : op. cit. p. 309 — 310

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٨٥ ، ٨٩ .

(٣) أتابكة الموصل ، لابن الأثير ، ص ١٨٩ .

الحكم أو قتلهم واستصفى لنفسه أموالهم [١] ، ولم يجد نور الدين — المتدين التقى — أية غضاضة فيما أدى إليه عمله من الإيقاع بالأبرياء . وللسياسة أحكامها .

وكان من أولئك الوزير عطاء بن حفاظ السلمى ، الذى كان أشد الناس حماسة لبقاء دمشق مستقلة ، وأدراهم بحقيقة نوايا نور الدين . وقد نجح نور الدين فى إيغار صدر أبق على وزيره هذا ، حتى تجهم له وأمر بقتله، فلما أخذوه للنطع قال لأبق « لا تقتلنى ، فإن الحيلة قد تمت عليك وذهب ملكك ، وسترى [٢] » .

ثم عمد نور الدين بعد ذلك إلى منع المئونة عن دمشق من ناحية الشمال فأوقع فى أيدى أربابها ، وجاع الشعب ، وتعالت صيحاته ضد أبق [٣] ، وتأزمت الأمور إلى درجة اتخذها نور الدين ذريعة للتدخل الفعلى فى دمشق ، لذا خرج نور الدين من حلب بجيشه وحاصر دمشق يوم ١٨ أبريل ١١٥٤ وعسكر عند عيون فاسريا ، ثم تقدم إلى بيت الأديار من نواحى الغوطة . وحينذاك فقط تبين لأبق حقيقة الموقف ، وتجلى له أنه كان مخدوعا، وأدرك عظم خطئه فى قتله كبار الدماشقة ، كما تبين صدق ما قاله له السلمى وهو ماض ليقتل .

لم يجد أبق أمامه وسيلة للخلاص مما هو فيه سوى مكاتبة بلدوين الثالث ملك بيت المقدس للنهوض لمعاونته مرة أخرى ، وتعهد بالتخلى له عن بعلبك

---

(١) من هؤلاء الوزير حيدرة الذى يزعم ابن القلانسى أنه ظهرت منه أشياء « مع ما فى نفس مجير الدين منه ومن أخيه المسيب » فضربت عنقه صبرا . راجع أتابكة الموصل ، ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٢) سبط بن الجوزى فى ابن القلانسى : الذيل، ص٣٢٦ ، حاشية رقم ١ وانظر أيضا الأتابكة لابن الأثير ، ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٣) الأتابكة : ص ١٩١ ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٨٨ — ٨٩ .

وبعض مناطق البقاع الوفيرة الإنتاج [1] إذا هو أرسل النجدة الكافية لدفع نور الدين ، ولم يكن بلدوين الثالث بحاجة لمن يذكره بالخطر إن تمكن نور الدين من دمشق نهائيا ، لأن ذلك يسهل عليه توجيه قواته الحربية كلها ضد مملكة بيت المقدس أو يؤدى به إلى التفكير فى الاستيلاء على مصر ، فيصبح الصليبيون محصورين بين قوات معادية من الشمال والجنوب والشرق، لذلك كله لم يكن عجبا أن يسرع بلدوين الثالث لنجدة دمشق ، حتى ولو لم يكن هناك ما وعد به أبق من الأراضى الشامية .

ويبدو أن نور الدين توقع ما حدث فعلا بين أبق وبين بلدوين من المكاتبة وخاف أن يسرع الصليبيون إلى نجدة دمشق، فبادر إلى العمل الجدى، وقام يوم ٢٥ أبريل ١١٥٤ ، وهاجم الجيش الدمشقى حتى دفعه إلى أبواب كيسان وبذا صارت الجيوش النورية أمام الأسوار ، ثم تمكنت فئة من تسلق السور فتلقاها من بالداخل ممن اشتراهم نور الدين بالمال والعطايا ، ففتحوا الباب الشرقى وباب توما ، ودخلت قوات نور الدين البلد دون أن تراق نقطة من الدماء ، وتعالت الصيحات بالتكبير والتهليل .

وقد خاف أبق أن ينتهى الأمر بقتله ، فاعتصم بالقلعة ، ثم راسل نور الدين فى تسليم البلد ، على أن يقطع مدينة حمص ، فأجابه نور الدين إلى ما طلب ، إلا أن أبق لم يلبث أن فر إلى بغداد ، وبقى بها حتى مات سنة ٥٦٤هـ [2] وهكذا قضى على أسرة بورى التى ملكت دمشق منذ أمد بعيد، وآلت دمشق بجندها وإدارتها وحكومتها وإقطاعاتها إلى نور الدين، فكان ذلك «فتح الفتوح» وصارت المملكة النورية قطعة متصلة من الشمال إلى الجنوب :

---

(١) الأتابكة : ص ١٩١ ، والكامل ، ج ١١ ص ٨٩ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٨١ ، ابن القلانسى : الذيل ، ص ٣٢٧ — ٣٢٩ ، Gibb: Damascus Ghronicle, p. 319 — 320 وابن الأثير ، الأتابكة ، ص ١٩١ — ١٩٢ ، الكامل ج ١١ ص ٨٩، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ١٠٢ .

ويعتبر سقوط دمشق خاتمة للحركة التى بدأت منذ زمن بعيد وهى توحيد القوات الإسلامية جميعها تحت لواء واحد ، لتقف صفا واحدا أمام قوات الصليبيين ، وفى ذلك من الخطر على الصليبيين ما سوف تشرحه الحوادث شرحا وافيا . على أن عجز الصليبيين عن رد نور الدين عن دمشق يشير من ناحية أخرى إلى التدهور الذى دب فى أوصال الأداة الحربية الصليبية ببلاد الشام ، وهو دليل واضح على أن نور الدين نجح نجاحا تاما فى تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة ، مما كان أبوه زنكى يسعى إليه سعيا غير مقطوع .

الفصل الثالث

نور الدين وبقايا الصليبيين بالشام

جوسلين عدو نور الدين . تآمره مع الأرمن . هزيمته . أسره . بياتريكس أميرة للرها . اتفاق نور الدين ومسعود ضدها . بياتريكس وبيزنطة . نور الدين وبيزنطة . ريموند دى بواتييه عدو نور الدين . وقعة يغرى . مقتل ريموند . محاصرة نورالدين لأنطاكية ورحيله عنها . خطر التوسع النورى على الصليبيين . كونستانس ومشكلة زواجها . اتفاقية المصيصة . الصلح الفجائى بين مانويل ونور الدين . رينو دى شاتيون فى أسر نور الدين . تأهب نور الدين لغزو أنطاكية فى غيبة أمورى بمصر . نور الدين بأسر بوهميند الثالث . وقوفه عن متابعة الغزو . رجوع أمورى ومفاوضته نور الدين . زيارة بوهميند لبيزنطة . سياسة نور الدين إزاء أنطاكية . توقع الحلف بين الصليبيين والبيزنطيين . الصراع حول بانياس . أسر بلدوين الثالث مرض نور الدين . بلدوين يهاجم شيزر . نور الدين يسترد شيزر . الموادعة بين نور الدين وبلدوين الثالث .

أصبح نور الدين بعد استيلائه على دمشق ، وقد خلى له الجو لينصرف إلى تحقيق الشطر الثانى من الإرث الزنكى وهو جهاد الصليبيين ، ووضحت له خطة ذلك الجهاد بعد أن قامت مملكة بيت المقدس وملكها بلدوين الثالث بما قامت به من دور واضح لمنع استيلاء نور الدين على دمشق . وإذن فقد اتجه كل تفكيره الجديد نحو بيت المقدس وما قد تقوم به من دور لحماية نفسها وحماية الإمارات الصليبية الأخرى منه ، متخذة فى سبيل ذلك شتى المحاولات والسبل .

على أن أعدى أعداء نور الدين وأشدهم تطلعا للوثوب عليه من بين الصليبيين هو جسلين الثانى أمير الرها ، التى أصبحت مقصورة على تل باشر وسميساط ودلوك وراوندان ، وبقيت فى نفسه إحن لا يهدأ أوارها على

البيت الأتابكى منذ أسر زنكى أباه جوسلين الأول ، بعد أن سلب منه مدينة الرها سنة ١١٤٤ . فلما قتل زنكى طمع جوسلين وجماعته ممن بقى على الولاء له من أهل الرها فى استرداد تلك المدينة الهامة والقضاء على البيت الأتابكى (١)، وشجعهم على ذلك انقسام المملكة الزنكية قسمين ، اعتقادا منهم أن القسمة كفيلة بأن تجعل الضعف يدب فى حلب والموصل فى آن واحد؛ وعلى الرغم من اتحاد الأخوين غازى ونور الدين فإن جوسلين لم يأل جهدا فى القيام بشىء ما ضد نور الدين (٢) ، وذلك بتحريكه الأرمن من سكان الرها .

ولم يكن بقلعة الرها سوى حامية زنكية قليلة فأطمعت تلك القلة أولئك الأرمن المتطلعين لطرد المسلمين عن الرها ، وكان الأرمن بعكس السريان شديدى الميل للصليبيين ، لا سيما أن ابن جوسلين — كما تسميه المصادر العربية — من أم أرمنية هى أخت ليون الأول ملك الأرمن (٣) (١١٢٣ — ١١٤٤) ، أضف إلى هذا ما لقيه الأرمن من عطف الصليبيين عليهم وتقريبهم إياهم ، بقدر ما عاناه السريان منهم . لهذا كله دبّر الأرمن فيما بينهم مؤامرة للتخلص من الحكم الإسلامى ، وطمعوا أن تمكنهم الأحوال إذ ذاك من التغلب على نور الدين الذى لما يعجموا عوده . وعرف جوسلين الثانى تلك النزعة فيهم ، فلم يكد يبلغه خبر مقتل زنكى حتى كتب إليهم يستحثهم على التمرد والعصيان والامتناع على المسلمين وتسليم البلد إليه ، وواعدهم على يوم يصل إليهم فيه(٤) ، فلما كانت ليلة ٢٧ أكتوبر ١١٤٦ (٥) ، اغتنم فرصة

---

(١) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥٥ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ص ٤٨ ، Migne: Dict. des Croisades. arte "Edesse."

(٣) Migne : Op. Cit. arte "Armenie." ، أما المؤرخ المجهول فى Tritton : (J.R.A.S.) 1932, p. 275 فيسميه «لابون بن دافن» ، أنظر أيضا Jorga : Brève Histoire des Croisades, P. 87 ; Michel, t. III, P. 269 ; Greg. le Prête, t. I, P. 158 ; Oraison, P. 205 — 220.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥ .

(٥) Grousset : Hist. des Croisades, t. II, P. 199 — 200.

الظلام، ووقف بجنده أمام مدينة الرها، ثم رمى الحبال على الأسوار وتسلقها، وتلقاه الأرمن من الداخل حسب الاتفاق المبرم بينهما. فلما شاهد جوسلين نفسه داخل البلد ازدهاه النصر، ولم يفكر فى الاستيلاء على قلعة الرها من حاميتها الضئيلة من المسلمين، حتى إن أحد المؤرخين المسيحيين ليرميه «بالحمق» لانصرافه هو ورجاله عن قلعة الرها إلى نهب البيوت والأسواق.

والواقع أن انصراف جوسلين عن القلعة جعله هو ورجاله أسرى داخل أسوار المدينة، وإذن فقد أصبح أمام جوسلين — للخلاص من الأسر الذى اختاره لنفسه — أن ينتظر مقدم الجماعات الصليبية لنجدته من الخارج، أعنى من أنطاكية (ريموند دى پواتييه)، ومن طرابلس (ريموند الثانى) ومن بيت المقدس (مليزاند).

وقد ترامت أخبار اقتحام جوسلين للرها إلى نور الدين، فاعتبر تلك الفعلة الجريئة اختبارا جديا لقوته وتحدّيا له، وأدرك إلى جانب هذا أن مبادرته إلى ضرب جوسلين قبل التئام القوات الصليبية خير من مواجهته إياها مجتمعة. لذا خرج نور الدين من حلب فى جمادى الآخرة سنة ٥٤١ هـ فى حشد كثيف من الفرسان عددهم عشرة آلاف، غير المشاة وغير الطلائع التى أنفذها أمامه بقيادة سيف الدولة سوار ليضرب جوسلين ضربة فاصلة. ولم يقو جوسلين على ملاقاة هذه الجموع خارج الرها أو داخلها، فلم يلبث أن انهزم أمامها إلى أحد الأبراج فى عشرين من فرسانه [١]. ثم إنه أخذ يُنفذ الرسل إلى أمراء الولايات الصليبية يدعوهم لنجدته والإسراع إليه قبل أن يتمكن منه نور الدين وتنعدم الحيلة، وتضيع هيبة الصليبيين أمام الأرمن وغير الأرمن ممن وثقوا به فوقفوا إلى جانبه. على أنه لم تصله أية نجدة، بل تمكنت القوات النورية من البلدة تمكنا تاما حمل جوسلين على طلب النجاة فى الفرار، وحذا حذوه الأرمن الذين أدركوا ما ينتظرهم إذا ما

---

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٨٨ .

بقوا بالرها ، فخرجوا من البلد ، وقد انتصف الليل ، بعد أن أضرموا النيران فى كثير من البيوت[١] . وقد استطاع جوسلين الثانى النجاة إلى سميساط . غير أن كثيرا من الأرمن لم يستطيعوا إلا أن يقعوا فى أيدى الجنود النورية التى حالت بينهم وبين المدينة عقابا لما برهن عليه الأرمن من نكران الجميل ، وأتاحت للمسلمين فرصة تأمين المواصلات بين حلب وبلاد الشرق الإسلامى[٢] . غير أن ذلك الفشل الذريع لم يفت فى عضد جوسلين الثانى ، إذ كان فى عزمه أن يجازف بكل شىء فإما فوز تعقبه حياة طيبة ، أو هزيمة تتلوها ميتة بميدان القتال ، وانتهت تلك المجازفة بأسره[٣] يوم ٤ مايو ١١٥٠ ، واقتيد إلى حلب حيث بقى بها حبيساً تسع سنوات[٤] .

عندئذ وُكِل أمر الدفاع عما تبقى من إمارة الرها إلى زوجته الأميرة بياتريكس ، وكان لها منه ابنتان وولد[٥] فحاولت باسمه أن تحل محل زوجها حتى يبلغ ابنها مبلغ الرجال . غير أن توليها الحكم أطمع فيها كل من حولها ، إذ أسرع نور الدين فاستولى على عزاز فى يوليو ١١٥٠ م ، ولم تلبث حارم[٦] أن سقطت فى يده ، وكان غرضه من تلك السرعة أن يبنى من الحاميات خطا طويلا ليحول بين الصليبيين وبين النهوض لنجدة بياتريكس . إذا هو عقد النية على إزالة البقية الباقية من إمارة الرها . ولم يَخْف ذلك على بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، فجمع ما استطاع من قوة حربية ، وسار لنجدة الأميرة من الخطر النورى الذى يوشك أن يُفقد الصليبيين كل البلاد التابعة لهم شمال حلب . غير أن بلدوين الثالث أدرك أن ما لدى

(١) ابن الأثير: الكامل ، ج ١١ ص ٥١ ، Michel Le Syrien: Chroniques, t., III, p. 270; JRAS, 1933, p. 293, G. T., p. 729.

(٢) Stevenson : Crusaders in the East, p. 153.

(٣) ابن القلانسى ، ص ٢١٠ ، الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٩٦ .

(٤) J.R.A.S., 1932, p. 301.

(٥) Rey : Les Familles d'outre — mer, p. 300.

(٦) فيما يتعلق بحارم وتاريخها فى هذه الفترة ، راجع ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٢٢٥ وما بعدها .

الصليبيين من قوة بالشام لا يكفى لمواجهة نور الدين . ولذا عمد إلى الاستعانة بالدولة البيزنطية . التى لاشك أنها قد رحبت بهذ الطلب ، ولم ترد اليد التى سألتها النجدة . لا لأنها يهمها مصالح الصليبيين أو المسيحية فى بلاد الشام . بل لكى تقوى حدودها وتخومها عساها تتمكن من القضاء على الصليبيين والمسلمين معا فى هذه المنطقة يوما ما . لذلك رأى الإمبراطور أن يسارع لنجدة بياتريكس التى هربت إلى تل باشر ، وتقدم إليها مقترحا أن يشترى منها إمارة الرها بالمال ، على أن يجرى عليها وعلى أولادها طيلة حياتهم معاشاسنويا يكفل لهم العيش الرغيد وإن فقدوا السلطنة والسيطرة ، وأخذ مانويل على نفسه عهدا بمحاربة نور الدين ومسعود صاحب قونية وغيرهما من أمراء المسلمين[1] ، وكان ذلك عرضا جميلا يُشكر عليه لو أنه تجرد عن المطامع الذاتية .

مضى مانويل كومنين يغرى بياتريكس بعيشة الرفاهية وحياة الطمأنينة إذا هى لبت شروطه لتنصرف إلى الاهتمام بشئون أبنائها ، وأخذ يستميلها بمختلف الهدايا التى بعث بها إليها مع كبار رجاله ،فرضيت ببيع إمارتها له[2] ، أفهل كان يدور بخلد بلدوين أن يؤول الأمر إلى بيع تلك الإمارة الصليبية إلى إمبراطور الدولة البيزنطية الذى أفسد الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ، كما فعل سلف له من قبل إزاء الحملة الأولى ، وعمل جهده على تفريق شمل رجالها بالخيانة والخديعة ومصافاة المسلمين ؟ على أن الأمر الذى يدعو إلى الالتفات هنا هو أن عروض مانويل أدت إلى انقسام الصليبيين بالشام فيما بينهم ، فرأى بعضهم وجوب رفض طلب مانويل ، وهؤلاء كانوا مدفوعين بالعاطفة الدينية ، ولعلهم رأوا أن نجدة الأمراء — إن أمكن — فى بلاد الشام كافية لإجلاء نور الدين وأتباعه عن الأماكن التى احتلوها سواء فى الرها أو فى

---

(١) Cf. Chalandon : Comnènes, t. II, , p. 424.

(٢) C. T., p. 785 — 786; Chalandon : Comnènes, p. 424 — 425 ;

شرقى نهر العاصى . أما الفريق الثانى فإنه رأى أن الدولة البيزنطية خير من المسلمين ، ولعل هؤلاء أدركوا هدف نور الدين من كثرة فتوحه ، واستشفوا منه أنه يعمل جديا على تكوين جبهة متحدة لقتال الصليبيين فى الشرق ، ولعلهم رأوا أيضا أن امتلاك الإمبراطورية البيزنطية للرها سيؤدى إلى كثرة الاحتكاك بدولة نور الدين ويولّد النزاع بين الجارين مما يترتب عليه إضعافهما معا وإنقاذ الإمارات الصليبية على حسابهما. وقد جرى ذلك الانقسام فى الرأى فى جلسة عقدت خصيصا لمداولة الرأى فى عروض مانويل . ولعل نظرة واحدة إلى محضر تلك الجلسة التاريخية يساعد على فهم روح ذلك العصر ؛ فقد كان وليم الصورى — أكبر مؤرخى فرنجة تلك الحقبة — حاضرا المجلس وترك لنا صورة صادقة عنه[1] ، وهو نص كاف لإيضاح اختلاف وجهات النظر حول تلك المسألة الهامة ، إذ يتبين منه أن بياتريكس وكلّت تقرير مصير إمارتها — أو على الأصح ما تبقى منها — إلى رأى بلدوين الثالث ملك بيت المقدس وعاهل الصليبيين فى بلاد الشام ، ولم ير بلدوين أن يبتّ فى الأمر برأى قاطع دون مشاورة باروناته ، فلما استقر الأمر على قبول مطالب مانويل كومنين حاول إقناع الأميرة ببيع تل باشر وسميساط وروم قلعة وألبيرة ودلوك وعنتاب وراوندان إلى البيزنطيين ، وخرجت الأميرة وأولادها ، وتبعها فى خروجها جمهور غفير من الأرمن الذين أدركوا مقدار الخطر الذى يهددهم من بقائهم تحت سيطرة النفوذ البيزنطى ، فأرادوا الإبقاء على حياتهم وأموالهم ومعتقداتهم .

⁂

هذا ما كان من أمر ما تبقى من إمارة الرها ، على أن ذلك لم يكن كل ما هنالك بين الصليبيين ونور الدين فى السنوات الأولى من حكمه ، إذ كانت هناك أنطاكية ، التى أشار صاحبها ريموندى بواتييه على الحملة الصليبية الثانية

---

(١) G. T., p. 785.

أن تبدأ عملها بحلب ، ولو أنها نزلت عند رأيه لما توجهت وجهتها الخاطئة صوب دمشق ، ولذلك لم يكد الصليبيون الاوربيون وعلى رأسهم لويس السابع يرحلون عن أنطاكية إلى بيت المقدس حتى تأهب نور الدين للقضاء على إمارة أنطاكية وصاحبها ، الذى كان يمكن أن ينجح فى توجيه الحملة الصليبية نحوه ، وكأن رايموند كان يتوقع أن يتحرك نورالدين ضده فى سرعة فسبقه، وخرج بجيوش أنطاكية سنة ١١٤٩ قاصدا إمارة حلب ، ولم يكن ذلك من الأمور التى ينبغى القيام بها فى مثل تلك الظروف التى زال فيها الخوف عن نفوس المسلمين عامة وأهل حلب خاصة ، لانكشاف القوات الصليبية الأوربية عن بلاد الشام ، وخروجها منها شبه منهزمة ، وظهور الخلف الشديد بين الصليبيين ، وتضارب مطامع المقيمين منهم بالإمارات المختلفة .

ولم يكد خبر تحرك الأنطاكيين يترامى إلى سمع نور الدين حتى استعد لمقاتلتهم ، والتقى الفريقان فى مكان اسمه يغرى[١] سنة ١١٤٩ ، واقتتلا شديدا انجلى عن هزيمة الصليبيين . وهذا ما رواه ابن الأثير وابن العديم ، إلا أننا لا نجد شيئا عنها فى ابن القلانسى ، بل إن كل ما يشير إليه صاحب الذيل هو هزيمة نور الدين أمام ريموند أمير أنطاكية[٢] .

وتعليل ذلك أنه ربما كانت هناك وقعتان لنور الدين مع ريموند، شالت فى الأولى كفة الصليبيين ، ثم عادت فرجحت فى الثانية، إذ يذكر المؤرخ السريانى المجهول أن نور الدين هاجم يغرى فى غيبة صاحبها ريموند ، فلما علم ريموند بذلك جمع رجاله وكرّ على المسلمين كرة أرغمتهم على الفرار، حيث نجى مع نور الدين مائتان فقط من رجاله ، أما من عداهم فقد قتلوا عن آخرهم[٣]

---

(١) Dussaud ; Topographie, p. 436 — 439

(٢) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ص ٦١ ، وأتابكة الموصل ، ص ١٦٤ — ١٦٥ ، وابن العديم، ص ٥١٧ — ٥١٨ ، وابن القلانسى ص ٣٠٢ — ٣٠٣ ، Gibb : Damascus Chronicle, P. 188 ; JRAS., p. 301.

(٣) أما كتاب الروضتين ، ص ٥٦ ، فقررها كأمر مفروغ منه كما حفظ لنا الشعر العربى إشارة لهزيمة نور الدين فى يغرى ، إذ قال أحد الشعراء فى مدح أسد الدين شيركوه : =

ويمكن أن نقول إن الوقعة التي هزم فيها نور الدين على يد ريموند قد تثاقل عنها بعض المؤرخين المسلمين عن قصد ، فقد نص عليها أبو شامة ، فقررها كأمر مفروغ منه .

وكيفما كان الأمر فقد أعقب نور الدين وقعة يغرى بالهجوم على حصن حارم فى مايو ١١٤٩ ، وهو الحصن الواقع على الشاطىء الشرقى لنهر العاصى . وقد استولى نور الدين على ذلك الحصن وعلى أرتاح[١] وما حولها ، ولعل هذه الحركة من جانبه كانت ثأرا للهزيمة التي لحقت به من قبل أمام يغرى . ثم مضى نور الدين يخرّب ما حول حوران ، ولم يلبث أن انتصر على جماعة من الصليبيين عند « أنب » شمالى أفامية ، وأزالهم عنها[٢]

على أن رايموند كان فيما يبدو شبيها بنور الدين فى العزم على مواصلة القتال إلى النهاية ، إذ تحرك بجيوشه[٣] حتى بلغ « معرتة »[٤] ، مما انطوى على الخطر الشديد عليه وعلى من معه . ولم يفت ذلك أحد الإسماعيلية الذين

= إن كان آل فرنج أدركوا فلتَحا فى يوم يغرى ونالوا منية الظفر
فنى الحطيم خطمت الكفر منصلتا أبا المظفر بالصمصامة الذكر
نالوا بيغرى نهابا وانتهبت لنا على الحطيم نفوس المعشر البتر

كما أن القيسرانى يشير فى إحدى قصائده التي رفعها إلى نور الدين عقب نصره على ريموند دى بواتيه إلى هذا الحادث فيقول :

قل للطغاة وإن صمت مسامعها قولا لصم القنا فى ذكره أرب
ما يوم آنب والأيام دائلة من يوم يغرى ببعيد لا ولا كثب
أغركم خدعة الآمال ظنكم كم أسلم الجهل ظنا غرة الكذب

انظر أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٢٦١ Le Strange : Palestine under Moslems, p. 436 — 437.

(١) Dussaud : Topographie Hist. de la Syrie p. 225 et seq.

(٢) Dussaud : Op. Cit. p. p. 168 وابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ١٧٧ ، وابن القلانسى ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، Gibb : Damascus Chronicle, p. 291 — 292 وكان هذا الانتصار فى شهر صفر سنة ٥٤٤ هـ = (يونيو ١١٤٩ م)

(٣) Documents Armeniens, t. I., p. 161; G. T., p. 772.

(٤) Dussaud : op. cit. p. 167.

كانوا يتلمسون الوسيلة للقضاء على نور الدين [١] ، فقد أشار هذا الإسماعيلي على ريموند بالبقاء حيث هو نظراً لقلة جنده[٢] وانتظاراً لمقدم ما قد يفد عليه من الإمدادات الصليبية . بيد أن ريموند أهمل مشورة الإسماعيلي ، فتركه نور الدين حتى صار أمام معرتة ليلة ٢٧ يونيو ١١٤٩[٣] ، وعندذلك تقدم نحوه وقاتله أعنف قتال ، وأبى أمير أنطاكية النزول على مشورة من أشاروا عليه بالنجاة بنفسه ، بل استبسل حتى خر صريعا فى الميدان . ولا مشاحة فى أن مصرع ريموند كان من أشهى الأمانى عند المسلمين ، فقد زال من على مسرح النضال رجل أقل ما يقال فيه إنه من أشد خصومهم قوة وأكثرهم كراهية لهم ، وحسبنا بيان شكيمته من تسميتهم إياه « باللعين » و « العاتى ، ثم إنه عندهم أيضا من « أبطال الصليبيين المشهورين بالفروسية وشدة البأس ، وقوة الحيلة ، وعظم الخلقة ، مع اشتهار الهيبة وكبر السطوة والتناهى فى الشر » ، وهو عند المسيحيين « الأسد الهصور[٤] ». وقد كانت نهاية ريموند على يد أسد الدين شيركوه . فلما عثروا على جثته فصلوا رأسه وذراعه اليمنى وحملوهما إلى خيمة نور الدين ، وزعم وليم الصورى أنهما حملتا من هناك إلى الخليفة ببغداد[٥] ومهما يكن الأمر فقد كانت تلك

---

(١) لإبطاله « حى على خير العمل » ، أنظر النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٨٢ .

(٢) Chroniques du Michel, t. III, p. 289. وقد ذكر ابن القلانسى ص ٣٠٤ — ٣٠٥ أن جند نور الدين بلغ الستة آلاف فارس سوى القاتلة والأتباع والسواد ، أما جند ريموند فكان أربعمائة فارس طعانة ، وألف رجل مقاتلة ، راجع أيضاً كتاب الروضتين ج ١ ص ٤٥٨ ، G.T., p. 772

(٣) هذا التاريخ وارد فى : Migne: Dic. des Crois.arte "Antioche"

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٦٥ ، المنتظم ص ١٢١ — ١٢٢ ، وابن القلانسى ص ٣٠٥ ، G. T., p. 776 ; corhniques du Michel, t. III, p. 289 ;. Rey : Les Familles d' outre mer p. 360

(٥) لم تنص المراجع العربية على تسمية المكان الذى قتل فيه أمير أنطاكية ، غير أن الشعر حفظ لنا اسمه ، فيقول أحدهم مخاطبا أسد الدين شيركوه ، ومنوها بما قد تم على يده من مصرع أمير انطاكية

فى الحطيم خطمت الكفر منصلتا   أبا المظفر بالصمصامة الذكر =

الوقعة وما أدّت إليه من مقتل ريموند ثانى نكبة تنكب بها الإمارات الصليبية فى الشام فى مدى أعوام قلائل ،ولم يعدل ألم الصليبيين بها سوى فرحة المسلمين[١] .

عدمت أنطاكية من يدفع عنها غائلة المغير ، إذ لم يخلف ريموند وراءه سوى أرملته كونستانس وابنه الصغير بوهمند الثالث . فطمع نور الدين إذ ذاك فى إرهاب أهلها ، فتقدم بجيوشه حتى بلغ « باب السويداء » أحد أبواب المدينة ، وطلب من أهلها الاستسلام له ، فاضطربوا وخافوا على مصيرهم ومصير الإمارة ،فتقدموا إليه بالهدايا والأموال عساه يرجع عما يهددهم به ، بما فيه فناؤهم كجماعة استقرت هناك منذ نصف قرن .

والواقع أن نور الدين لم يكن صادق الرغبة فى الاستيلاء على أنطاكية ، لأنه إذا اشتد فى تهديدها فإنه يهىء للدولة البيزنطية ذريعة للتدخل فى شئون الإمارة ، وهو ما لا يحبه مطلقا ، فجوار الصليبيين — على حد قوله — أحب إليه من مجاورة « ملك القسطنطينية »[٢] . ولا عجب إذا قبل نور الدين ما عرضه عليه الأنطاكيون من الهدايا والأموال ، ورأى الارتحال عن بلدهم لمنازلة الحصون الأخرى .

ثم نزل نور الدين على أفامية[٣] وهى من أمنع المعاقل الصليبية المطلة

= ويقول آخر عن ريموند

فانقاد فى خطم المنية آنفه يوم « الحطيم » وأقصرت نزواته

انظر أيضاً ابن القلانسى ص ٣٠٥ ، G. T., p. 774.

(١) حفظ لنا الشعر العربى صورة من فرحة المسلمين بانتصارهم على ريموند ومصرعه ونكبة أنطاكية ، فيقول أحدهم مخاطبا نور الدين

أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهمو منها بقاصمة أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
طهرت أرض الأعادى من دمائهمو طهارة كل سيف عندها جنب

(٢) ابن الأثير :أتابكة الموصل ، ص ٢٢٤ .

(٣) G.T., p. 774; Van Berchem, Voyage en Syrie, p. 233; Dussaud ; op. cit. p. 168. وابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٥ ؛ وأتابكة الموصل ، ص ١٨٠ ؛ والكامل ،ج ١١،ص ٦٧ وكان نزوله يوم ٢٦ يوليو ١١٤٠ م(= ربيع الأول سنة ٥٤٤ هـ)

على نهر العاصى ، كما كانت مصدر خطر جسيم على الإمارات الإسلامية التى حولها ، لاسيما شيزر وحماة ، فرتب نور الدين الأمير صلاح الدين لحربها ، وعهد إليه — ثقة منه به — بدفع كل قوة صليبية تفكر فى إنقاذها ، ويئس أهل أفامية من الانتصار حين سمعوا بما حاق بأنطاكية ، وانعدم رجاؤهم فى نجدة تصلهم ، فلم يلبثوا أن طلبوا الأمان فأجيوا إليه[1] .

وهنا يتضح لنا أن نور الدين كان يسير فى تلك الحرب وفق خطة مرسومة مدبرة ، فهو فى جميع تلك الوقائع قد جعل نصب عينيه أمراً واحداً تبينه لنا خريطة فتوحه إبان تلك الحقبة ، ألا وهو محاولته الاستيلاء على كل البلاد الواقعة شرقى العاصى. على أن تحول نور الدين عن أنطاكية إلى أفامية لم يكن معناه صرفه النظر عنها نهائيا ، بل انتظر بلدوين الثالث أن يعود نور الدين إلى تهديدها مرة أخرى ، حتى إذا قضى لُبانَتَه منها توجّه إلى الجنوب حيث طرابلس ومملكة بيت المقدس ، ولذا اهتم بلدوين بأمور أنطاكية أشد الاهتمام ، ولا سيما أنها لم تكن مهددة من جانب نور الدين فحسب ، بل كان هناك كذلك الامبراطور مانويل كومنين . والواقع أن مانويل لم يخف مطامعه فى ضم أنطاكية إليه عقب مصرع ريموند دى بواتيه ، ذلك أن كونستانس اعتبرته حاميا لها ولإمارتها ، فرآى الفرصة سانحة لتحقيق مطامعه الملوكية ، وذلك بربط إمارة أنطاكية بالإمبراطورية البيزنطية برباط المصاهرة ، فبعث إليها أميراً من ذوى قرباه ، ولكنها صرفته بلطف ، وتكرر العرض من جانب الإمبراطور أكثر من مرة[2] .

أما بلدوين الثالث فقد رأى أن زواج كونستانس من أمير صليبى من أتباعه يدعم الإمارة ، وبالتالى يدفع عنها أطماع الإمبراطورية البيزنطية ، ويمكّن ملك بيت المقدس من الانصراف لمعالجة شئون الإمارات الأخرى بالشام ،

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٦٣ .

(٢) Schlumberger : Renaud de Chatillon, p. 10.

ولذلك عقد مجمع فى طرابلس ضم كبار الصليبيين ورجال الدين، وتصدره بلدوين الثالث [١] وأمه وكونستانس. واستعرضوا أسماء من يطمعون فى الزواج من الأرملة الشابة الحسناء، فأبت الأميرة الاقتران بأحد ما، وأصرت على أن تبقى كما هى منصرفة إلى الوصاية على ابنها، وهناك من يعلل موقفها هذا إلى تدبير من بطريرك أنطاكية أمورى دى ليجوس، ليظل صاحب الكلمة فى تصريف شئون الإمارة [٢]. ولقد كانت كونستانس فتاة فى ريق الصبا وميعة الشباب، لها قلب يخفق بالحياة، فلا تقيده أوضاع معينة، أو رتبة، أو جاه، أو مال، وما لبثت أن أحبت فتى مغامراً هو «رينو دى شاتيون» الذى لم يكن له ما يؤهله للزواج بها غير جماله وفتوته، وداست هى الفارق الاجتماعى العظيم الذى يفصل بينهما، وكانت من الدهاء بمكان، فتظاهرت بضرورة الحصول على موافقة بلدوين الثالث، فبعثت زوجها المختار إليه وهو مقيم على حصار عسقلان الفاطمية، متوسلا إليه الموافقة على زواجهما من بعضهما، فتم لها ما دبرا [٣]، وعاد «رينو» إلى أنطاكية سنة ١١٥٣ م، وعُدَّ توليه الحكم أكبر سبة فى تاريخها وفى تاريخ الإمارات الصليبية عامة [٤]، لا سيما وقد أدت سياسته الخرقاء إلى أسوأ العواقب، كما غضب لهذا الزواج البطريرك الأنطاكى.

غير أن تطور الحوادث بأنطاكية على ذلك النحو لم يجعل منها ما أراده بلدوين الثالث، الذى ما فتىء يوجس خيفة مما قد يكون الغرض التالى لنور

(١) كان سبب مقدم بلدوين إلى طرابلس محاولته التوفيق بين ريموند الثانى أميرها وبين زوجته «هديرون».

(٢) G.T., p. 790 — 791.

(٣) غير أن هناك مؤرخا يزعم ان اختيار رينودى شاتيون زوجا لكونتسانس كان بتدبير بلدوين الثالث نفسه؛ راجع فى ذلك Schlumberger : op. cit., p. 5, note 1 d'pprés Chron. d'Ernoul.

(٤) Cf. G. T., p. 802 — 803. حيث يقول عن رينودى شاتيون Gregario nubere dignareture أى أنه غير أهل لما تولاه.

الدين بعد أفاميـة . ولذا رأى بلدوين الثالث أنه من الخير له أن يبحث عن حليف قوى يستطيع أن يلوّح به فى وجه نور الدين كلما هم ينذره بالخطر ، وقرّ رأيه أن يتخذ من الإمبراطورية البيزنطية حليفا له ، فخطب إلى الإمبراطور مانويل كومنين ابنة أخيه « تيودورا » [١] غير متجاوزة الثالثة عشرة من عمرها ، فزفها الإمبراطور إلى بلدوين الثالث أرْوَع زفة، وقد رحب الإمبراطور بمشروع الزواج لما فيه من وسيلة للحلف بين مملكة بيت المقدس والإمبراطورية البيزنطية، لعله بذلك يستطيع أن يُنهى ما للإمبراطورية من أطماع فى أنطاكية ، حيث كانت كونستانس هى الوصية على ابنها بوهيمند الثانى ،وإلى جانبها زوجها رينو دى شاتيون ،الذى لم تلبث سياسته أن أدت إلى نهوض الإمبراطور سنة ١١٥٨ ،لمعاقبته على تعديه على عملائه فى قبرص وعلى رجال الكهنوت الأغريق بأنطاكية. وخرج مانويل إلى المصيصة بجيش ضخم ارتعدت له أوصال الوصية وزوجها . فاستغاث رينو ببلدوين ، ولكن ملك بيت المقدس تلكأ بإيحاء من البطرك إيمرى ليموجوس ، وأدرك رينو أنه أمام اثنين أحلاهما مر : إما أن يخرج وحده لمقاومة جيش الإمبرطور وهو ما لا يستطيعه أبداً ، لأنه يؤدى إلى أسره أو قتله . وهو الحريص على الحياة وأبهة الحكم ، وأما ثانيهما فهو الخضوع للإمبراطور ، وذلك ماأشار به عليه أحد المقربين إليه وهو جيرار الناصرى أسقف اللاذقية [٢] واختار رينو الطريق الثانى ومضى إلى فسطاط الإمبراطور بالمصيصة عارى الرأس ،حافى القدمين ،مبالغة فى إظهار طاعتـه وخضوعه له ، وركع أمامه مقبّلا يده، وأعلن نفسه تابعا إقطاعيا له، بل لقد ذهب أبعد من ذلك حين تعهد للإمبراطور بخلع البطرك الكاثوليكى ، وإحلال آخر يونانى مكانه [٣]

Diehl : Figures Byzantines, t II, p. 106 — 108. (١)

Du Cange — Rey : Familles d' outre — mer, p. 797. (٢)

(٣) فيما يتعلق بهذه الصورة التمثيلية العجيبـة ، وما دار فى ذلك المجلس بين الإمبراطور مانويل دى كومنين ، وبين رينو دى شايتون، راجع G. T., p. 890

غير أن امتداد السيادة البيزنطية على أنطاكية بهذه السهولة لم يُرق فى عين بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، الذى خاف من ضياع أنطاكية وتسليم قلعتها إلى مانويل ، فأرسل رسله تعلن للإمبراطور البيزنطى قدوم مولاها الذى دخل عليه فسطاطه فى المصيصة راكبا غير راجل ، ولعله فعل ذلك عن قصد ليشعر الإمبراطور بتكافىء مكانتيهما ، وقد أحسن مانويل[١] لقاءه ، وربما كان ما قام به مانويل وقتذاك من دعوة لمهاجمة أملاك نور الدين إنما قصد به صرف الصليبيين عن التفكير فيما حدث بأنطاكية .

وكيفما كان الأمر فقد نهض نور الدين فى فبراير ١١٥٩ إلى البلاد الشامية المختلفة، لتطمين أهلها من شر الحلف البيزنطى الصليبي ، وسار فى عسكره إلى حمص وحماة وشيزر[٢] ، وكاتب عمال الأطراف وولاة الأقاليم لإنجاده بعساكرهم لصد ما عساه ينزل بالبلاد[٣] . غير أن هناك فجوة فى كتابات المؤرخين المعاصرين لتلك الحقبة ، فبدلا من أخبار الاستعدادات التى انصرف إليها نور الدين للتجهز للقتال ، وبدلا من أخبار تأهب مانويل بجنده وحلفائه ، إذا بصلح يتم بين المسلمين والبيزنطيين فى جمادى الأولى ٥٧٤ هـ = ١١٥٩ م، كأن لم يحدث بين قيام نور الدين وإتمام الصلح شىء ما. ويشير الكاتب الأرمنى القسيس جريجوار — ويتفق معه ابن القلانسى — إلى تردد رسل نور الدين على معسكر الامبراطور ، ولا شك أن نور الدين كان مستعدا للحرب ، فقد تواصل الأمراء المقدمون وولاة الأعمال بجنودهم « لمجاهدة أحزاب الضلال وحماية الأعمال الاسلامية من شر الروم والأفرنج » ومع هذه الكثرة العددية إلا أن نور الدين آثر الصلح مع مانويل، حتى لا يجعل مملكته بين عدوين، ووافق على إطلاق سراح الأسرى الصليبيين الذين لا زالوا فى الأسر عنده منذ الحرب الصليبية الثانية[٤] كما أرسل إليه مانويل هدية من « الأثواب والديباج الفاخرة

(١) G.T., p. 862, Doc. Armeniens, t.I,p. 188.

(٢) ابن القلانسى: الذيل، ص ٣٥٦ — ٣٥٧ Gibb: Damascus Chronicle, p. 354—355

(٣) ابن القلانسى ، الذيل ، ص ٣٥٧.

(٤) G. T. p. 864—866; Gregoire le prétre, t. I, p. 189—191

والجوهر النفيس ، والخيمة من الديباج ، وما استحسن من الخيول المحلية ». ويتجلى من بقية عبارة لابن القلانسي فرح المسلمين برحيل الإمبراطور بعد الصلح، حيث عاد إلى بلاده « مشكوراً محموداً ، لم يؤذ أحداً من المسلمين »(١). والواضح من ذلك كله أن مانويل كومنين لم يقصد إيذاء أحد من المسلمين ، بل كان غرضه من حركته أولا تسوية مسألة أنطاكية ، حتى إذا تم له ذلك لم يبق عليه إلا أن يجرى على السياسة البيزنطية التقليدية، التي رمت دائماً إلى توازن القوتين الإسلامية والصليبية فى الشام ، بحيث لا تطغى إحداهما على الأخرى طغيانا يهدد مصالح الإمبراطورية البيزنطية وأطماعها ، ولم يكن من صالح الإمبراطور أن يقضى القضاء المبرم على نور الدين ، هذا إلى ما ترامى إلى سمع مانويل كومنين من الاضطراب فى عاصمته(٢) ، فأشار مشيروه بوجوب الإسراع فى العودة إلى بلاده، رغم أنهم أصبحوا وليس بينهم وبين أن يطرقوا أبواب حلب سوى ثلاثة أيام .

وقد كان معنى الاتفاق بين نور الدين ومانويل كومنين إطلاق يد المسلمين فى الأعمال الصليبية ومكايدة صليبيّ الشام ، ولعل الاتفاق قد تم بينهما على أن يقوم سلطان حلب ودمشق بمراقبة شاتيون بنيابة عن الإمبراطور . ومن الدليل على ذلك أنه حدث أن علم رينو بوجود عدد وفير من الماشية والأغنام لبعض المسلمين فيما بين مرعش ودلوك من أعمال إمارة الرها ،فقام فى نوفمبر ١١٦٠م وخرج فى شرذمة ضئيلة للاستيلاء عليها ، وقد تربص مجد الدين بن الداية عامل نور الدين على حلب لرينو فى الطريق وهاجمه وأحاط به وبمن معه ، واستطاع أخذه أسيراً حيث بقى فى سجن حلب إلى سنة ١١٧٦ م ، أى إلى ما بعد موت نور الدين دون أن يتحرك الأمبراطور بحركة ما لانقاذ تابعه الإقطاعى ، وهكذا أدت رعونة شاتيون إلى جلب الخطر على نفسه وعلى الإمارة المنكوبة به ، إذ أوقع فى يد الوصية لا سيما

---

(١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٨ .

(٢) Gregoire le pretre, Doc. Arm, t. 1. p.191 - 192.

وأن ابنها بوهميند الثالث لم يزل غلاما حدثا، لا يستطيع أن يأخذ مقاليد الأمور فى يديه، أو يدبر شئون الإمارة كما ينبغى. وعند ذلك خشى بلدوين الثالث أن يقدُم نور الدين على ضرب إمارة أنطاكية والاستيلاء عليها بعد أن تمكن من أسر أميرها وإذلاله، كما أنه خشى تدخل مانويل فى أمورها بحجة تعيين من يقوم مقام شاتِيُّون، ولذا ذهب بلدوين الثالث إلى أنطاكية وجعل الوصاية فى يدى البطرك إيمرى ليمجوس.

* * *

ويبدو أن تلك الحركة من جانب بلدوين الثالث أنقذت أنطاكية مما كان قد بيَّته نور الدين ضدها بعد أسر رينو، إذ أنه لم يشأ مهاجمتها بعد أن قويت شوكتها ببلدوين الثالث، لأن ذلك الهجوم يثير ضده ثائرة الصليبيين والبيزنطيين معا، فأجّل تلك الخطَّة إلى وقت آخر تتهيأ له فيه الفرصة. والدليل على ذلك أن نور الدين لم يقم بشىء ضد أنطاكية برغم ما أعلنه من أن حربها جهاد بكل مالهذه الكلمة من مدلول فى الاصطلاح الإسلامى حتى توفى بلدوين الثالث وانصرف خليفته أموري الأول نحو مشروع التدخل فى مصر. حين ذاك أخذ نور الدين يتجهز لمهاجمة أنطاكية، وطلب إلى الأمراء المختلفين مساعدته[1]، فخرجت قواتهم المتحالفة تحت رايته، وأغذّوا السير إلى حارم المؤدية إلى أنطاكية سنة ١١٦٤، مغتنما فرصة تغيب الملك أمورى فى حملته الأولى على مصر، مؤملا أن يجد السبيل ميسرة أمامه والصليبيين قليلين، والبلد أضعف من أن يقاوم، والأمير الشاب بوهيمند الثالث أعجز عن دفعه[2].

ومن هنا تختلط حركات نور الدين ضد أنطاكية خاصة والصليبيين عامة بمسألة التسابق على مصر بين الدولتين النورية والصليبية، وليس من الممكن

(١) الكامل، ج ١١، ص ٩٣، وأتابكة الموصل، ص ٢٢٠ وما بعدها.

(٢) Rey: Les Princes d' Antioche, P. 374 et seq.

فهم أعمال نور الدين ضد الصليبيين من سنة ١١٦٤ حتى وفاته إلا على اعتبار أنها جزء من تلك المسابقة . على أنه لا بأس هنا من تتبع الحركات النورية بالشام فى شىء من الاستقلال ، لأنها تشرح ناحية مما قام به نور الدين ضد الصليبيين بقية عهده ، ومن المحتمل جداً أنه كان يقوم بها سواء جدت مسألة التسابق على مصر أم لم تجد . وهذا مع العلم بأن جزءاً على الأقل من تلك الحركات النورية بمصر من مـد وجزر . وكيفما كان الأمر فلم يكد خبر الزحف النورى صوب حارم يذيع بين الصليبيين حتى جزعوا على أنطاكية ، ورأوا أن نجاح صاحب دمشق معناه القضاء عليها ، لا سيما بعد أن فرغ من جميع ما يشغل باله داخليا ، فلا عجب إذا اجتمعوا على مختلف طبقاتهم وأجمعوا أمرهم على دفعه ، حتى إن أهل الصوامع والأديرة لم يتأخروا عن المساهمة فى ضده ، ولما كانت أنطاكية — حسب اتفاقية المصيصة ١١٥٩م — قد اعترفت صراحة بتبعيتها للإمبراطورية البيزنطية ، فقد أدرك قسطنطين كولمان — حاكم قيلقيا البيزنطى — مقدار الخطر الذى يهدد أملاك مولاه إذا قدر النجاح لنور الدين فى مشروعه ، فجمع فريقاً كبيراً من الأرمن ، وسار بهم إلى حارم ، فلما سمع نور الدين بسيره ، انكفأ عنها إلى أرتاح .

غير أن نور الدين لم يتقهقر إلا تدبيراً وخدعة ، وقد جازت حركته على بوهيمند الثالث أمير أنطاكية ، وظن أن الموقف يتطلب منه السير وراء نور الدين لكى يلحق به الهزيمة ، لأنه لم يسبق له الاحتكاك الجدى بالمسلمين فى أساليبهم الحربية ، فأشار عليه بعض من حوله — ممن تمرسوا بتلك الأساليب — ألا يقدم على السير وراء المسلمين ، فلم يعبأ بأقوالهم ، وعدها جبنا منه إن هو أحجم ، بل سار مجدا فى إثرهم ، وإذا بهم على حين غفلة منه — وقد بعد ما بينه وبين مركزه — قد استداروا وهاجموه عند « عم » شمال شرقى حارم[١] وأحدق نور الدين بالقوات الصليبية ، وأسر كثيرا

---

(١) ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٤٠ .

من مقدميهم وفيهم بوهيمند الثالث نفسه وريموند الثالث أمير طرابلس، وعامل بيزنطية على أرمينية[1] فلم تلبث « حارم » أن سقطت فى يده يوم ١٢ أغسطس ١١٦٤ ، وأصبح الطريق إلى أنطاكية نفسها مفتوحا ، وليس أمام نور الدين من يتعقبه أو يسد مسالكه ، كل ذلك وأمورى الأول ملك بيت المقدس غائب فى حملته على مصر .

أصبح من المنتظر بعد ذلك أن يسير نور الدين شطر أنطاكية بعد أن فقدت كل نصير ، والظاهر أنه أخذ فى التلكؤ ، فارتاب من حوله فى الأمر ، وسألوه أن يبادر إلى اقتحامها وامتلاكها ، حتى يزيل عنها ما بقى بها للصليبيين من قوة ، ولكنه امتنع ، فألحوا عليه ، فأجابهم بقوله : « أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة فمنيعة ، وربما سلموها إلى ملك الروم ، ومجاورة بيمند أحب إلىَّ من مجاورة صاحب قسطنطينية[2] » . ولم يكن نور الدين فى الواقع مسرفا فى ذلك الخوف ولا شديد التشاؤم ، بل كان يقدِّر لرجله قبل الخطو موضعها حتى يأمن الزلل ، ثم إنه لم يكن يرغب أن يثير فى وجهه قوة الإمبراطورية البيزنطية حتى لا يصاب بخطر قد لا يعادل ما يصيبه من النجاح ، أضف إلى هذا علمه بسهولة مجاورة الصليبيين ، فجوارهم أهون عليه من مجاورة مانويل ، مما يكشف عن ضعف الصليبيين فى بلاد الشام . لكل هذه الظروف مجتمعة سلمت أنطاكية من الوقوع فى يدى نور الدين ، ولعل تبعيتها لبيزنطة هى أولى تلك الظروف .

وكان نور الدين يدرك أيضا أن احتلاله لأنطاكية لا بد وأن يدفع بالإمبراطورية البيزنطية للنهوض لنجدتها ، ولإثبات سلطانها عليها ، كما أنه سرعان ما يدفع أمورى للعودة من مصر ، فتلتقى القوتان المسيحيتان وتحصرانه من الشمال ومن الجنوب ، وبذلك يسعى لحتفه بظلفه ، وقد برهنت الحوادث

---

(١) أتابكة الموصل، ص ٢٢٢ — ٢٢٣ ، والكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، G.T. p. 896 — 897; Dussaud ; Topographie de la Syrie, p. 231 — 232. Dict. des Groisades, arte "Tripolie"

(٢) الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٦ ، الأتابكة ، ص ٢٢٤ .

فيما بعد على بعد نظره وصدق آرائه ، وأنه كان لا يصدر فى أحكامه إلا عن روية وتدبر ، وإلا عما يحفظ عليه مكانته ، ويبعد عنه شر الأحداث والفتن وأخطار المحالفات الصليبية ضده ، فقد عاد أمورى من مصر فى نوفمبر ١١٦٤، وضم قوات كونت فلاندرز أخى زوجته ، وسارا قاصدين أنطاكية ، [١] وأخذت الرسل تتردد بينه وبين نور الدين فى شأن الأسرى ، وتم الاتفاق بينهما على إطلاق سراح بوهيمند الثالث ، لأنه من الأهون على نفس ملك دمشق أن يرى بوهيمند على عرش أنطاكية ، من أن يجاوره أمورى فى قيامه بالوصاية ، إن ظل أميرها الشرعى فى أسره .

لم يخف على أحد مقدار العامل البيزنطى فى تلك الناحية [٢] إذ المتأمل للنصوص المختلفة المتعلقة بتلك المسألة يدرك أن تحرك القوات الصليبية كان تحت تأثير دفع الإمبراطورية البيزنطية ، بل الظاهر أن بوهيمند نفسه كان ينسب تحريره من الأسر إلى نفوذ الإمبراطور أكثر من نسبته إلى أى عامل آخر ، فما كاد يطلق سراحه حتى زار فى سنة ١١٦٥ القسطنطينية شاكرا للإمبراطور يده عليه ، مؤملا أن يمده ببقية الدية التى تعهد بدفعها لنور الدين .

ثم انعقدت الوصلة بين بوهيمند وبين تيودورا ابنة أخى الإمبراطور ، ورضى أمير أنطاكية أن ينفذ ما اشترطه من قبل رينو دى شاتيون على نفسه ، وأضحت مصالح أنطاكية مرتبطة أشد الارتباط بمصالح الدولة البيزنطية ، [٣] وتتلخص فى سوق الزعامة الدينية بأنطاكية إلى بطرك أرثوذكسى هو أثناس الثانى الرومى الملكانى ، مما حمل الكهنوت الكاثوليكى على التعصب ضد بوهيمند ذاته ، كما أن إيمرى دى ليمجوس ارتد إلى حصن القصير تاركا أنطاكية .

وهنا دلت سياسة نور الدين على أنه مدرك خير إدراك لعواقب الأمور

---

(١) G.T., p. 900.

(٢) G.T., . p. 901.

(٣) G. T., p, 901 ; Michel le Syr. t. III, p. 335, 336 — Rey : Colonies Françaises, p. 337 ; Rey ; Dignitaires de la principaute d'Antioehe, p. 136 — 137., Dussaud : op. cit. p. 429 ; Van Berchem: Voyage en Syrie, p. 246.

ولنا أن نُقدر مقدار الخسائر التي كان لابد وأن يمنى بها لو أنه أطاع من أغروه بالوثوب على أنطاكية واحتلالها بعد أسر صاحبها، ثم حكمته في إطلاق سراحه عاجلا في الوقت الذي أبقى فيه رينو دى شاتيون — عدو الإمبراطور البيزنطى — رهن القيد، مما يدل على مراعاته لخاطر الدولة البيزنطية حتى لا تكون يداً ضده، ولو فعل ما أشار به عليه من حوله لأدى ذلك إلى تكوين جبهة مسيحية ضده، قوامها الجماعات الصليبية والبيزنطية على السواء.

٭ ٭ ٭

أما النضال الذى شب بين نور الدين ومملكة بيت المقدس فقد تداخل فى نزاعه مع بقية الإمارات اللاتينية الأخرى، وسبب ذلك أنه لم يكن يفكر مطلقا فى أن يضرب بيت المقدس ضربة تهوى بها، لأنه بذلك يؤلب دول أوربة قاطبة، ويفتح مجالا جديدا لمغامرين جُدد، يريدون أن يجدوا ذريعة للقدوم إلى الشرق الإسلامى والاستقرار فيه، كذلك كانت مملكة بيت المقدس قد احتلت الصدارة بين الإمارات اللاتينية فى الشام إبان القرن الثانى عشر، واستطاعت بفضل شخصية ملوكها المتتابعين أن تكون لها السيادة الفعلية، فكانت ملاذ كل أمير صليبى حزبه أمر أو اعترضته مشكلة داخلية أو خارجية، لذلك فتاريخها فى تلك الحقبة شديد التداخل فى تاريخ الإمارات الأخرى، بل إنه ليصعب الفصل بين تاريخها وبين تاريخ الولايات الصليبية الأخرى إلا فى شىء من التعسف لا يستقيم ومنطق الحوادث، حتى إن وليم الصورى نفسه — الذى جعل حولياته تدور حول تلك المملكة — لم يستطع ذلك الفصل، لأنه بذلك الوضع يبتر جزءاً حيوياً من تاريخها، والعلة فى هذا أنه كانت لملوكها سياسة تقليدية أملاها عليهم وضعهم السياسى والاجتماعى ومكانة البلد الدينية، ولم يخف ذلك على نور الدين، فلم يحاول الاحتكاك الجدى مع هذه المملكة، حتى لا يثير ثائرة فرنجة الشام أجمعين، وفى الوقت ذاته قد

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٤٠ — ٣٤١ ، الروضتين ص ، ٨٦.

يبعث أوربة — وربما الإمبراطورية البيزنطية أيضا — لإشهار حرب عليه، وحينذاك لا يستطيع لها دفعا أو منها تخلصا .

ولعل أهم ضروب الصراع التي كانت بين نور الدين ومملكة بيت المقدس — وهو ما يكشف لنا عن تعادل قوى الفريقين — ذلك الصراع الذى طال أمده حول حصن بانياس[١] سنة ١١٥٧ ، وقت أن كان فى يد الهنفرى الثانى أصدق الناس لبلدوين الثالث .

لما رأى الهنفرى تطلع نور الدين لامتلاك البلد والحصن استعان بفئة من الاسبتارية الذين قاسموه نصف دخل البلد لقاء مساعدتهم إياه وذلك باشارة من بلدوين نفسه[٢] ، وكان الحصن مركزا من مراكز الدفاع والهجوم القوية ، حصين الموقع ، عزيزا على من يرومه[٣] .

أقام الصليبيون فى قلعة «الصبيبة»[٤] وتوالت الإمدادات عليهم بالذخائر والمؤن ، وقدم منهم قرابة سبعمائة من أبطال الاسبتارية والسرجندية والداوية سوى الرجالة ، فنهض إليهم الأمير نصرة الدين أمير ميران أخو نور الدين ،[٥] ، وذلك يوم ٢٨ أبريل ١١٥٧ م (= ١٥ ربيع الأول سنة ٥٥٢ هـ) ، وانتصر عليهم وسلبهم معظم ما معهم ، وأسر جماعة منهم قادهم إلى دمشق .

كان نور الدين مقيما إذ ذاك ببعلبك ، وترامت إليه أخبار انتصار جماعته وجماعة أسد الدين شيركوه ، وأدرك أنه لم يبق للدفاع عن بانياس سوى

---

(١) ترجم تسمية الحصن بهذا الاسم الموقوع دير اسمه Panium على مقربة منه ، راجع Dussaud : Op. Cit. P. 391.

(٢) G.T., p. 837.

(٣) Rey . Les Colonies Françaises, p 473.

(٤) فيما يتعلق بالدور الذى لعبته هذه القلعة فى تاريخ الحروب الصليبية ، راجع G. Demombynes : la Syrie, p. 179, note 5.

(٥) ابن القلانسى ص ٣٣٨ — ٣٣٩ . Gibb : Damascus Chronicle, p330, et note 1. وأبو شامة ، كتاب الروضتين ص ٨٥ — ٨٦ وأتابكة الموصل لابن الأثير ص ٣٢٤ ، G.T.,p.838

الهنفرى، فقرر قصد بلدوين رغم علمه بقوته ومنعة حصنه، وتشبثه به واستبساله فى الدفاع عنه، وعد هذا القصد جهادا يثاب عليه من يشترك فيه، ورأى إلى جانب هذا أن يخرج إليه بما يتكافأ وما سيلقاه من المقاومة، فجهز الجيش، ونودى فى البلد « فى الغزاة والمجاهدين والأحداث والمتطوعة من فتيان البلد والغرباء بالتأهب والاستعداد لمجاهدة الإفرنج[١] » وتقدمت سرية أسدالدين شيركوه، فظنها الصليبيون فى العدد القليل، فباغتوها سنة ١١٥٧م لكن السرية تمكنت من التغلب على من خرج إليها فى « هونين »، ووصلت البشائر بذلك إلى نور الدين، وتلى ذلك افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهراً، وبذلك أصبح الهنفرى وابنه سجينين فى الحصن، لا يملكان الاتصال بالعالم الخارجى، وأحيط بهم من كل جانب، واشتدت مضايقة نور الدين للحصن، حتى خشى من فيه عليه[٣].

لما علم بلدوين بذلك رأى نجدة الهنفرى حقا واجبا عليه، ووصل إلى المكان على حين غفلة من المسلمين، فاضطر نور الدين للابتعاد عن طريقه، وبذلك تمكن ملك بيت المقدس من إنقاذ من فى حصن بانياس من جماعات الصليبيين، ودخل مدينة بانياس ذاتها، فوجدها أطلالا خربة متهدمة، فعز ذلك الإنقاذ على نور الدين، ولا شك أنه قدر الخسارة التى منى بها من جراء امتناعه عن إعطاء الأمان الذى طلبه منه الهنفرى، فأباه عليه[٣].

عاد بلدوين الثالث إلى بيت المقدس بعد أن ظن أن الأمور قد استتبت وعادت المياه إلى مجاريها، وانفصل عنه فى الطريق كثير من الأشراف الذين رأوا أن مهمتهم قد انتهت، فلما علم نور الدين بذلك رأى الفرصة سانحة لمباغتة بلدوين والشرذمة الضئيلين الذين معه، وعلم أنهم قد

---

(١) ابن القلانسى، شرحه، ص ٣٤١ Rey : Lee Familles d'outre-mer, p. 471.

(٢) الذهبى، تاريخ الإسلام، ص ٢٣٣ — ٢٣٦.

(٣) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٤١، ولم يشر وليم الصورى إلى طلب أصحاب بانياس الأمان، وانظر أيضا Rey: Les Familles d' outre-mer, p. 471

نزلوا على « الملاحة » بين طبرية وبانياس ، وتقاتل الفريقان ، وترجل نور الدين وانعقد النصر له(١) . ويذكر وليم الصورى أسماء جماعة من فرسان الصليبيين الذين وقعوا أسرى فى يد صاحب دمشق ، منهم برتراند كبير فرسان المعبد ، وأخذوهم إلى دمشق ، وكان هذا بلا شك نصراً عظيما للمسلمين ، حتى ليصف ابن القلانسى أسر هذا الرعيل الكريم من وجوه الصليبيين فيقول « أما المقدمون منهم ، وولاة المعاقل والأعمال فكل واحد منهم على فرس وعليه الزردية والخوذة وفى يده راية ، والرجالة من السرجندية والدركيولية كل ثلاثة أو أربعة أو أكثر أو أقل فى حبل ، وخرج من أهل البلد الخلق الذى لا يحصى لهم عدد من الشيوخ والشبان والنسوان والصبيان(٢) .

ومع ذلك فقد تمكن بلدوين الثالث من النجاة فى جماعة لا تتجاوز أصابع اليدين ، وهرب إلى قلعة صفد واحتمى بها بضعة أيام ، لا يعلم أحد خبره ، حتى ليقول أحد المؤرخين المعاصرين(٣) «إن ملكهم — لعنهم الله — قيل فى الهاربين. وقيل إنه فى جملة القتلى ، ولم يعرف له خبر » وهذه العبارة هامة من ناحيتين . الأولى أنها تبين جهل المسلمين بمصير بلدوين، والثانية دلالتها الصريحة على أن ابن القلانسى كتبها فى يوم مباشرة القتال ، ويشير

---

(١) G.T., p. 841.

(٢) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤١ ، والروضتين ، ص ٩٠ ، Gibb : Damascus Ghronicle, p. 327. G.T.p. 842 — 843. ومما قيل فى وصف هذا اليوم :

مثل يوم الفرنج حين علتهم … ذلة الأسر والبلا والشقاء
وبراياتهم على العيس زفوا … بين ذل وحسرة وعناء
بعد عز لهم وهيبة ذكر … فى مصاف الحروب والهيجاء
هكذا هكذا هلاك الأعادى … عند شن الإغارة الشعواء

أنظر حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٠٠ .

(٣) ابن القلانسى : الذيل ، ص ٣٤٣ وفى G. T. p. 842 — 843

الكاتب الصليبي وليم الصوري — هو الآخر — إلى ماترامى من الإرجاف فى بلاد الصليبيين كعكا وبيت المقدس من الأخبار الباعثة على الخوف على مصير الملك ، والظاهر أن إقامته فى صفد ثلاثة أيام ، وانقطاع كل خبر عنه ، كان من أكبر الدواعى إلى ذلك الإرجاف ، وإلى ما رآه ابن القلانسى من أنه عد الملك الصليبي بين القتلى .

وقد استطاع بلدوين — حين عجز التركمان عن قص أثره — النجاة إلى عكا ، وفرح من بها فرحاً شديداً للاطمئنان عليه ، ولم يحاول وليم الصورى إخفاء هذا السرور ، مما يفصح عن الخطر العظيم الذى توقعه الصليبيون من جراء تلك الحملة ، فنجاة بلدوين الثالث من الأسر أو القتل نجاة صادقة للإمارات اللاتينية ذاتها ، إذ هو الأمير الذى انعقدت عليه آمالهم جميعا بعد تلك الضربات التى نزلت على بقيـــة الأمراء الفرنجة وتخاذلهم على شتى الصور .

رأى نور الدين معاودة الكرة فى مهاجمة بانياس ،علَّه يستخلصه هذه المرة ، لا سيما وقد اطمأن باله من حيث قلة المدافعين عنـه ، وظن أن بلدوين لن يقدم على إنجاده ، بعد أن كانت نجاته إحدى الأعاجيب .

كان نور الدين مخطئا فيما ذهب ، إليه ، فلم يعد الدفاع عن بانياس دفاعا عن أحد الحصون القوية فحسب ، لـكنـه أصبح مسألة كرامة شخصية تهم جميع الأمراء ، كما تهم على الخصوص ملك بيت المقدس،الذى دعى رينودى شاتيون ورايموند الثالث كونت طرابلس فخرجوا بعساكرهم فاضطر نور الدين لرفع الحصار عن بانياس (١) .

كان خروج الصليبيين أيضا للاتصال بتيير الإلزاسى كونت فلاندر الذى قدم للحج وأرسى فى بيروت ، وطمع بلدوين أن يتمكن من التغلب على نور

---

(١) دقائق الصراع حول بانياس مذكورة بالتفصيل فى حوليات المؤرخ الصليبي وليم الصورى G.T.,p. 844 ، وإن سكت عنها ابن القلانسى ومن أخذ عنه .

الدين من جراء توالى الزلازل ببلاد الشام ، وهدم كثير من المدن الشامية برمتها (١) ، وافترص الصليبيون هذه الفرصة فأغاروا على حصن (٢) الروج Chastel Rugil ، وعملت الظروف على معاونة الصليبيين بقيام الشيعة فى حلب باغتنام فرصة مرض نور الدين،وطلبوا من اخيه نصرة الدين إعادة رسمهم فى الأذان « حى على خير العمل، محمد وعلى ، خير البشر » واضطربت الأحوال فى البيئة الاسلامية .

رأى بلدوين الثالث اغتنام الفرصـــة من الاضطراب لتحقيق هدفه وهو القضاء أو الحد من قوة نور الدين الآخذة فى الازدياد يوما بعد يوم، فخرج بجموعه سنة ٥٥٢هـ(١١٥٧م) قاصداً حصن شيزر ، وغرضه من ذلك قطع الطريق بين حلب ودمشق ، نظراً لوقوعها بين أفامية وحماة ، وكانت فى يد بنى منقذ (٣) ، كما طمع الصليبيون أن يجدوا عونا لهم من فئة الاسماعيلية الذين كانوا متمكنين من بعض نواحيها ، وكانوا شديدى الكراهية لسياسة نور الدين السنية ، غير أن ظنّهم خاب . فعلى الرغم من تمكن بعض الصليبيين من بعض نواحيهـا وإعمالهم القتل والأسر والنهب ، إلا أن الاسماعيلية دافعوا بشـدة (٤) . ولعل وليم الصورى — أهم مؤرخ صليبى لتلك الحملة

---

(١) راجع خبر هذه الزلازل بالتفصيل فى ابن القلانسى ، شرحه ، ص٣٤٢—٣٤٧، وكذلك الأعتبار لإسامة بن منقذ ، وكتاب الروضتين لأبى شامة، ج ١ ص ١٠٦ من الطبعة المصرية ، ابن الجوزى : شذور العقود فى تاريخ العهود ، (تصوير شمسى بدار الكتب) ،ص١٧٠.

(٢) Van Berchem : Voyage en Syrie, p. 135 وراجع الدائرة مادة Hisen — al—akrad وهذه القلعة الهامة تتسلط على طريقين رئيسيين أحدهما قادم من الشرق عبر طرابلس والآخر من حماة ، أضف إلى هذا أن حصن الكرك الذى تجمعت فيه القوات الصليبية وهو المواجه لحمص يهدد المواصلات عبر الأراضى الإسلامية؛ أنظر ابن القلانسى ، ص ٣٤٨ — ٣٤٩ وأبو شامة ص ٩٤ — ٩٥ Gibb: Damascus Chronicle, p. 340 — 341 ; Dussaud Topographie de la Syrie, p. 91 — 92, 158,176 G; G.T.,p.847— 848 Rey ; Le Colonies Françaises, p. 350—363.

(٣) ابن الأثير : أتابكة الموصل ، ص ٢٠٠ والدائرة مادة شيزر Derenbourg : La vie d'Ousama, II, p. 276 — 281.

(٤) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٤٩، G.T., p. 849 — 850; Van Berchem : Voyage en Syrie, p. 188.

يفصح لنا عن الاتفاقات التى جرت بين زعماء الحملة الصليبية بشأن شيزر ، ذلك أن بلدوين الثالث أراد أن يجعل شيزر من نصيب زوج أخته تيير الإلزاسى، غير أن حمق رينو دى شاتيون وسفاهته وعدم احترامه للقواعد الملوكية أفسدت خطة الملك.فقد طلب رينو من تيير أن يقسم له يمين الولاء ، وهو أمر تأباه نفس الكونت كل الاباء وصرح بذلك ، فاغتاظ أمير أنطاكية ،وعد نفسه أرفع مكانة من مكانة كونت فلاندر ، وخيل إليه أن الناس قد نسوا ماضيه — إن كان له ماض ما — فما هو إلا أفاق مغامر ، وربما كان يكون له شيء من الاعتداد لو تقدم به الزمن نصف قرن فجاء مع مع الحملة الصليبية الأولى .

ولكنها العنجهية صورت له ما أوجب معه التشدد فى مطلبه ، مما كان فى صالح نور الدين ، فدبت الشحناء بين أشراف الحملة وقوادها على تلك المسألة الخطيرة السابقة لأوانها ، وبذلك أتيح من الزمن فرصة للسلطان المسلم ،استطاع خلالها أن ينقه من مرضه ، وأن يعود لتدبير أمور الحرب ودفع الصليبيين .

عهد نور الدين إلى أحد قواده بالنهوض إلى شيزر واحتلالها ، فحقق القائد رغبة مولاه الذى زارها بعد ذلك وجدد تحصيناتها ، وولى عليها أخاه فى الرضاعة مجد الدين أبا بكر بن الداية ، وكان فشل الصليبيين أمام شيزر أكبر ما استفاده نور الدين ، إذ ضم الإمارة الاسلامية الباقية بالشام إلى ملكه ، بعد أن أعيى ذلك عماد الدين بحد السيف[1].

أراد الصليبيون الاستعاضة عن ردهم عن شيزر باستلاب حصن حارم من يد عدوهم نور الدين ، وأخذوا فى مضايقة الحامية المقيمة به وملكوه

---

(١) يورد ابن الأثير فى الكامل، ج١١ ص ٩٨، ٩٩ قصة امتلاك نور الدين لشيزر، وفيها يشير إلى أن نور الدين بلغه أن القائمين عليها يراسلون الصليبيين ، فأثار ذلك العمل حنقه عليهم ولكنه كظم غيظه حتى تمهدت له الأسباب ،من جراء الزلازل التى حربت كثيراً من أرباضها.

بالسيف[١]،وكان امتلاكهم الحصن دافعا إياهم إلى شن الغارات على الأعمال الشامية،إذ أصبح لهم — بامتلاكهم حارم — حق التسلط على الإقليم الواقع شرقى نهر العاصى .

اضطر بلدوين أن يعود على جناح السرعة إلى بيت المقدس ، نظراً لموت البطرك فوشيه ، وخاف من تدخل أمه الملكة ، وما كاد يفرغ من اختيار البطرك الجديد حتى عاد لمضايقة نور الدين فى أملاكه ، مغتنما فرصة معاودة المرض لنور الدين [٢] ، وأخذ فى تجهيز سرية أغار بها على «داريا» وإقليم «بلان»[٣]، وشرع الصليبيون فى النهب والسلب والأسر .

ما لبث نور الدين أن خرج بنفسه — بعد معافاته — إلى ناحية جسر الخشب فلقيه أسد الدين شيركوه قافلا منغزوته لصيدا .

التقى الملك العادل وهو فى عسكره ومعداته ،بقائده أسد الدين ، وعوّلا على التوغل فى أرض الصليبيين ، وفعلا وطأها نور الدين [٤] ، فنهض إليه بلدوين وتيير الإلزاسى ، ورأى عاهلا المسيحية والاسلام فى الشام أن الخير لها فى الموادعة ، فلا يطأ أحدهما أرض الآخر ، وتمت بذلك الموادعة .

---

(١) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق،ص ٣٥٠، Gibb: Damascus Chronicle, p.344 حيث يشير الى أن هذا الامتلاك وقع فى أوائل المحرم ٥٥٣ هـ أما ابن الأثير، الكامل، ج ١١ ص ١٢٧ — ١٢٨ فيجعلها تحت سنة ٥٥٨ هـ ، وهو خطأ واضح يدحضه تطور الحوادث وعودة بلدوين وزوج أخته إلى بيت المقدس للاشتراك فى انتخاب البطرك الكاثوليكى الجديد . أنظر الأتابكة، ص١٩٤ ، G.T., p. 852—854

(٢) ابن القلانسى ، شرحه ، ص٣٥١ .

(٣) تحديد هذا المكان وارد بالاسم فى Gibb : op. cit;p.345, note 1 أما ابن القلانسى فلم يسمه بغير « الإقليم »

(٤) ابن القلانسى ، شرحه ص٣٥٢، أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٩٩ — ١٠٠ Dussaud : Topographie Historique, p. 82. حيث يذكر اسم المكان الذى التقوا عنده وهو « البطحاء » .

من هذا نرى أن نور الدين كان فى جهاد دائم ضد الصليبيين ، القصد منه استنزالهم من معاقلهم التى على حدوده ، أو إضعاف قوتهم، حتى لا يكونوا خطراً يهدد أطرافه ، ولكنه لم يَسْعَ للقضاء التام عليهم ، خوفا من أن يؤلب ذلك أوربة والإمبراطورية البيزنطية عليه . أما علاقاته بالدولة البيزنطية فلم يحاول الالتحام الجدى بها ، سياسةً منه ، حتى يأمن خطرها على حدوده الشمالية .

الفصل الرابع

التنازع على مصر

بين السلطان نور الدين والملك أمورى

النزاع بين شاور وضرغام . المحاولات الصليبية لفتح مصر . حملة أمورى ١١٦٣ . استنجاد شاور بنور الدين وضرغام بأمورى . رجوع شاور فى شروطه وتحالفه مع أمورى . حملة أمورى الثانية ١١٦٤ . الحملة النورية ١١٦٧ . حملة أمورى ١١٦٧ . وفشلها . الاتفاق بين رسل اموری وبین العاضد . وقعة البابين ١١٦٧ تنازع الجانبين على الإسكندرية . تسليم شاور بمطالب أمورى . صليبيو مصر يحرضون أمورى على فتحها . زواج أمورى ببنت أخى مانويل كومنين . التفكير فى حملة بيزنطية صليبية على مصر . انفراد أمورى بالزحف . تخوف شاور من حملة أمورى ١١٦٨ . وقعة بلبيس . حرق الفسطاط حملة شيركوه واحتلالها مصر . مكيدة شاور ضد شيركوه . مقتل شاور . استوزار شيركوه للعاضد . موت شيركوه وتولى صلاح الدين . استعانة أمورى بالإمبراطورية البيزنطية . حصار دمياط ١١٦٩ . اضطراب أمور الصليبيين . أمورى يحاول إثارة المصريين ضد البيزنطيين . الهدنة مع المصريين . إغارة صلاح الدين بأمر نور الدين على أملاك الصليبيين . العودة للاستعانة بالإمبراطورية البيزنطية رحلة أمورى إلى بيزنطة . الخاتمة .

تحوّل النضال بين نور الدين والصليبيين من بعد سنة ١١٦١م (١) إلى تنافس على مصر لأسباب معظمها خارج عن إرادة الطرفين، ذلك أن الدولة الفاطمية بدت فى أواسط القرن الثانى عشر فى دور الاحتضار (٢) . ومن

---

(١) ذلك أنه فى هذه السنة اغتنم بلدوين الثالث — كما يقرر اثنان من كبار مؤرخى الصليبيين — فرصة دور الضعف الذى تمر به الخلافة الفاطمية «واستطاع أن ينال وعداً» قطعت به مصر على نفسها قطيعة قدرها مائة وستون ألف دينار ، راجع .:Michel Le Syrien Ghroniques, t. III, p 317 ; G.T.p. 890 — 892

(٢) كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ، ص ٢٠ — ٢١ ، ٢٤ — ٢٦ : ٩٣ ، حافل=

علامات الاحتضار أن وزراءها أصبحوا من دون الخلفاء الفاطميين أصحاب السلطة الحقيقية ، بل أولياء الكلمة العليا النافذة فى اختيار الخلفاء ، ومن أولئك شاور الذى صارت إليه الوزارة على غرار ما صارت إلى أسلافه من وزراء الدولة الفاطمية فى عهدها الأخير ، وكان الخليفة وقتذاك العاضد ، وعمره لا يتجاوز التاسعة ، فطمع شاور فى الاستبداد بالحكم وبالخليفة معا ، ولذلك خرج عليه القائد ضرغام بن عامر والى الصعيد ، معتمداً على بعض أهل القاهرة للوزير المستبد ، وتمكن بمعاونتهم من التغلب عليه ، وحمله على مشاركته فى الحكم بالبلاد . إلا أن ضرغاما سرعان ما استبد بالأمر هو الآخر ، وسار سيرة حمقاء ، فكانت مصر تسير كل يوم من سيىء إلى أسوأ ، وقد جهل أولئك المغامرون مقدار الخطر الذى تعرضت له مصر والدولة الفاطمية بسبب تلك الفتن والقلاقل ، مما أطمع فيها كلا من أمورى ونور الدين .

لم يكن أمورى جديد الاتصال بمصر ، فقد تولى زمن أخيه بلدوين الثالث حكم عسقلان، واتجهت همته منذ ذلك الحين إلى التوسع فى الجنوب ، فلما آلت إليه مملكة بيت المقدس سنة ١١٦٢ ، وحمل اللواء بعد بلدوين الثالث رأى تحقيق سياسته بفتح مصر . على أن أمورى لم يكن فى تفكيره فى الحملة على مصر بالناهج نهجاً جديداً ، بل كان يسير وفق خطة صليبية قديمة[١] ، من دلائلها دأب الصليبيين على فتح البلاد الجنوبية ، التى كان آخرها

= بالصور القلمية العجيبة عن مدى التدهور الاجتماعى والخلق الذى نكبت به الدولة الفاطمية فى ختام أيامها ؛ وقد ساهم أسامة نفسه فى كثير من حوادث تلك الحقبة ، أنظر أيضا الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٦٣ ، ٨٣ ، والنجوم الزاهرة، ج ٥ ، ص ٣٦٤ : Derenbourg La Vie d'Ousama, t. II, P. 241 — 245 ; G. T., P. 833

(١) لعل أول محاولة صليبية لاحتلال مصر هى التى قام بها بلدوين الأول ، وقد مهد لذلك باحتلال أرسوف ، وكانت تابعة لمصر، بمساعدة جماعة من الجنويين البحريين سنة ١١١٠ م (٤٩٤ هـ) راجع Heyd : Hist. du Commerce, t. I, P. 136. p. كما قضى على صور ، فلما =

عسقلان . وقد أعد أمورى العدة لغزو مصر سنة ١١٦٣ م ، متذرعا بأن الدولة الفاطمية قد منعت عن مملكة بيت المقدس جزية كانت قد قطعتها على نفسها لبلدوين الثالث منذ سنة ١١٦١ ، وقدرها مائة وستون ألف دينار صورية (١) . مع أنه ليس يوجد بالمراجع ما ينبىء بدفع تلك الجزية ، بل إن سكوت الكتاب جميعهم — إلاّ القليل — عن الإشارة اليها مما يؤيد أنها لم تكن سوى مال تعهد به أحد وزراء الدولة الفاطمية للملك بلدوين الثالث لأمر لا يزال غامضاً ، إلا أن أمورى أصر على طلب تلك « الجزية » رغم وفاة بلدوين . وأعلن أن حملته ليست إلا لإرغام مصر على العودة إلى دفعها ، وكان يعلم تمام العلم أن ضعف البلد وتنافس أربابه على السلطة لا يلبث أن يؤدى إلى تحقيق مطالبه كاملة . وكيفما كان الأمر فقد خرج أمورى بجيشه أول سبتمبر ١١٦٣ ، والتقى بالجيش الفاطمى بقيادة ضرغام ، فهزمه عند أطراف مديرية الشرقية الحالية ، ثم تابع سيره إلى بلبيس فحاصرها ، ولم يرتد عنها إلاّ لفيضان النيل (٢) . ثم كتب أمورى إلى لويس السابع ملك فرنسا يذكر له مبلغ تقدم الجيش الصليبى فى مصر ، ويطلب منه النجدة لإتمام فتحها لخدمة المصالح الصليبية (٣) .

= كانت سنة ١١١٦ نهض بلدوين بحملة بلغ بها « أيلة » على البحر الأحمر ، ففر أهلها عنها مذعورين ، وعمل الصليبيون على تحصين جزيرة فرعون المعروفة « بقرية » ، يريدون من وراء ذلك السيطرة على طريق القوافل بين مصر وبلاد الشام . وفى مارس ١١١٨ فاجأ بلدوين الفرما وأصاب منها غنيمة وافرة ، ثم واصل الزحف إلى العريش مفتاح البلاد المصرية . راجع فى ذلك النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ ، والكامل لابن الأثير (طبعة أوربة) ص ٤٣١٤
G.T., p. 499 — 507 ; Albert d'Aix, p. 783 — 705 ; Stevenson : Crusaders in the East, p. 66 ; Chabot, p. 496 ; Lane — Poole : Hisi. of Egypt in the Middle Ages, p. 41.

(١) Schlumberger : Les Compagnes du Roi Amaury en Egypte, P 38, notes 1 et 26 ويظهر من كلام Stevenson : Op. Cit., P. 186 شكه فى وجود تلك الضريبة

(٢) Schlumberger : Op. Cit., P. 48 ; Lane-Pool : Saladin, p. 81.

(٣) Schlumberger . Op. Cit. P. 41 — 42.

لم تنم عين نور الدين عن ذلك كله ، بل إنه انتهز فرصة مغامرة أمورى وأراد إفساد تلك المغامرة ، فأغار على حصن حارم ، وأمورى لا يزال بمصر ، ثم ما لبث أن انكشف عنه صلحا[١] ، ثم عاد فهاجم حصن الأكراد[٢] ، ولم يقبل موادعة الصليبيين، وذلك أنه خشى إن تمت الموادعة أن يرى الصليبيون كل شيء أمامهم ميسرا لفتح مصر ، فآلى أن يجعلهم فى خوف مقيم منه ، فلا يقدمون على مشروعهم الخطير ، وليجعل لمصر — من ناحية أخرى — أملا فى الاستعانة به أن حزبها الأمر . وكان نور الدين هنا يقصد أن ينتفع من انصراف الصليبيين عنه بمصر ، ليكمل هو بعض خطته بالشام .

ثم ما لبثت الأمور أن تعقدت بمصر من جراء النزاع بين الوزير شاور وبين القائد ضرغام ، فهرب شاور إلى دمشق فى أكتوبر سنة ١١٦٣م[٣] (ذو القعدة ٥٥٨ ﻫ) ، وتوسل إلى نور الدين أن ينفذ حملة إلى مصر عساها ترده إلى ما كان فيه ، وطبيعى أن يرحب سلطان دمشق بتلك الفرصة للتدخل فى شئون مصر كمنقذ للإسلام والمسلمين من الخطر الصليبى ، بعد أن وضحت له أغراض أمورى . ولقد تعهد شاور لنور الدين مقابل مساعدته بثلث دخل بيت المال الفاطمى سنويا ، بعد دفع رواتب الجند وأن يكون للوالى نور الدين حقه فى مصر[٤] » ، بل ذهب شاور أبعد من ذلك حين تعهد بأن يحكم البلد وفق أوامر سلطان دمشق ، ولم تكن هذه أول مرة تستصرخ فيها

---

(١) ابن الأثير : الأتابكة ، ص ٢٠٧ ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٢٩ — ١٣٠ ، Van Berchem : Voyage en Syrie, P. 233.

(٢) Chalandon : Comnènes, t. II, p. 525, note 2 ; Rey : Colonies Franques en Syrie, p. 363 ; Stevenson : op. cit. p. 188— 189 ; Huart : Hist. des Arabes, p. 28 والروضتين لأبى شامة ، ج ١ ص ١٣٣ ، ١٦٧ ، ومن الطبعة الأوربية ، ص ١٠٩ ، ١٢٥

(٣) Stevenson : op. cit. p. 186, notes 1 et 2 وفييت فى الدائرة ، مادة "Shawar"

(٤) الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٣ ، وأتابكة الموصل ، ص ٢١٥ — ٢١٦ ، وكتاب الروضتين ، ص ١٠٧ .

مصر بنور الدين ، فقد سبق لها ذلك حين أنفذ ابن السلار الأمير أسامة ابن منقذ فى سفارة إليه[١] .

غير أن نور الدين تظاهر بعدم المبالاة ، وتمهـّل فى قبول الشروط حتى يتدبر الموقف . ولعله فعل ذلك حتى يزن الأمور ، ويرى مقدار قوة خصمه فى مصر ، أما أنه كان عازفا عن التدخل فقول مردود لا يجيزه منطق الحوادث وتتابع الأحداث[٢] ، والعهد غير بعيد بموقف صديقه أسامة فى محاولته التضريب بين الوزير عباس الصنهاجي والخليفة الفاطمى ، ومحاولاته إثارة العباس بكلمات جارحة ينال بها من شرفه ، وإنما كان نور الدين رجلا سياسيا ، لا يحب أن يظهر أمام الملأ بالطامع فى مصر ، الراغب فى امتلاكها ، أو المتطلع لإطاحة الخلافة الشيعية ، ولقد أشار البعض[٣] إلى هذا التردد عند نور الدين من أنه « كان يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، تارة يحمله رعاية قصد شاور وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الإفرنج ، وتارة يمنعه خطر الطريق ، وكون الأفرنج فيه إلا أن يوغلوا فى البر فيتعرضوا لخطر آخر » كذلك يزعم مؤرخوه أنه استخار القرآن واستفتحه فتأهب للفتح ، فأنفذ مع شاور حملة بقيادة أسد الدين شيركوه ، الذى كان يعمل دائما على إغراء مولاه على فتحها ، ولعله هو الآخر كان يرمى لأن تكون مصر من نصيبه ، فيستعمله نور الدين واليا عليها .

أدرك ضرغام ألا قبل له بدفع جيش دمشق الناهض مع عدوه شاور فى إبريل ١١٦٤ ، وأدرك إلى جانب ذلك أن انتصار خصمه معناه زحزحته عما بيده ، وربما أدى ذلك إلى هلكه وهلك من حوله ، والحوطة على أملاكهم ، لذلك كاتب أموري لعلمه بشدة تلهفه هو الآخر لفتح مصر ، ووعده بدفع

---

(١) الدكتور حسن ابراهم : الفاطميون فى مصر ، ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .

(٢) راجع الاعتبار ، ص ١٩ — ٢٠ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ص ١٠٧ .. Stevenson: Crusaders in the East, p. 187.

جزيرة سنوية . فبادر ملك بيت المقدس وأعدَّ جيشا لمساعدة ضرغام[١] ، غير أن نجدته إياه جاءت متأخرة ، إذ كان الجيش النورى قد جاوز الصحراء ، وهزم الجيش الفاطمى بقيادة نصر الدين أخى ضرغام فى تل بسطة قرب الزقازيق الحالية فى مايو سنة ١١٦٤ ، كما حاول ضرغام نفسه الفرار ، فمات مقتولا عند مشهد السيدة نفيسة ، بعد أن حاول إثارة القاهرة إلى مقاومة أخيرة ضد شيركوه ، وبذلك خلا الجو لشاور ، ولم تقم حملة أمورى بشىء ما ، بل عدَّت تلك السنة نقطة انتقال فى التاريخ ، لأنها السنة التى اتخذت فيها أول خطوة لتوحيد مصر وبلاد الشام[٢] .

لكن الجو خلا لشاور ليعاود صراعا جديدا مع نائب سيده الجديد ، إذ أراد الرجوع فى عهده لنور الدين ، وأبى أن يدفع لعسكر دمشق القطيعة المتفق عليها ، وطلب إلى القائد شيركوه العودة إلى الشام ، وهدده بما سيكون من أمره إذا أصر على البقاء ، وذلك بعد أن اطمأن إلى عدم وجود منافس له — كضرغام — قد ينضم إلى شيركوه ضده ، كما حشد المتظاهرين يهتفون له بشوارع القاهرة[٣] . غير أن شيركوه لم يكن من أولئك الذين ينزلون عما يصلون إليه لمجرد التهديد ، بل كان لديه كل ما يغريه بالبقاء فى مصر «حلاوة بيت المال[٤] » على قول أبى شامة ، بل يذهب أبو شامة إلى أبعد من ذلك فيقول إن شيركوه صار فى قلبه الداء الدوى من مصر والدولة الفاطمية ، أى أنه طمع فى احتلالها ، وفى إزالة حكم الفاطميين عنها ، واستخلاصها منهم .

---

(١) G.T., p. 892.

(٢) Stevenson : op. cit. p. 186.

(٣) كان من الهتافات التى نادى بها المتظاهرون قول الشاعر فيه :

ضجر الحديد من الحديد وشاور ... فى نصر آل محمد لم يضجر

حلف الزمان ليأتين بمثله ... حنثت يمينك يا زمان فكفر

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤٤ .

لذلك عسكر شيركوه فى بلبيس وأقام نفسه حاكما للشرقية ، فلما[١] رأى شاور الإصرار من ناحية قائد العسكر النورى ، وأنه لاقبل له بدفعه عما اعتزمه ، لم يجد بدا من أن يطرق بدوره باب أمورى ، واعداً إياه بأكثر مما وعده به ضرغام من قبل[٢] . وعقد أمورى مؤتمرا ببيت المقــــدس جمع وجوه الصليبيين[٣] ، وقرر المؤتمر أن يستجيب ملك بيت المقدس لدعوة شاور لا للمال فحسب ، ولا اثراء مصر الفاحش[٤] ، بل كى لا تقع مصر فريسة فى يدى نور الدين ، فتطبق جيوشه على الإمارات اللاتينية من الشمال والجنوب ، واستولى هذا الخاطر على أمورى ، فلم يعبأ بمسير سلطان دمشق لأطراف مملكته فى تلك السنة « لعلمه أن الخطر فى مقامه إذا ملك أسد الدين مصر[٥] وخرج أمورى بجيش كثيف صوب مصر فى مايو ١١٦٤ ، وانضم إليه فريق من الحجاج الأوربيين القادمين لزيارة بيت المقدس ، فكانت هذه حملة صليبية ، وإن لم تحمل فى تاريخ مثيلاتها رقما عدديا .

غير أن أمورى لم يشأ أن يتنـاول أجره مؤخراً ، فأخذ يتسلم من شاور فى كل مرحلة يقطعها ألف دينار ، فبلغ ما تسلمه سبعة وعشرين ألفا[٦] حين أصبح على مقربة من « فقوس » ، أى فاقوس الحالية بمديرية الشرقية ، وأخذ شيركوه يحصن معسكره فى بلبيس استعداداً لمقـاومة ذلك الخطر الدانى منه يوماً بعد يوم ، وساعده عرب كنانة النازلون فى تلك الناحية[٧]

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ص ١٣٤ ، والأتابكة ، ص ٢١٦ — ٢١٧ ، وراجع ما كتبه فييت فى الدائرة ، مادة "Al — Sharkiya"

(٢) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٣٤ ، G.T., p. 948

(٣) Ibid. loc. cit.

(٤) Heyd : Hist. de Commerce du Levant, t. I, p. 378 — 379.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٣٤ ، وأبو شامة ، ص ١٢٥ .

(٦) كتاب الروضتين ٤ ص ١٢٥ ، وانظر تفاصيــل هذه الحملة وخبر سيرها فى Schlumberger : Les Campagnes du roi Amaury, p. 63 — 80.

(٧) الدائرة ، مادة « كنانة » .

مساعدة كبيرة بالمال والسلاح . أما شاور فقـد مضى لمقابلة حليفه الصليبي لتنسيق الخطط معه ضد شيركوه ، وما لبث شيركوه أن وجد نفسه محوطاً ببلبيس ، غير أنه قاوم مقاومة عنيفة على الرغم من ضعف استعداداته ، وقلة تحصينات بلبيس ، بالنسبة لما كان عليه أعداؤه من قوة المئونة ، وكثرة العدد ، وقوة التحصين . وهنا داخل اليأس نفس أمورى بعد أن امتدت مقاومة شيركوه إلى ثلاثة أشهر (من أغسطس إلى أكتوبر ١١٦٤) ، لا سيما أنه قد ترامى إلى سمعه أيضاً أن نور الدين هاجم بانياس ، وانتصر على قلعتها[١] . وكيفما كان الأمر فقد عزم أمورى على العودة إلى فلسطين ، إلا أن شاوراً التمس منه البقاء ، وكاتب فى الوقت ذاته شيركوه يطلب إليه الصلح ، مما يدل على تقلبه ، فلم يجد أمورى بدأ فى النهـاية من الاتفاق مع شيركوه ، على أن يغادر كل منهما أرض مصر ويتركاها للمصريين ، فغادرها شيركوه ، وتبعه أمورى فى أكتوبر ١١٦٤[٢] .

هنا تبدو ناحيـة تميط اللثام عن الفرقة السائدة فى الرأى بين الخليفـة الفاطمى وبين وزيره شاور ، الذى لاشك أنه قد فرض نفسه على الحيـاة المصرية فرضا ، حتى لقد نظم عمارة اليمنى — شاعر القصر الفاطمى وصاحب المدائح الكثر فى شاور[٣] — شعراً يمدح فيه أسد الدين شيركوه بعـد مغادرته مصر ، واصفا فيـه بطولة الجيش النورى[٤] . وعلى أية حال فمن الممكن أن يعـد خروج الصليبيين والجيش النورى من مصر نصراً لشاور

---

(١) كتاب الروضتين ، ص ١٦٧ .

(٢) Lane — Poole: Saladin, p. 81.

(٣) Derenbourg : Oumara de Yemen, t. II, Part 2, p. 424

(٤) ابن الأثير : الـكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٥ ، وأبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٨ ، ومما قاله فيه :

أخذتم على الأفرنج كل ثنية ... وقلتم لأيدى الخيل مرى على مرى
لئن نصبوا فى البر جسرا فإنكم ... عبرتم ببحر من حديد على الجسر

ولكنه نصر موقوت ، ولو كان هذا الوزير رجلا بعيد النظر لأدرك أن كلا منهما اضطر إلى تلك المغادرة اضطراراً ، ولا عجب إذا أخذ كلاهما يلتمس الأسباب للرجوع إلى مصر . أما نور الدين فقد رأى أن يجعل من حربه على مصر جهاداً دينياً ، فهو بفتحه إياها — كما يزعم — إنما يحارب عدوين للإسلام ، أحدهما الخلافة الفاطمية وثانيهما الصليبيون ، وبذلك ينقذ الإسلام وهذا البلد — كما يدعى — من الفوضى السياسية وغيرها . كما يلاحظ أن الخليفة العباسى بعث إليه من قبل عهداً بالسلطنة ، وأمره بالمسير إلى مصر[1] . ولذا يمم نور الدين وجهه نحو بغداد ، وبعث إلى الخليفة العباسى يطلب منه أن يأذن له بإخراج جنده لقهر جيوش الدولة الفاطمية . ومن العجيب ألا يذكر ابن الأثير — وهو السنى المتعصب لنور الدين — خبر هذه الوفادة إنما يشير فقط إلى وصول جواب الخليفة بالنهوض بالحملة ، ولكنها وردت بالتفصيل عند وليم الصورى[2]، وليس من المستبعد وقوع هذه السفارة[3] ، لاسيما إذا علمنا أنه كان على رأسها أسد الدين شيركوه ، خصوصا وأن ابن الأثير وأبا شامة يشيران إلى حرصه على قصدها وكثرة تحدثه عنها بعد عودته منها . بل إن ابن الأثير نفسه يشير إلى أن نور الدين كان كارها لهذا المسير ، ولم يوافقه على خطته إلا بعد لأى «خوفا من حادث يتجدد عليهم فيضعف الإسلام » ، وإذن فليس من المستبعد أن يكون أسد الدين قد سافر إلى بغداد ،حتى يضع مولاه نور الدين أمام الأمر الواقع، زد على هذا أنه كان يعرف من أين تؤكل الكتف ، فلا عجب أن ينهض نور الدين للحرب إن سميت جهاداً .

لذا خرجت الحملة النورية الثانية على مصر فى مستهل عام ١١٦٧ ، وحاولت

---

(١) أنظر الكامل (طبعة أوربة) ص ٥٥٧ .

(٢) G.T., P. 902 — 903.

(٣) G.T., p. 908 ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٥ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ص ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤٤ .

تجنب عبور بلاد الصليبيين ، فوصلت — وهى فى ألفى فارس بقيادة شيركوه — صحراء التيه ، متحملة شدة العواصف الرملية «التى أرغمت الجند مراراً على إغماض أعينهم وسد أفواههم[١]» . ثم وصل شيركوه مصر ، وتقدم حتى صار على مقربة من العاصمة ، لكنه أحجم عن مهاجمتها ، بل عسكر عند أطفيح جنوبيها ، ومن هناك عبر النيل ، وعسكر فى الجيزة مقابل الفسطاط[٢] .

لم يكد شاور يعلم بخبر الحملة النورية الثانية وزحفها نحو مصر حتى أرسل إلى أمورى يستحثه على القدوم لنجدته ، فما كان من أمورى إلا أن عقد مجلساً فى نابلس[٣] ، حضره أشراف الصليبيين فى الشام ومقدموهم ، وعرض عليهم ما يهدد إماراتهم من الخطر الجسيم إن وقعت مصر فى يدى الجيش النورى ، ولم يكونوا فى حاجة لمن يذكرهم بهذا الخطر الداهم ، فوافقوه على النهوض للحرب[٤] ، لعله يلقى شركوه قبل أن يبلغ الحدود المصرية . وغادر أمورى فلسطين على رأس جيش كبير فى إثر الجيش النورى ، وفى أمله أن يلحقه فى بعض الطريق ، لكن خاب ما أمل ، إذ كان شيركوه قد غادر صحراء التيه ، فاضطر أمورى للعودة إلى بيت المقدس ليتأهب من جديد لحملته الكبرى على مصر . ثم أخذ أمورى يُعد فى عسقلان كل ما تحتاجه الحملة على مصر ، فلما كان يوم ٣٠ يناير سنة ١١٦٧ م ، خرجت الحملة من غزة إلى العريش ، ودخلت أرض مصر وأدركت بلبيس ، فقويت نفس شاور بالصليبيين الذين جاءوه على الصعب والذلول ، غير ناظر إلى ما سيترتب على ذلك القدوم من ثمن غال ، قد يكلفه استقلال مصر ، وهو مالا يهتم به أبداً ، ما دام فى ذلك احتفاظه بكرسى الوزارة ،

---

(١) G.T., p. 910 ، ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٥ .

(٢) ابن الأثير : الأتابكة ، ص ٢٣٦ .

(٣) الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٥ ، G.T., p. 904, Schlumberger : Les Campagnes du roi Amaury p. 104, note 2.

(٤) G.T., p 904 .

وإظهار سيطرته وتحكمه ، وإرضاء شهوة العظمة الجوفاء فى نفسه الفارغة ، وسر شاور بهذه النجدة ، وخرج لاستقبال الصليبيين ، ودلهم على الطريق إلى القاهرة ، حيث عسكروا على شاطىء النيل الأيمن قبالة شيركوه ، وهكذا وقف الطامعان الأجنبيان وجهاً لوجه ، وكل منهما على مرأى البصر من عدوه ، لا يفصلهما سوى الماء .

غير أن كلا من أمورى وشاور كان يشك فى نوايا صاحبه حياله ويخشى أن يغدر به ، فطلب أمورى أن يتعهد شاور بدفع أربعائة ألف دينار ، ثمنا لجيشه لإخراج شيركوه من مصر ، وأصر على أخذ نصف هذا المبلغ مقدما ، فقبل شاور هذا الطلب على شرط ألا يغادر أمورى مصر قبل إتمامه إخراج شيركوه منها . ولتأكيد هذه الاتفاقية أرسل أمورى مندوبين من قبله إلى الخليفة الفاطمى العاضد ، وهما هيج القيصرى وجودفروى فولخر من فرسان الداوية ؛ وقد ذكر هذان المبعوثان لوليم الصورى ما شاهداه من أبهة القصر الخليفى أبهة لا تليق إلا بملوك مصر ، ولا تتوفر إلا فى قصور ملوك مصر العظام ، وما أبصراه بها من مناظر لم ير الغرب لها مثيلا وإنما علم بها سماعا(١) . وأفضى الخليفة بالخطر الذى يهدد مصر إن تمكن الأمر لشيركوه ، وكان يرى أن خليفة بغداد قد بعثته الكراهية الشديدة للخلافة الشيعية المصرية إلى إنفاذ هذه الحملة ، ثم أقسم رجال كلا الفريقين الأيمان المغلظة على تأييد صاحبه ومعاونته (٢) .

لم تكن للخليفة الفاطمى يد فيما تم من الاتفاق ، ولعله كان يئن من وطأة استبداد وزيره شاور وتفرده بالأمر رغم مظاهر الاحترام التى كان يبديها شاور له أمام رسولى أمورى ، إيهاما لهما بأهمية الأمر . وعلى كل حال فقد أدرك شيركوه أن الصليبيين والفاطميين جادون هذه المرة ، وأدرك هو

---

(١) G.T., p. 910 — 913.

(٢) Schlumberger : op. cit. p. 116 — 127.

وكثيرون ممن معه ضعفهم إزاء الحليفين ، والدليل على ذلك أنه جمع زعماء رجاله — وقد خاف أن تهن نفوسهم عن القتال — واستعرض معهم الموقف من جميع نواحيه ، وطلب منهم الرأى ، فأجمع القوم على وجوب المبادرة بالرحيل إلى الشام[١] . غير أنه يبدو أن شيركوه لم يجمع أولئك الزعماء إلا ليحصل منهم على موافقته على القتال ، إذ يظهر أنه دس جماعة بينهم من ذوى المكانة والصوت الجهورى ، سفهت رأى الداعين إلى الرحيل ، « إذ من يخاف القتل والأسر لا يخدم الملوك بل يكون فى بيته مع امرأته » وخوفهم من أن يسترجع نور الدين منهم إقطاعاتهم وجامكياتهم « حتى لا يأخذوا أموال المسلمين ويفرون عن عدوهم » ويعيرهم بتسليمهم مصر إلى الصليبيين[٢] فما لبث القوم أن أجمعوا على وجوب الاستمرار فى القتال ، ثم بعث شيركوه إلى شاور كتابا يعرض عليه أن يكونا يدا واحدة فى مناهضة أمورى والقضاء على الصليبيين[٣] ، فرد شاور ردا حمته الجهل ، وسداه الغلظة والفظاظة ، وأظهر منتهى الفساد فى الرأى ، إذ قتل رسول شيركوه ، وأعلم الصليبيين بما يريده أسد الدين منه[٤] .

أما أمورى فإنه أقام جسرا من المراكب وجذوع النخيل على النيل

---

(١) إبن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٢) إبن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٤٦ .

(٣) أورد أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٢٩ — ١٣٠ ، من طبعة أوربة ، ج ١ ص ١٦٨ من الطبعة المصرية ، نص خطاب شيركوه وفيه يقول له « أنا أحلف لك بالله الذى لا إله إلا هو ، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه ، أننى لا أقيم ببلاد مصر ، ولا أعاود إليها أبداً ، ولا أمكن أحداً من التعرض إليها ، ومن عارضك فيها كنت معك إلبا عليه ، وما أؤمل منك إلا نصر الإسلام فقط ، وهو أن العدو وقد حصل بهذه البلاد والنجدة عنه بعيدة ، وخلاصهُ عسر ، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه . وننتهز فيه الفرصة التى قد أمكنت ، والغنيمة التى قد كتبت ، فنستأصل شأفته ، وتخمد ثائرته ، وما أظن به يعود ، ويتفق للاسلام مثل هذه الغنيمة أبداً » .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٦٨ .

ما بين الجيزة والروضة ، ليعبر عليه هو وجنده إلى حيث شيركوه وفرسانه[١] ، فكان أول جسر يقام بين الجيزة والروضة ، وفهم أسد الدين ما يرمى إليه الصليبيون من عملهم هذا ، فتركهم يقيمون الجسر ، حتى إذا توسطوا النهر أخذ ينضحهم بالنبال والسهام والقسى ، فارتد الصليبيون ، وطال بقاء الفريقين أمام بعضهما مدة شهرين ، نقصت خلالها الأقوات عند جيش شيركوه نقصا ملموسا .

ثم وصل إلى الصليبيين إذ ذاك مدد من بلادهم على رأسه الهنفرى صاحب شقيف تيرون ، وفيليب النابلسى ، فقويت بهما وبمن معهما عزيمة جيش أمورى ، وعند ذلك عقد ملك بيت المقدس مجلساً حربياً ، ألح فيه على المجتمعين بوجوب عبور النيل ، إذ لا معنى لطول بقائهم حيث هم ، في الوقت الذى لا يبعد أن يغتنمه نور الدين للعيث فى أطراف الإمارات اللاتينية [٢] ، فأيد المؤتمرون الفكرة من حيث المبدأ ، ولكنهم اختلفوا من حيث الجهة التى يعبرون النيل عندها . ثم لم يكد الصليبيون يتوسطون النهر ليلا [٣] حتى هبت عاصفة هوجاء أرغمتهم على الالتجاء إلى إحدى الجزر [٤] ، ولعلها جزيرة « الوراق » الواقعة جنوبى كوبرى عباس الحالى . أما شيركوه فما كاد يعلم بتلك الحركة حتى رحل بجنده تحت جنح الظلام من الفسطاط ، صاعداً فى النيل إلى الصعيد ، وكان المدد قد جاءه هو الآخر من عند نور الدين .

ولقد أغذ شيركوه السير بجيشه جنوبا حتى بلغ ملوى ، حيث أدركه

---

(١) G.T., p. 918 — 919.

(٢) Ibid., loc. cit. ، وأبو شامة ، شرحه ، ص ١٣٠ .

(٣) كانت القيادة فى هذا الجمع البحرى لهيج الإبليني وللكامل بن شاور ، ولقد كان المتحالفان يتقاسمان القيادة دائما فى كل شىء ، من ذلك أنهم حينما دخلوا القاهرة بعد رحيل شيركوه عنها إلى الوجه القبلى ، وكانت حراسة أبوابها وأسوارها وحصونها إلى جيراردى بوجى وأحد أبناء شاور ، راجع C. T., p. 920

(٤) Ibid., op. cit. loc. cit.

موری وشاور بفريق كبير من الصليبيين والفاطميين ، وما كان شاور فى الحقيقة إلا كلاًّ على حليفه ملك بيت المقدس. وجرى المصاف بين الفريقين عند «البابين»(١) يوم ١٨ أبريل ١١٦٧م (٢)، وكان القوم فى الصعيد ينظرون إلى أسد الدين بعين الحذر .ومع علم شيركوه باستيحاش المصريين منه ، إلا أنه أصر على مقاتلة الجيوش المتحالفة . فقسم جيشه فى تلك الوقعة إلى ميمنة وميسرة وقلب ، وجعل الأثقال فى القلب وعليه صلاح الدين ابن أخيه ، وأمره أن لا يصدقهم فى القتال ، بل يتظاهر بالانهزام حتى يغتر أموری فيتبعه، وأما أسد الدين فقد اختار جماعة ممن يثق بصدق عزيمتهم وصبرهم فى اللقاء ووقف بهم فى الميمنة ، والتحم الخصمان ، وكر الصليبيون على قلب العسكر النورى ،وصلاح الدين يتقهقر متظاهراً بالهزيمة،حتى قام شيركوه بمهاجمة من تخلف من عسكر الصليبيين وشاور ، وأسر العدو الجم ، ففر الباقون على وجوههم ، فكان هذا من « أعجب ما يؤرخ ، أن ألفى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل »(٣) .

ويذكر وليم الصورى أسباب هزيمة الصليبيين عند البابين ، فيرى أن أموری حمل على قلب الجيش النورى اعتقادا منه بوجود شيركوه فيه ، وإذ ذاك حملت ميمنة شيركوه على ميسرة المتحالفين ،فأصابتهم بما يتفق فى تفاصيله مع الرواية الإسلامية ، وأصابت غنيمة كبيرة لم تجد فى الاستيلاء عليها

---

(١) Derenbourg : op. cit., p. 311, note 6

(٢) التاريخ العربى مختلف فى المراجع العربية ، راجع الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٤٥ ، والأتابكة ، ص ١٣٧ ، الذهبى : تاريخ الإسلام ، ص ٢٣٧ وأنظر أيضا
Schlumberger : op. cit. p. 136, note 3 d'apres Rohricht; G.T., p. 921.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١،ص ١٤٦ ، أتابكة الموصل ، ص ٢٣٨ — ٢٣٩، أبو شامة ، كتاب الروضتين ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥، ص٣٤٩ ، وحاشية رقم ١ فى نفس الصفحة ، الذهبى ، ص ٢٣٦ ، درر التيجان ، ص ٣٦٧ ،والدكتور حسن ابراهيم ، الفاطميون فى مصر ، ص ٣٠٤ ، Schlumberger : Les Campagnes du roi Amaury en Egypte, p. 142 — 143. C. T.. p. 926 — 927.,

أدنى مقاومة ، بعد أن قضت على الكثيرين قتلا وأسرا ، ولم ينج إلا أمورى ، فكانت نجاته إحدى المعجزات[١] .

ثم رحل شيركوه إلى الأسكندرية عقب هزيمة الصليبيين فى موقعة البابين ، ويرى البعض أنه لو ساق خلفهم صوب القاهرة لملكها منهم[٢] ، والظاهر أن أهل الإسكندرية أنفوا من شاور واستعانته بأعداء دينهم ووطنهم ، فكاتبوا أسد الدين ، وبعثوا إليه برسالة حملها إليه رجل اسمه الإدريسى[٣] يخبرونه فيها « أن السلاح واصل » ، ثم وصلت بعد ذلك بيومين « خزانة من السلاح » ، وأخذ شيركوه فى مناوشة الصليبيين ومناهضتهم وإزعاجهم ، وجرت بينه وبينهم وقائع كاد أمورى فى إحداها أن يذهب ضحية الأسر . ولم يدرْ بخلد الصليبيين وشاور أن شيركوه سيقصد الإسكندرية ، بل كانا بالقاهرة ينتظران مقدمه لمبادرته بالقتال ، على حين كان هو إذ ذاك يحاصر الإسكندرية . ومن المبالغة أن نسمى وقوف شيركوه أمامها حصاراً لها ، إذ كان أهلها أكره الناس لمصافاة الصليبيين ، وقد نقموا على شاور محالفته إياهم ، بل لقد أخذ ابن مصال يستحث شيركوه على سرعة النهوض إليها ، فسهل عليه تملكها . ثم أناب شيركوه عنه ابن أخيه صلاح الدين بالإسكندرية ، ورجع هو إلى الصعيد

---

(١) C. T., p, 928

(٢) يفسر ذهاب شيركوه رأسا إلى الإسكندرية بأن أمورى عاد إلى المنيا حيث وجد جيراردى بوجى على رأس خمسمائة فارس مستعدين للحيلولة دون مسير شيركوه وجنده . أما المشاة فكانوا بقيادة جوسلين الثالث . وقد عاد أمورى بقواته إلى القاهرة ، وعسكر عند الفسطاط بجنده الذى ازداد عدده بما جاءه من الإمدادات الوفيرة ، وبجيش شاور الذى لم يساهم مساهمة جدية ، تؤدى به أو بالكثير منه إلى القتل أو الأسر ، هذا إلى ماترامى إلى سمع الفريقين من أن نجدات صليبية وفيرة غادرت فلسطين بقيادة كثير من الأشراف او القدمين لمساعدة أمورى فى استخلاص مصر ، وهذا الخبر — على علاته — كفيل بتقوية نفوس الصليبيين ، لذلك انصرف أسد الدين شيركوه عن القاهرة ، راجع أبا شامة ، كتاب الروضتين ، ص ١٣٠ — ١٣٢ ، G. T. p. 227 — 229 والدائرة مادة « أشمونين » Ashmunain والكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٦ ، والنجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ .

(٣) أبو شامة ، شرحه ، ص ١٣٠ — ١٣١ .

حيث مضى إلى قوص لجمع الجزية . وعنـد ذلك قرر الصليبيون وشاور محاصرة الثغر برا وبحرا [١] وترتيب جماعة [٢] « فى بضعة سفن لمنع وصول الأطعمة إلى المدينة » ، أما من ناحية البر فقد أجمعوا أمرهم على أن يخرج أمورى بعساكره فيعسكر فيما بين تروجه ودمنهور . وتحرك أمورى فعلا ليضرب خيامه فى تلك الجهات ، كما حوصرت الإسكندرية براً وبحراً [٣] ، وآتت خطتهم أكلها ، فما انقضى شهر على هذا الحصار حتى أحس الإسكندريون بوطأته ، إذ قلت الأقوات وأشرفت المدينة على المجاعة ، وضاعف أمورى حصاره ليضعف الروح المعنوية ، وليصرف أهل البلد عن نصرة صلاح الدين ، ونجحت الحيلة ، وتحرك الأسكندريون بما أزعج خاطر صلاح الدين ، فكاتب عمه سرا يشرح له حرج موقفه ، لاسيما وقد أفسد شاور جماعة التركمان على الصلاح [٤] . لذلك بادر أسد الدين بالمسير من قوص فى يونيو ١١٦٧ لنجدة ابن أخيه ، وعسكر فى بركة الحبش [٥] قاصدا من وراء ذلك إلى الاستيلاء على الفسطاط ، غير أن شدة عزيمة هيج الأبلينى أفسدت تلك الخطة . وإذ ذاك رأى شيركوه أن يبعث إلى الصليبيين بشروطه لوقف القتال بينه وبينهم [٦] ، وذلك على يد أسيره هيج القيصرى ، واتفق الطرفان على تبادل الأسرى ، ورفع الحصار الصليبى عن الاسكندرية ، ومغادرة شيركوه وأمورى لمصر . وقد رحب أمورى بتلك الاتفاقية لأنها منعت مصر من الوقوع فى يدى نور الدين ،

---

(١) درر التيجان ، ص ٣٦٧ .

(٢) كان ممن ساهم فى هذا القتال إلى جانب أمورى جماعات من أهل بيزا بأسطولهم راجع أسباب هذه المساهمة فى Heyd : Hist. du Commerce du Levant, t. I, p. 396,

(٣) Ibid,, op- cit. loc. cit.

(٤) الكامل ، ج ١١ س ١٤٦ .

(٥) وكانت تقع ظاهر مدينة الفسطاط ، ومحلها اليوم قرية « دار السلام أو دير الطين قديما » وكذلك معظم الأراضى الزراعية التابعة لزمام البساتين . راجع فى ذلك ياقوت : معجم البلدان ، والمقريزى الخطط ، ج ٢ ص ١٥٦ ، وانظر أيضا تعليقات المرحوم محمد بك رمزى فى النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤ حاشية رقم ٢ ، ج ٦ ، ص ٣٨١ — ٣٨٣ .

(٦) G. T., p. 934 — 935.

ورحب بها شاور لأنه رآها فرصة تمكنه من الاستقلال بمصر، كما رحب بها شيركوه حين أدرك ألا أمل له فى الاستيلاء على مصر بسبب ضعف جيوشه[١]، وظن المصريون أنهم تخلصوا من التنازع الذى أصابهم غرمه ولم يصبهم غنمه، فاستخفهم الطرب حين علموا بخبر الموادعة[٢]، ومضوا إلى معسكرات الصليبيين يرونهم معالم الاسكندرية الفاتنة، وسرعان ما غادر صلاح الدين الاسكندرية والتقى بأمورى، وأعجب كل منهما بخصمه، حتى لقد قام أمورى فأمد صلاح الدين ببضع مراكب لنقل جرحى المسلمين إلى دمشق[٣].

غير أن الأمور لم تقف عند هذا الحد، لأن قبول أمورى لمقترحات الصلح والجلاء فى أغسطس ١١٦٧ — رغم تحول الأمور إلى صالحه — كان منشؤه خوفه الشديد من أعمال نور الدين فى الشام فى تلك الحقبة، إذ كان نور الدين قد هاجم حصن المنيطرة[٤] من أعمال طرابلس، وأغار على حصن الأكراد وفتح حصن العريمة وصافيثا، ثم عاد إلى فلسطين فحاصر حصن هونين وهدم أسواره[٥]، لذلك رأى أمورى أن يعود إلى بيت المقدس فى سرعة ليكون على مقربة من مسرح النضال، عسى أن يرهب مقدمه نور الدين فيكف عن مضايقاته وعدوانه، ثم يعود أمورى بعد ذلك إلى مصر. والدليل على هذا أنه فضلا عما تم من الصلح والجلاء عن مصر فقد عقد أمورى مع شاور اتفاقية خاصة، تنص على بقاء شحنة صليبية بالقاهرة، وأن تكون أبواب العاصمة الفاطمية بيد الصليبيين[٦] لتدرأ جيوش

(١) الدكتور حسن ابراهيم: الفاطميون فى مصر، ص ٣٠٤، الذهبى، ص ٢٣٧.

(٢) C. T., p. 937 — 938.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ص ١٣٣ — ١٣٤.

(٤) الروضتين ص ١١١، الذهبى ٢٣٥، Dussaud : Topographie Hist. de la Syrie, p. 397, 73.

(٥) الكامل، ج ١١، ص ١٤٦، أما فيما يتعلق بالحصون وترميمها فانظر Rey : Colonies Franques en Syrie p. 135 — 136, 368, 478.

(٦) نص وليم الصورى على أن أبواب القاهرة كانت بيد جماعة من فرسان الصليبيين دل عليهم بالأسماء وقال "Ilec Trouva Huan de Ibelin et ses autres gens qu'il avait lessées pour garder le Cahere et le pont." G. T., p. 939.

نور الدين إن عاودت الهجوم . كما اتفق الطرفان — المصرى والصليبي فوق هذا كله — على أن يكون للصليبيين مائة ألف دينار سنويا من دخل مصر (١).

ومعنى ذلك كله أن جالية صليبية غير قليلة بقيت بمصر بعد رحيل أمورى وشيركوه ، ولم تلبث تلك الجالية أن كانت أمورى ليجىء إليهم برغم ما قطعه على نفسه من وعود ، واقترحت عليه أن يكتب إلى ملوك فرنسا وإنجلترا وألمانيا وجميع أقطار أوربة المسيحية يطلب إليهم النجدة . غير أن أمورى لم يرد أن يستنفر ملوك أوربا ، لعلمه بشدة طمع فرسانهم فى تكوين إمارات صليبية جديدة بالشرق . لذلك آثر أمورى الاستنجاد بالدولة البيزنطية ، ورأى أولا أن يخطب إلى بلاط القسطنطينية إحدى فتياته اللائى يصلحن للتربع على عرش مملكة بيت المقدس (٢) ، وأنفذ إلى الإمبراطور مانويل كومنين سفارة سنة ١١٦٥ برياسة المؤرخ الكبير وليم الصورى ، واستغرقت هذه السفارة فى البحث عامين (٣) ، انتهت بعدهما إلى اختيار الأميرة مارى ابنة أخى الامبراطور لتكون ملكة بيت المقدس (٤) ، ولقى أمورى زوجته البيزنطية فى صور ، وعقد له عليها بكنيسة البلد يوم ٢٩ أغسطس

---

(١) كل ما سبق بشأن الصلح مبنى على ما قرره وليم الصورى ، أما رواية ابن الأثير فى الكامل ، ج ١١ ص١٤٦ ، فتختلف كثيرا — لا سيما فى المقدمة — عما أورده المؤرخ الصليبي ، فيذكر ابن الأثير أنه لما اشتد حصار الفرنجة لصلاح الدين سار شيركوه من قوص إليهم ، فجاءته رسلهم يطلبون الصلح ، وبذلوا له خمسين ألف دينار ، سوى ما أخذه من البلاد ، غير أن الدقة التى امتاز بها وليم الصورى فى إيراد حوادث هذه الفترة بالذات تجعل لروايته الصدارة على كل ما عداها ، لا سيما إذا ذكرنا تضارب روايات ابن الأثير بشأن تاريخ تلك الحملة فى كتابيه الكامل ، شرحه ، والأتابكة ، ص ٢٤٠ ، ٢٤٦ .

(٢) لم تكن هذه أول مرة يتزوج فيها أمورى ، فقد سبق له أن تزوج من « آنى دى كورتناى » وقد ولدت له ابنه بلدوين الرابع الذى خلفه على عرش المملكة (١١٧٤ — ١١٨٥) راجع Grousset : Hist. des Croisades, t. II, p. 504, note 5

(٣) هناك من يرى أن علة طول إقامة السفارة أثناء المفاوضات راجعة إلى أن المفاوضة على فتح مصر كانت تجرى فى الوقت عينه . انظر Chalandon : Comnènes, t. II, p. 536

(٤) Chalandon : Op. Cit. Loc. Cit.

سنة ١١٦٧ [١]، وتمخض هذا الاتصال بين مانويل وأموري عن الاتفاق على إنفاذ حملة مشتركة إلى مصر، لا لمساعدة شاور أو العاضد، بل لاحتلال البلد احتلالا تاما.

وقد بعث الإمبراطور مانويل — وقت وجود أموري بصور — رسولين يحملان من قبله الاقتراح بمهاجمة مصر، وذكر وليم الصوري [٢] أنهما قالا «إن الإمبراطور رأى أن المملكة المصرية التي كانت زمنا طويلا قوية وغنية قد آلت أمورها إلى يد حكومة يسوسها رجال ضعاف لا يستطيعون حمل السلاح ولا المحافظة على البلد ... وأن الإمبراطور صادق الرغبة في الاتفاق مع أموري على احتلالها». وفي ذلك دلالة واضحة على أن الإمبراطور مانويل كومنين كان يريد المساهمة في مشروع الاستيلاء على مصر لخدمة المصالح البيزنطية البحتة، ولذلك أراد أن يكسب أقصى كسب بأقل غرم، فرأى أن يتخذ أموري مخلبا لتحقيق مطامعه، ولم يفت ذلك أموري نفسه وهو وحيد نسجه «شجاعة ومكرا ودهاء [٣]».

ولما كان المشروع أكبر من أن يبت فيه سريعا فقد تطلب الأمر تبادل الآراء والشروط بين الجانبين، لذلك أرسل أموري صديقه المؤرخ الكبير وليم الصوري إلى الأمبراطور مانويل كومنين مرة أخرى سنة ١١٦٨؛ والظاهر أن أموري قد فوضه الاتفاق بما يرى، وأن يمضي الاتفاق نيابة عنه. وتم الاتفاق في سبتمبر ١١٦٨، وبذلك تحقق على يد وليم الصوري أكبر مشروع خطير يمس مباشرة تاريخ مصر في العصور الوسطى في أواخر الدولة الفاطمية، وهو أن يخرج الجيشان: البيزنطي والصليبي بقيادة أموري لفتح مصر في السنه التالية [٤]، واتفق الطرفان على أن تكون الرياسة لملك بيت

---

(١) G. T., p. 942 — 943.

(٢) G T., p. 945 ; Schlumberger : Les Campagnes du roi Amaury en Egypte, p. 184.

(٣) الكامل، ج ١١ ص ١٥٠، كتاب الروضتين، ص ١١٣ — ١١٤ من الطبعة الأوربية، ج ١ ص ١٥٤ (الطبعة المصرية).

(٤) G. T., p. 947.

المقدس وأن يطيع القائد البيزنطى فى كل ما يأمر به [١] ، وشرعت الإمبراطورية البيزنطية تستعد بجماعة من خيرة عساكرها لتساهم فى الفتح ، لاسيما وأنها تعلم أن نور الدين لابد وأن ينهض لدفعهم من مصر بكل مالديه من قوة وعتاد .

غير أن الظروف جرت بما لم يدر قط بخلد وليم الصورى أومانويل كومنين ، وعملت على مساعدة نور الدين ، فقد نهض أمورى بغتة بجيشه الصليبى ، وزحف على مصر تحت إلحاح من بها من جالية الصليبيين على قول المؤرخ ميخائيل الشامى وغيره من المؤرخين [٢] . وغير بعيد أن يكون ذلك الزحف قد تم بناء على ما ترامى إلى سمع الجالية الصليبية بمصر من الاتفاق المبرم بين الامبراطور وأمورى بشأن فتح مصر ، وخافوا — إن تم ذلك — أن يشاركهم البيزنطيون فى ثروتها وخيراتها ، ولم يفت ذلك الأمر أمورى ، فتظاهر بكراهية الاقدام على ذلك الفتح حتى يكون له عذره أمام مانويل كومنين . غير أن وليم الصورى يرجع العلة الكبرى فى إسراع أمورى بتلك الحملة التى أفسدت المشروع وخدمت نور الدين إلى إلحاح جلبرت الأسيلى مقدم الفرسان الاسبتارية ، إذ دفعه طمعه فى الحصول على إقطاع كبير فى بلد خصب كمصر إلى إقناع أمورى بالإسراع بالغزو [٣] . على أن هناك من المعاذير ما يمكن أن يفسر به إسراع أمورى فى الزحف على مصر قبل علمه بالموادعة المكذوبة ، بأن شاوراً رضى أن يحمل إلى نور الدين مالا كل سنة [٤] ، وأنه خطب أخت صلاح الدين ، إلا أن أمثال تلك التعلات لا تكفى لتبرير موقف أمورى

---

(١) G. T., p. 968.

(٢) G. T., p. 947, Michel Le Syrien, Chroniques, p. 332. الكامل ، ج ١١ ص ١٥٠ ، وأتابكة الموصل ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ ، ٢٤٦ ، وأبو شامة ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

(٣) G. T., p. 948 — 949 ; Michel, t. III, p. 333 Chalandon : op. cit. t. II, p. 537 — 538.

(٤) الكامل ، ج ١١ ص ١٤٧ ، والأتابكة ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ ، وأبو شامة ص ١٣٦ .

من الامبراطورية البيزنطية ورضائه وبالاتفاق معها ، وتسييرها إياه كيفا تهوى ، وإخراج الحملة على مصر فى الوقت الذى يرضيها .

لكن هناك سببا آخر ألا وهو النزاع الذى شب بين نور الدين وبين شهاب الدّين مالك بن على العقيلى صاحب قلعة جعبر ، حيث انتهى الأمر باستيلاء السلطان الملك العادل على تلك القلعة(١) ، يؤيد هذا قول الصليبيين فى مصر لأمورى حين خوّفهم من مجىء نور الدين أنه « حتى يجهز عسكر عدوهم يكونون هم قد ملكوا مصر ، وفرغوا من تدبير أمرها(٢) » والظاهر أن تجنيد حملة على مصر أطمع كثيرا من المخاطرين الأوربيين فى المساهمة فيها ، فقد حضر إلى بيت المقدس الكونت وليم الرابع مع حشد كثيف من فرسانه للقضاء على أعداء « الملة المسيحية » ، ومع أن الموت قد عاجله إلا أن الدافع له على المجىء ظل حيا فى نفوس رجاله(٣) ، لذلك كان من المعقول أن يفكر أمورى تفكيرا جديا فى الإسراع فى مهاجمة مصر دون انتظار حلفائه البيزنطيين ، وهذا أقصى ما يمكن أن نبرر به موقفه حيالهم ، وانفراده بالهجوم على مصر .

وكيفما كان الأمر فقد خرج أمورى فى شهر أكتوبر ١١٦٨ على رأس الحملة التى جهزها تحت تأثير بيزنطية لفتح مصر ، وأراد أن يصرف نور الدين

---

(١) Michel, t. III, p. 332. ، والكامل ، ج ١١ ص ١٤٩ — ١٥٠ ، وأنابكة الموصل ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ ، والدائرة ، مادة Dija'bar ، وقد أورد ابن الأثير إلى جانب هذا قصة نزاع جرى بين نور الدين وبين قوة أرسلان ، ويدرجها تحت سنة ٥٦٠ هـ ، غير أن هناك ما يدحض وقوعها فى تلك السنة مما انتبه اليه المؤرخ ذاته فقال « وينبغى أن تكون هذه الحادثة قبل هذا التاريخ ٥٦٠ هـ » وأشار إشارة قد تبرر ذكره لها فى تلك السنة وهى « أنه يحتمل أن يكون هذا التنافس كان أيام الصالح بن رزيك ثم امتد إلى الآن » راجع الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٢ ، وكذلك الإشارة الشديدة الإيجاز الواردة بشأن تسلم نور الدين لتلك القلعة فى الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٥ .

(٢) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ١٥٤ .

(٣) G. T., p. 945 ; Riant : Hist. de l'Eglise, p. 147.

وشيركوه عما عزم عليه، فأعلن بأنه يبغى مهاجمة حمص[١]، وجازت الحيلة على سلطان دمشق، فكاتب الأمراء بالقدوم عليه، واستقدم عساكره للنهوض إلى أمورى ودفعه عن مقصده. وفى ذلك الوقت بالذات كانت الحملة الصليبية برياسة ملك بيت المقدس فى طريقها إلى مصر، وإن بقى خبر زحفها سرا مطوا عن شاور، الذى لم يعلم به إلا حين بلغ أمورى قلعة «الدارون» المعروفة بدير البلاح. فانزعج الوزير الفاطمى لهذا القدوم الذى لا مبرر له، وتوقع الشر — هذه المرة — من حلفائه الصليبيين، إذ لم يكن ثمت مايدعوهم للنهوض إلى مصر، لا سيما وهو قائم بالمحافظة على تعهداته لهم. ولم يكن عند المصريين — أو شاور على الأصح — ما يبرر قيام أمورى بتلك الحملة الصليبية لمهاجمة حليفته الإسلامية، بعد أن ارتضت من الحلف مكانة التابع بدفع قطيعة سنوية للصليبيين[٢]، وإقامتها إياهم حراسا على أبوابها، حتى لا يتمكن جند نور الدين من الوثوب عليها فى غفلة من أربابها.

لذلك بادر شاور بإرسال أحد مشيريه ممن يثق بهم واسمه الأمير بدران إلى أمورى قبل وصوله القاهرة، مستفسراً منه عما دعاه للمجىء، عساه أن يتدارك هفوته كى لا يدع مجالا لسلطان دمشق للمجىء هو الآخر إلى مصر، فما كان من الصليبيين إلا أن استمالوا الأمير بدران إليهم، بعد أن وعدوه بإقطاعه إقطاعا زمامه ثلاث عشرة قرية، فلما أبطأ بدران تسرب الخوف إلى نفس شاور، وبعث إليهم برسول آخر من المقربين إليه اسمه شمس الخلافة محمد بن مختار، فطمأن أمورى خاطره بما لا يجوز على أحد مطلقا. فقد زعم أنه أراد التوسط بين المصريين وبين جماعة أروبية جاءت من وراء البحار قاصدة غزو مصر، كما زعم أن محبته لأهل البلد ولخليفه

---

(١) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ١٥٤.

(٢) ذكر أبو شامة فى الروضتين، ج ١ ص ١٧٠ أن شاورا كان قد قطع الجزية السنوية إلى أمورى، مما دعاه للقيام بحملته كما جاء فى رسالته إليه.

شاور وتحتم عليه النهوض لدفع هذا الخطر الأوربى عن مصر [١] ، وقرن القول بالعمل ؛ فتحرك شطر الوادى وأغذّ السير حتى تهيأ له الوقوف أمام بلبيس فى شهر صفر ٥٦٤ [٢] وحينئذ أيقن شاور بما كان قد ترامى إلى سمعه من أن هناك فئة من الأمراء المصريين ، أمثال ابن الخياط وابن النحاس وابن قرجلة [٣] كاتبوا أمورى يحببون إليه القدوم إلى مصر ، ويهوّنون عليه فتحها ، ويعدونه بالانضمام إلى جانبه إذا قدم بجيشه ورجاله [٤].

نزل أمورى بظاهر بلبيس ، وطلب من حاكمها طىّ بن شاور أن يأذن له بدخولها ليعسكر فيها بجيشه ، ووقف الابن موقفا كريما [٥] ، وناضل الصليبيين نضالا أثار حفيظتهم عليه وعلى المصريين عامة ، وأنكر على المهاجم زعمه وتقدّمه داخل الحدود المصرية ، وقتل جماعة من كبار رجال مملكة بيت المقدس [٦] ، وعرف أمورى أن المصريين مدركون لقصده ، فأقام على حصار بلبيس ثلاثة أيام بلياليها يغاديها ويراوحها بالقتال ، استولى عليها بعدها ، وإذ ذاك أسرف أمورى فى الانتقام من بلبيس بهدم بيوتها والتنكيل بأهلها ، وكأنّ له عندها ثأراً مبيتا ، وقتل كلّ من صادفه من النساء والشيوخ والأطفال بشهادة وليم الصورى وغيره [٧] من المؤرخين الصليبيين ، وهناك من يبرّر هذه القسوة من جانب الصليبيين ، فيزعم أن أمورى رأى أنه لن يستطيع حماية البلد إذا هاجمه أسد الدين شيركوه مثلا ولذا سوّى بيوتها بالأرض [٨] ، وهو تبرير يحتاج إلى تبرير ، ويقوم على ساقين من طين.

(١) أبو شامة ، شرحه ، ج ١ ، ص ١٦٩ — ١٧٠ .

(٢) الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٠ ، وذلك يوم أول نوفبر ١١٦٨ م .

(٣) ابن الأثير : الأتابكة ، ص ٢٤٧ .

(٤) ابن الأثير ، نفس المرجع والصفحة ، Lane — Poole : History of Egypt in the Middle Ages, p. 184.

(٥) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ص ١٣٧ .

(٦) Grousset : Hist. des Cioisades, t. II., p. 522.

(٧) G. T., p. 950. Schlumberger : op. cit. p. 196, note 1. p. 313, note 3.
راجع أيضا الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٥٠ — ١٥١ .

(٨) Grousset op. cit., t. II, p. 522 d'après Ernoul.

على أية حال كان مسلك أمورى والصليبيين الوحشى سنة ١١٦٨ فى بلبيس متنكبا بهم طريق السداد [١] ، وسرعان ما أدركوا خطأهم حين أبى أهل القاهرة أن يلاقوا مصير أهل بلبيس، من العذاب والتنكيل والأسر ،فللموت فى الدفاع عن بيضة الحمى أعذب من حياة فى ظل العبودية . واشتد نفورهم من الصليبيين مما ساعد على ميلهم إلى جانب نور الدين ، فلا عجب إذا هم اعتزموا ألا يسلموا العاصمة ، وألا يدخلها الصليبيون إلا وأهلها جثث هامدة [٢] .

وقد استغرقت المسافه بين بلبيس والقاهرة عشرة أيام ، والأرجح أن المفاوضات كانت دائرة بين أمورى وبين جماعة المصريين الموالين له ، أو بينه وبين رسل شاور إليه وهو فى أثناء الطريق. ومهما تكن دواعى الإبطاء فقد بلغ أمورى القاهرة يوم ١٣ نوفمبر ١١٦٨ ، وعسكر عند بركة الحبش . ولم يجد أدنى معونة من المصريين الذين أحجموا عن كل ما من شأنه مساعدة الفاتح على تحقيق هدفه،وكانوا قد أخلوا ناحية الفسطاط بأكملها لأمر دبّره شاور . وحملوا معهم كل ما استطاعوا حمله من متاع وطعام ، وتركوا الدار تنعى من بنوها ، ثم أضرموا فيها النيران التى بقيت متأججة أربعة وخمسين يوما سويا[٣]، وألسنتها تشرق بالليل فتضىء فحمته، وبالنهار تذكيها حرارته، ولا تزال آثار ذلك الحريق بادية فى بعض خرائب الفسطاط الحالية .

نظر أمورى بعين الأسى إلى تلك المدينة الزاهية والنار تلتهمها، والمصريون راضون بذلك ، فللنار تأكل متاعهم أهون على نفوسهم من أن تقع بلادهم فى يد دخيل أجنبى . وكانت مقاومتهم لجيوش بيت المقدس من الشدة بمكان حتى أيأست أمورى ، وأدرك أنه لن يستطيع لها امتلاكا ، وكيف يتأتّى له

(١) Lane — Poole : op. cit. p. 184.

(٢) أبو شامة ، شرحه ص ١٤٠ ، الذهبى ، ص ٢٣٧ .

(٣) الكامل ، ج ١١، ص ١٥١ ، والروضتين ، ج ١ ص ١٥٤ ، ١٧٠ (١١٤ ، ١٣٩ من الطبعة الأوروبية) وأتابكة الموصل، ص ١٣٩ — ١٤٠ ودرر التيجان ص ٦٣٨ Lane — Poole : Hist. of Egypt, p. 184.

امتلاك بلاد هؤلاء أهلها ، وقد باتوا على الطرقات ما يقرب من شهرين لا يلوون على شيء سوى متابعة القتال ، فلا جرم أن رحب بما عرضه عليه شاور من الأموال (١) ، التى لم يستطع أن يجمع له منها سوى خمسة آلاف دينار . ولقد رضى أموري بذلك خوفا من مقدم أسد الدين وإفساد كل شيء ، لأنه علم أن الخليفة العاضد أرسل مستنجدا بنور الدين ، وبعث إليه بشعور النسوة ، وهو أقوى مظهر من مظاهر التوسل ، كما استغاث به به وبأسدالدين جماعةمن المصريين ، وعرضوا عليه ثلث دخل البلاد. وتختلف المراجع العربية فى تحديد الشخص أو الأشخاص الذين ذهبوا تلك المرة يطلبون النجدة من نور الدين ، وهناك من يقول إن الذى قام بذلك هو شاور (٢) نفسه ، ويقول غيره بل هو الكامل بن شاور بإشارة من شمس الخلافة (٣) ، ويقول غيرهم بل هو العاضد ذاته (٤) ؛ فإن صح هذا القول الأخير فليس لدينا نص الرسائل التى أنفذها الخليفة الفاطمى إلى سلطان دمشق ؛ وكل ما لدينا فى هذا الموضوع ما ذكره ابن الأثير من أن العاضد أرسل إلى نور الدين ليستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج، «ثم عاود مراسلته بعد رحيل الصليبيين عنها ، معلما إياه بما لقى المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث

---

(١) — اضطر شاور — وقد أزعجته أعمال الصليبيين — لإعمال الحيلة معهم فأرسل إليهم يذكرهم بعودته لهم ، ويلقى بالتبعة على الخليفة العاضد . ويشير شاور على أمورى بالرحيل عن مصر لقاء ألف ألف دينار . وكان أكبر المحبذين لأمورى على قبول هذا التسليم ميلز دي بلانسى ، Mills of Plancy الذى يحمله وليم الصورى تبعة فشل حملة أمورى على مصر ١١٦٨ ، بينما خالفهما بقية الأشراف والفرسان ، ومقدمو الجيش فى هذا الرأى ، كما أنهم رأوا أنفسهم وقد اكتسبوا عداوة بيزنطة لإخلالهم بالاتفاق المبرم بينهم وبينها فلا أقل من متابعة الحرب . راجع الكامل ، ج ١١ ص ١٥١ ، وكتاب الروضتين لأبى شامة ، ص ١١٤ — ١١٥ Shlumberger. les Campagnes du roi Amaury enEgypte, p. 253.

(٢) الدكتور حسن ابراهيم : الفاطميون فى مصر ، ص ٣٠٦ ، وحاشية رقم ٢ ، والذهبى ، ص ٢٣٨ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ص ١٣٨ — ١٣٩ ؛ Schlumberger : Op. Cit. p. 200 — 201 ; Lane-Poole : Hist. of Egypt, p. 183 — 184.

(٤) الروضتين ، ص ١٣٩ ، أتابكة الموصل ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ .

بلاد مصر ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده فى عسكر ، وإقطاعهم عليه خارجا عن الثلث الذى لنور الدين » ، والظاهر أن ذلك كان بعلم شاور أيضا ، إذ يذكر ابن الأثير كذلك أن شاوراً لم يتجاسر على إظهار ما فى نفسه ، فكتمه وهو يماطل أسد الدين فى تقرير ما كان قد بذل له من المال والإقطاع للعساكر وإفراد ثلث البلاد لنور الدين .

على أية حال ما كاد نور الدين ـ وهو فى حلب ـ يتسلم رسائل الاستغاثة حتى تحركت فيه عوامل الشفقة والرحمة ، وعملت جنبا إلى جنب مع ما تنطوى عليه نفسه من الطمع فى الاستيلاء على مصر وتخليصها من أيدى فئة طاغية كشاور ، ولعله رأى أن تخليصها قد يؤدى به إلى إعادة المذهب السنى إليها ، بعد أن تمكنت منها الشيعة زمنا طويلا ، وبذلك يكتسب عطف بغداد وتأييدها إياه . وأدرك نور الدين من رسائل العاضد وكثير من المصريين أن البلد سيغدو من نصيبه هذه المرة ، ولم يكن فى ذلك مبالغاً . ومن ثم بعث إلى قائده أسد الدين شيركوه — وكان بحمص — يأمره بالتجهز بالحملة على مصر ، وأعطاه مائتى ألف دينار ، سوى الثياب والدواب والأسلحة ... وحكّمه فى العساكر والخزائن ... وأعطى نورُ الدين كلَّ فارس ممن مع أسد الدين عشرين دينارا معونةً غير محسوبة من جامكيته [١] » . ولنا أن نقارن بين قلة الأموال فى مصر حتى ليعجز شاور عن جمع مالا يزيد عن خمسة آلاف دينار ، وبين كثرتها عند جيش نور الدين الذى أنفذ مع شيركوه جماعة من كبار الأمراء الذين يثق بهم أشد الثقة .

خرجت هذه الحملة فى ١٧ ديسمبر ١١٦٨ ، وحدث حين سمع شاور بمقدم شيركوه وبلوغه قلعة الصدر بشبه جزيرة سينا أن بعث بشمس الخلافة إلى أمورى ، طالباً إليه أن يتخلى عن جزء من المبلغ المتفق عليه ، فدل ذلك أبلغ دلالة على أن وزير الفاطميين بمصر يهدد حليفه الصليبى ، كما دل من

(١) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ص ١٥١ ، الأتابكة ص ٢٥٠ ، Schlumberger : op. cit. p. 213, Lane-Poole : op. cit. p. 185.

ناحية أخرى على أنه لم يعد له من القوة والسلطان ما يستطيع به دفع هذين الخصمين، ولا شك أن المصريين كانوا من خلفه يؤيدونه فى موقفه هذا، عسى أن يخف العبء عن كاهلهم [١]، وإن كانوا فى الوقت ذاته يتمنون النصر لجند نور الدين .

دخل جيش نور الدين القاهرة يوم ٨ يناير ١١٥٩ [٢] (= ٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ) ، ولم يجد أدنى مقاومة من المصريين ، ولعلهم رأوا فى حملة شيركوه خلاصا لهم من الصليبيين ومن استبداد شاور ، الذى ضج منه الجميع حتى أقرب الناس إليه وهو ولده الكامل : وطمع الكل أن يشرق عليهم عهد جديد من الطمأنينة والهدوء بعد تلك النكبات الجسام، التى تتابعت عليهم آخذ بعضها بحجز البعض الآخر ، أما الخليفة العاضد فكان يرقب الأمور بحسرة لا تجدى ، ولم تكن له يدان فى دفع تلك الأخطار التى توقّع — عن حق — أن تذهب بعرشه الذى ورثه عن آبائه .

أصبح من الضرورى لأمورى - بعد أن عرف موقف المصريين حياله - أن يتراجع عن القاهرة، مخافة أن يهاجمه أسد الدين، وأن يثب عليه المصريون من الخلف، واضطر إلى الارتداد إلى بلبيس، مؤملا ألا يجد صعوبة فى الرحيل إلى فلسطين إن جد من الأمور ما يقتضيه الابتعاد عن مصر . أما شيركوه فإنه عاد يشير إلى الاتفاق القديم، الذى قدمه شاور لنور الدين، ثم نكث فيه، فطالبه به ، فماطله ، وكان شاور عاجزا بطبيعة الحال عن أداء المال المطلوب لصاحب دمشق ، ومن أين له الوفاء به ، وقد احترقت بيوت أهل مصر ،

---

(١) ذكر أبو شامة نص الشروط التى تم الاتفاق عليها بين شمس الخلافة نائب شاور وبين أمورى ، فقد وهبه أمورى نصف المال الذى استطلقه إياه شمس الخلافة ، وعرض شاور (بلسان نائبه) أن يرحل أمورى عن البلاد ، وقد استجاب ملك بيت المقدس لما طلبه منه شاور ، كما أنه أطلق طى ابن شاور وجميع من عنده من عسكر المسلمين ولم يأخذ من بلبيس شيئا .

(٢) تحقيق هذا التاريخ بناء على ما ذكره Stevenson : Crusaders in the East, p. 194, note 1, بعد مناقشة المصادر العربية المختلفة ، ومعارضتها بعضها ببعض .

وهم لا يقدرون على الأقوات ، فضلا عن الأقساط ، مما لم يخف على شيركوه.

ثم رحل الصليبيون عن مصر يوم ١٨ يناير ١١٦٩ ، بعد أن يئسوا من امتلاكها ، وأدركوا بعد فوات الوقت — خطأهم الجسيم فى إقدامهم على الحملة التى أفقدتهم ما كان لهم من مظاهر ملكية مصر [١] ، لكنها المقادير أبت إلا خدمة البلد ومعاونة نور الدين على تحقيق هدفه مما كان فيه أكبر الخطر على الخلافة الفاطمية [٢] ، ولم يفت شاور أنه لم يبق فى مصر سوى شيركوه ورجاله ، فأخذ هذا المنافق يدبر حيلة تمكنه من القضاء على أسد الدين ومن معه من الأمراء عسى أن يخلص له أمر مصر. لذلك رأى دعوتهم إلى مأدبة يقيمها من أجلهم ، ثم يلقى القبض على زعمائهم ويقتلهم جميعا ، ثم يستخدم جندهم فى دفع الصليبيين إن عادوا لمهاجمة البلد ، وبذلك يصيب عصفورين بحجر واحد . غير أنه انصرف عن تلك المكيدة ، لا رحمة بهم ، بل خوفا مما هو أشد وأنكى ، ويقال إن الذى صرفه عن ذلك هو ابنه الكامل ، حين هدده بإيقاف شيركوه على المكيدة التى بيتها له شاور ، وكان هوى ابنه مع المصريين ومع جيش نورالدين ، وقال له «لأن نُقتل ونحن مسلمون ، والبلاد إسلامية ، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ، فإنه ليس بينك وبين عودهم إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه» ، وبذلك نجا الجيش [٣] النورى رغم إرادة شاور ، الذى دل سوء تدبيره على قصر نظره ، فما كان له أن يحقق هذا الأمر وهو فى قلة من الأعوان والجند ، إذا قيس إلى جيش شيركوه الكثيف القوى ، أضف إلى هذا ما أعده نور الدين من قبل من تزويده بكثير من أشد أتباعه إخلاصا له [٤] ورعاية لمصالحه ، واستماتة فى تمكين الأمر له بمصر ، ولو قُدِّر لشاور النجاح فى القضاء على شيركوه لخلفه من رجاله من يملأ الفراغ

Stevenson : op. cit. p. 194. (١)

(٢) عمارة اليمنى . النكت العصرية ، ص ٨١ .

(٣) الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٢ ، وكتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٤) شرحه ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

الذي يتركه . لكن الظاهر أن شيركوه علم بما بيّته له عدوه، فرأى أن يعالجه فيجهز عليه ، رغم ما يذهب إليه ابن الأثير من أن أسد الدين قد نهى صلاح الدين وعز الدين جرديك وغيرهما عن قتل شاور (١) . ومما يضعف رأى ابن الأثير ، ويدعم القول بعزم شيركوه على القضاء على شاور أن الخليفة العاضد عرض على شيركوه التخلص من شاور بقتله (٢) ، على أن يستوزره مكانه ، فوقعت هذه الفكرة من نفسه موقع الرضاء والقبول ، ورأى الفرصة سانحة للخلاص من الوزير الفاطمى،وإضعاف شوكة الخليفة والاستيلاء على « حلوبة بيت المال ودار الإسلام » . لذلك جمع شيركوه أصحابه ، وخطبهم خطبة حفظها لنا أحد المؤرخين (٣) ، كشف فيها النقاب عن رغبته الصريحة فيها،«وحرصه عليها لا سيما وقد تحقق أن عند الصليبيين منها ما عنده ... وعنده أن يثب عليها قبل وثوبهم، وأن يملكها قبل ملكتهم، ويتخلص من شاور الذى يلعب به وبهم » . أيشك أحد بعدئذ فى أن قتل شاور كان بتدبير سابق من شيركوه نفسه ؟ بل وأنه كان عالما بيوم مصرعه وساعته ، وإن خفى الأمر إلا عمن وكل إليهم قتله،رغم أنه قد أراد التحايل وتبرئة نفسه أمام التاريخ من دمه ؟ إذ ذهب لزيارة قبر الشافعى يوم مصرعه ، فلما قصده شاور فى خيمته كعادته كل يوم لم يجده ،فرأى أن يمضى إليه هناك، فخرج إليه بصحبة الصلاح وجرديك اللذين تمكنا منه،وأخذاه أسيرا إلى شيركوه « إذ لم يمكنهم قتله بغير أمره » فلما جاءه لم يمكنه إلا إتمام ما عملوا ، أفهل يمترى أحد بعد ذلك فى أن مصرع شاور كان بتدبير نور الدين؟ وهكذا انتهى رجل تربع فى دست الوزارة المصرية فترة طويلة واستبد بالأمر ،

(١) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ص ١٥٢ .

(٢) الكامل لابن الأثير ، ج١١، ص ١٥٢ ، ١٥٤ ، وأبوشامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٧١ ، الذهبى ص٢٣٩ ، ويذكر العصامى : سمط النجوم ، ج ٢ ، ورقة ٣٢٩ — ٣٣٠ أن ذلك القتل تم بمشاورة أسد الدين ، وكان العاضد قد أسر اليه أمورا منها قتل الوزير شاور .

(٣) أبو شامة ، شرحه ، ج ١ ص ١٧٢ .

وحارب البلد والقصر ، واستعان بالأجنبي [١] . والواقع أن مقتل شاور كان آخر حلقة من سلسلة المتاعب التى منيت بها مصر فى أواخر العهد الفاطمى، ولم يعد للصليبيين من مساعد فى البلاد ، وكان خروج الصليبيين من مصر فى نظر نور الدين فتحا جديداً للبلد وحفظا لسائر بلاد الشام [٢] ، وفرح لهذا الفتح فرحا شديدا « وواصل الحمد والثناء على الله تعالى، إذ كان الفتح فى زمنه، وعلى يده ، وأمر بضرب البشائر فى جميع ولايته، وتزيين جميع بلاده»، وأرسل إلى الخليفة يعلمه بذلك مع ابن عصرون «فزينت بغداد، وغلقت الأسواق ، وفرح المسلمون فرحا شديدا [٣]» أما شيركوه فقد خلا الجو له، لا سيما بعد أن وافقه الخليفة الفاطمى على ما تم ، وبعد أن خلع عليه خلعة الوزارة ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش ، وقد ختم العاضد ذلك كله بأن كتب إلى شيركوه تقليدا بالوزارة [٤] ؛ على أنه كان فى كل خطوة من تلك الخطوات يحفر لنفسه ولأسرته ولخلافته قبرا يوشك أن يتردى فيه ، إذ لم يعد هناك من ينافس قائد جيش نور الدين الذى أصبح وزيرا ؛ بل زاد على ذلك بأن راح يقطع الإقطاعات لعساكره ؛ ويستعمل على البلاد من الولاة من أصحابه من يثق بهم . وأصبح لنور الدين حكم مصر وبلاد الشام [٥] .

* * *

---

(١) هناك ما يحمل على الظن بأن لشيركوه يدا فى قتل الشجاع كامل ابن شاور أيضا ، إذ يذكر ابن الأثير أنه لما قتل أبوه دخل هو وأخوته القصر « معتصمين » ، به فكان ذلك آخر العهد به ، فما معنى « الاعتصام » والجند جند نور الدين صاحب الكامل الذى كتب إليه نور الدين، حين أخبره بما بيته أبوه « أن اكتم الخبر عن أبيك » . وغير بعيد أن يكون شيركوه قد خاف أن يستدعى نور الدين الكامل بعد استتباب الأمور فى مصر ، ويقلده الأمر ولعل هذا هو علة غضب نور الدين على شيركوه . انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١ ص ١٥٢ وأتابكة الموصل ، ص ٢٥١ — ٢٥٣ ، والروضتين ، ج ١ ص ١٧٠ — ١٧٢ ، ودرر التيجان ، ص ٣٦٨ .

(٢) أتابكة الموصل ، ص ٢٥١ — ٢٥١ .

(٣) العصامى : سمط النجوم ، ج ٢ ص ٣٣١ .

(٤) عمارة : النكت العصرية ، وابن خلكان فى وفيات الأعيان ، والذهبى ٢٣٨ — ٢٣٩

(٥) لم يفت الشعر تسجيل هذا الحادث الخطير فى تاريخ الشرق فى العصر الوسيط، راجع =

غير أن نور الدين كره أن يكون شيركوه وزيرا لمصر وللعاضد الفاطمى؛ ولعله كان يرى فى قائده الرغبة فى الاستئثار بحكم مصر حتى لقد قال أحدهم « لقد جرى ذكر فتح مصر فوالله ما ابتهج به نور الدين »، كما أنه لما اتصل به استوزاره للعاضد واستبداده بالأمر أمضَّه ذلك وأقلقه، وظهرت فى مخايل قسماته وفلتات كلامه الكراهية، وأخذ فى الفكرة فى أمره وسهره ليالى »؛ غير أنه لم يُقيض لأسد الدين أن يعيش طويلا بعد الفتح ؛ فلم يلبث أن مات يوم السبت ٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤ هـ (٢٣ مارس ١١٦٩)[١] وهو ذروة مجده، وحسبه أن مهد الأمر فى مصر لمن سيأتى بعده، وما ذلك بالقليل .

كان فتح مصر الحلقة الأخيرة التى أضيفت إلى السلسلة المحكمة الحلقات من التمهيد لتكوين الجبهة الإسلامية، وأدى ذلك إلى سقوط الخلافة الفاطمية، وكانت فى تشيعها وضعفها أكبر خطر على نور الدين ؛ ولعل أكبر خدمة أداها الصليبيون للعالم الاسلامى إذ ذاك هى التوحيد — عن غير قصد — بين مصر والشام . وقد دوى هذا الفتح فى بغداد، حتى لقد أقبل الشعراء يهنئون الخليفة به[٢]، ويظهر لنا من نص وارد فى بعض المخطوطات[٣] أن العباسيين كانوا يتطلعون لفتحها منذ زمن، فقد كتب المقتفى بأمر الله عهداً

= كتاب الروضتين، ج ١ ص ١٧٤ — ١٧٥، وقصيدة العماد التى يهنىء فيها نور الدين بذلك الفتح ويشير فيها إلى اتحاد البلدين .

فملك مصر وملك الشام قد نظما · فى عقد عز من الإسلام منتظم

(١) Wiet : Precis de l'Histoire d'Egypte t. II, P. 197, Lane-Poole : Op. Cit., p. 186 ; Stevenson : op. cit, p. 194 ; Schumberger : op. cit. p. 234.

(٢) من ذلك ما ذكره ابن الجوزى : المنتظم، ورقة ١٨٣، من قصيدة رفعها صاحب الوزير إلى الخليفة يقول له فيها :

ليهنك يا مولى الأنام بشارة · بها سيف دين الله بالحق يرهف
ضربت به هام الأعادى بهمة · تقاصر عنها السمهرى المثقف
كشفت بها عن آل هاشم سبة · وعاراً أبى إلا بسيفك يكشف

(٣) المنتظم، ص ١٤٠، وانظر ايضا ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٤، ص ١٥٢ .

لنور الدين وولاه مصر وأعمالها والساحل . بعث إليه المراكب والتحف وأمره بالمسير إليها » وذلك سنة ٥٤٩ ﻫ .

كذلك تتركز خطورة هذا الفتح فى حصر الإمارات اللاتينية من الشمال والجنوب بين قوات خضمها القوى ، أضف إلى هذا أنه أصبح فى مكنة نور الدين أن يعيد الأسطول المصرى إلى سيرته الأولى ، وبذلك تصبح السواحل الشامية — وهى فى يد الصليبيين — مهددة بإغاراته بين حين وآخر ، كما أنه يقطع بينهم وبين أوربة سبل الاتصال، وانقطع مصدر كبير من مصادر الثروة الصليبية ألا وهو تجارتهم البحرية مع مصر .

وأدى استتباب الأمر لجند نور الدين فى مصر إلى زحزحة الخلافة الفاطمية من مسرح السياسة الإسلامية ، وكان الصليبيون يعملون دائما على إثارة الخلاف بين جماعة السنة فى الشام والعراق، وبين الشيعة فى مصر (١) .

ما كاد أسد الدين يوارى التراب حتى انبعثت أطماع مقدمى الجيش من الأمراء الذين يطلب كل منهم الوزارة لنفسه ، غير أن العاضد أرسل إلى صلاح الدين يوليه إياها ،وخلع عليه خلعتها من العمامة والجبة والعقد والسيف ومرسوم الوزارة وكان ملفوفا فى ثوب أطلس أبيض (٢) ، فما هى العلة فى اختيار صلاح الدين ؟ .

الظاهر أن الخليفة العاضد تطلع للاستئثار بحكم البلاد ، بعد أن تخلص من الصليبيين ومن وزرائه الذين حرموه من كل حق كخليفة لمصر ، ورأى الفرصة سانحة لاسترداد سلطانه المسلوب ، وخيل إليه أن الظروف جد مواتية له ، وما الذى يعوقه عن ذلك ؟ حقيقة أن هناك جماعة من قواد نور الدين الأقوياء الذين زاملوا شيركوه ، وكل منهم طامع فى أن يخلف القائد الأعلى فى تدبير أمور الحرب ،ومن هو صلاح الدين إن قيس بهؤلاء وما فيهم إلا كل عبقرى السياسة والتدبير ؟ غير أن عين الدولة الياروقى ،

---

(١) G.T., p. 902, 903.

(٢) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٣ ، الذهبى ، ص ٢٤٠ .

وقطب الدين إينال بن حسان المنبجي ، وسيف الدين المشطوب الهكاري خال صلاح الدين هم الذين يعزى إليهم التأثير على العاضد في إيثاره للصلاح ، لأنه أضعف الجماعة وأصغرهم سنا ، فإن ولى الوزارة فإنه لا يخرج من تحت حكم العاضد (١) .

وجرى من الأحداث بمصر ما دل على أن البلاد تجتاز مرحلة خطيرة في تاريخها ، فقد قامت جماعة بمكاتبة الصليبيين ودعوتهم إلى مصر ، وأخذ صلاح الدين جماعة السودانية بالعنف بعد أن وقف على مراميهم (٢) ، ذلك أن كبيرها مؤتمن الخلافة طمع أن يخلف شاورا فلم يفلح ، فمضى يدبر الدسائس ويحوك المؤامرات ضد صلاح الدين الذي لم يفته شيء مما يدور في الخفاء ، إذ قبض على رسول لمؤتمن الخلافة ، موفد إلى أموري ، يدعوه فيه دعوة شاور لفتح مصر ، ويعده بوثوب الجند السودانية على من يبقى من الجيش النوري المحافظة على القاهرة ، ثم يثبون من بعد ذلك على صلاح الدين من الخلف ، وحينذاك تبين لصلاح الدين أن الواجب يقتضيه تقليم أظفار كل طامع في الحكم ، ورأى وجوب ما ألح عليه نور الدين به ، وهو إزالة الخلافة الفاطمية (٣)

* * *

لم تكن الأحداث التي تمت عقب رحيل أموري عن مصر دون أن

---

(١) راجع الكامل ، ج ١١ ص ١٠٤ ، وأتابكة الموصل ، ص ٢٥٥ ، والروضتين ، ص ١٦١ .

(٢) الذهبي : ص ١٤١ .

(٣) أخذ الناس يحرضون صلاح الدين على الوثوب على الخليفة ، حتى إن الشاعر العماد ، كتب إليه محرضا ، وما كان للعماد أن يجرؤ على هذا لولا ما رآه من الرغبة الصريحة عند صلاح الدين في القضاء على العاضد ، ولا شك أن نور الدين — وإن كان ينكر القتل — إلا أنه كان يطمع في إزالة الخلافة الفاطمية من مصر ، وفي ذلك يقول الشاعر :

رد الخلافة عباسية ودع الدعي فيها يصادف شر منقلب
لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها فالحزم عندى قطع الرأس والذنب

راجع الروضتين ص ١٦٠ ، درة السلوك ، ص ٦ ب .

يحقق هدفه أحداثا داخلية محضة ، بل لقـــد رأى الصليبيون فيها ما يهدد كيانهم كمستقرّين فى بلاد الشرق الأدنى ، ولم تفت هذه الحقيقة أحداً من صليبيي الشام ولا الإمبراطورية البيزنطية ، التى وقفت ترقب ذلك الصراع عن بعد ، وهى غاضبة على أمورى أكثر مما هى غاضبة من نور الدين ، ورأت مملكة بيت المقـدس نفسها تواجه أشد الأخطار من جراء ازدياد نفوذ نور الدين المتواصل فى مصر ، ورأت الضرورة تدعوها لإحباط خطته بها ، ولم تجد فى موادعته خيراً لها ، ولذلك استقر الرأى فى المملكة الصليبية على وجوب إثارة حرب صليبية جديدة ، وإذا كان سقوط الرها — فى يد زنكى قد بعث ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيـا على النهوض بحملتهما الصليبية المعروفة بالثانيـــة سنة ١١٤٨ — وإن فشلت — فإن استيلاء نور الدين على مصر أحق بأن يثير ممالك أوربة جميعها . لذلك رأى أمورى ، ورجاله أن يبعثوا إلى ممالك أوربة سفارة ، تستنجدهم لدفع خطر نور الدين الذى يوشك أن يقضى على الامارات اللاتينية المسيحية بالشام ، واستقر الرأى أخيراً على تأليف هذه السفارة من أمورى بطريرك بيت المقدس ، وهرنسيوس مطران قيصرية، ووليم مطران عكا ، ولم يخف خبر تلك السفارة عن نور الدين [1]. كما علم بمكاتبـة صليبيّي الشام لفرنجة الأندلس ، وأزمع أمورى مكاتبة لويس السـابع ملك فرنسا ، وهنرى الثـانى ملك انجلترا ، وفردريك بربروسة إمبراطور ألمانيـا ، ووليم الثانى ملك صقلية ، وفيليب كونت فلاندر، وهنرى كونت شمبانيا، وعلى الرغم من العواصف والأعاصير البحرية فقـد تمكن البطرك أمورى من الوصول سالما إلى فرنسا ، حيث استعرض أمام ملكها لويس الســـابع الأخطار الجسام التى تهدد بيت المقدس ، وكأن ذكرى نهوضـه قبل ذلك بعشرين عاما قد نكأت جرحه المندمل ، فتعلل بانشغاله بمحاربة الإنجليز الذين ينازعونه العرش ،

---

(١) راجع الكامل، ج ١١ ص ١٥٧ ، واتابكة الموصل ص ٢٥٨ — ٢٥٩، G,T,p. 960

وأثارت هذه الذكريات نفسها جماعات عدة من الفرسان فى مختلف الممالك الأوربية ، فأحجموا عن الإقدام على خوض غمار حرب لم يعد العامل الدينى يثيرهم على القيام بها كما أثار آباءهم منذ نصف قرن(١)، أما بعثة بيت المقدس فقد دعيت إلى انجلترا ، حيث قابلت هنرى الثانى ، فأخذ يماطلها حتى مات أحد رجالها فعاد من بقى حياً دون تحقيق الهدف الذى يسعى إليه أمورى ، وحينئذاك أيقن صليبوا الشام أن الاستعانة بأوربة المسيحية ، والتفكير فى معاونتها إنما هو وهم باطل ، وهيهات أن تقدم أوربة على ذلك ما لم تحظ بنصيب الأسد .

حينذاك تلفت أمورى حوله ينشد حليفا جديداً لمعاونته فى القضاء على نور الدين بمصر واسترجاعها منه ، فلم يجد بداً من الاستعانة بالإمبراطورية البيزنطية ، وبالإمبراطور مانويل، الذى كان — رغم غضبه من تعجل أمورى فى القيام بحملته منفردا — ينظر بعين الخوف هو الآخر إلى التوسع النورى رغم أنه فى الجنوب ، فلا عجب إذا رحّب بمد يد المعونة إلى أمورى مرة أخرى فى حربه ضد نور الدين ، والواقع أن أمورى رأى — من قبل — من إمبراطور بيزنطة ما أدرك معه رغبته الصريحة فى النهوض بحرب صليبية (٢) .

أنفذ مانويل فى يوليو ١١٦٩م إلى أمورى أسطولا قويا بقيادة إندرونيك كونستفانوس Andronic Constiphanos بعد أن مر بقبرص ، وتزود بالمئونة الكافية لثلاثة أشهر ، وانضمت إليه هناك ستون سفينة بيزنطية أخرى ، وكان هذا أكبر أسطول قدر للصليبيين أن يشهدوه ، كذلك أنفذ مانويل قوة كبيرة من الفرسان والمشاة والميرة وآلات الحرب وعدد

---

(١) Tout : Empire and Papacy, p. 246 — 273.

(٢) G.T., p. 961.

القتال مع أقوى رجاله [١] . وذلك لأن الإمبراطور البيزنطى كان طامعا فى تحقيق أطماعه وأهدافه فى التوسع، حتى تدخل مصر ضمن دائرة نفوذه ، ولعل التفاتة بسيطة إلى ذلك العدد الضخم من السفن والجند والاستعدادات الهائلة كفيلة بكشف القناع عن رغبة الإمبراطور الصريحة فى الاستيلاء على مصر ، وهو تعبير مادى صريح فى الرغبة فى الانفراد دون الصليبيين بحكمها ، ولم يفت ذلك أمورى ، مما يتجلى فى تأجيله الرد على قائد الأسطول البيزنطى فى قبرص ما يزيد على شهرين حتى مات أسد الدين وملك صلاح الدين البلاد [٢] .

ثم وصلت هذه الحملة البيزنطية ترافقها جنود من مملكة بيت المقدس بقيادة أمورى إلى صور فعسقلان، التى غادرتها يوم ١٦ أكتوبر ، وبلغت الفرما فى اليوم التاسع من مبارحتها عسقلان ، وهناك أبصرت الأسطول البيزنطى فى انتظارها . ومضت الحملة والأسطول معا إلى بلد لم يكن فى حسبان مصر أبدا ، ذلك هو دمياط «ودمياط عقيلة الإسلام وثغر الديار المصرية» [٣] رغم أنها لم تكن محصنة [٤] ، واختيار هذه المدينة بالذات يفصح عن أن المحرك فى السير إنما هو البيزنطيون ، اعتمادا منهم على أسطولهم ، وعلى أية حال قد أمضى البيزنطيون وحلفاؤهم ثلاثة أيام فى نصب الخيام أمامها ، وبذلك أتاحوا لها أن تستعد لصدهم، وما كان المدينة أن تعز عليهم ، لو أنهم باغتوها بالهجوم ، كما باغتوها بالقدوم .

كان لا بد لصلاح الدين من النهوض لدفعهم ، غير أن خوفه من أن يغتنم الناقمون عليه الفرصة فيثيرون العامة ويحركونها ضده اضطره للبقاء

---

(١) G.T., p. 961. Schlumberger : Les Campagnes du roi Amaury, p. 258 — 261.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٧ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٧٤ .

(٤) G.T., p. 964— 969.

بالقاهرة مكتوف اليدين، كما كتب إلى نور الدين يصرّح له بخوفه من مؤامرات القصر الفاطمى وجند السودان (١) المحيطين بالخليفة العاضد، فبعث إليه نور الدين عساكر الشام (٢) التى بلغت دمياط فى منتصف ربيع الأول ٥٦٥ هـ (٣)، وقام هو فى الوقت ذاته بنهب بعض بلاد الإمارات اللاتينية بالشام (٤)، كما أنفذ صلاح الدين العسكر إلى دمياط عن طريق النيل، وزودهم بالسلاح والذخائر، وبعث السفن بقيادة أخيه تقى الدين عمر (٥)، وقريبه شهاب الدين محمود، وبذلك استطاعت دمياط مقاومة غزاتها الذين أمضوا أيامهم فى التأهب لمهاجمتها، وأحجموا عنها وقت خلوها من كل من يقف فى سبيلهم (٦). أما وقد بلغتها هذه الإنجادات من الداخل والخارج فقد أصبحت فى حال تمكنها من دفعهم، فلا عجب إذا هى عزت عليهم رغم ضخامة حملتهم، بل لقد ذهب المدافعون أبعد من ذلك فبنوا برجا يشهد وليم الصورى أنه أكبر من البرج الذى أقامه الصليبيون لرميها منه بالمنجنيق، كما ينص على أن المسلمين والأقباط كانوا يدا واحدة فى دفع المغيرين. ولقد زاد الطين بلة تحت أقدام البيزنطيين «هطول الأمطار ليلا ونهاراً» فتحولت خيام الصليبيين ومعسكراتهم إلى طين وماء، حتى اضطروا «لحفر الحفر حولها لتتجمع فيها مياه الأمطار (٧)»، ثم طلب صلاح الدين النجدة السريعة من مولاه نور الدين (٨)، نظراً لشدة وطأة الصليبيين وإلحاحهم فى مهاجمة دمياط، غير أنه لم يلبث أن دب بين المغيرين أنفسهم ما أضعف عزائم

(١) ابن الأثير، أتابكة الموصل، ص ٢٥٩.
(٢) أتابكة الموصل، ص ٢٥٩.
(٣) أبو شامة، ص ١٥١.
(٤) أتابكة، ص ٢٥٩.
(٥) الروضتين، ص ١٥١، درر التيجان، ج ٤، ص ٣٦٨ — ٣٦٩.
(٦) ابن الأثير: الكامل، ج ١١ ص ١٥٧.
(٧) راجع الروضتين، ص ١٤٩ — ١٥١، G.T.,P 667 وما بين الأقواس مترجم عن المرجع الأخير.
(٨) الكامل، ج ١١ ص ١٥٧، الأتابكة ص ٢٥٩.

جندهم ، وهو نقصان الطعام عندهم يوما بعد يوم ، لأن الأسطول البيزنطى لم يجلب معه غير مئونة ثلاثة أشهر ، استنفد معظمها فى المدة التى انقضت منذ خروجه من بلاده حتى مغادرته عسقلان . يضاف إلى ذلك أن الكثرة العددية جعلت مشكلة التموين صعبة ، فضلا عن استحالة الحصول على شىء من دمياط وما جاورها [١] . ثم إن جماعات من المصريين والعرب اغتنمت الفرصة ، وشرعت تغير بين آن وآخر على خيام العدو فتسلب ما تصل إليه أيديها ، كما تمكنت من إضرام النار فى بعض سفن الأسطول [٢] . فأدت تلك الظروف مجتمعة إلى تسرب القلق إلى نفوس الصليبيين والبيزنطيين ، إلا أنهم أخذوا مع هذا فى مداومة الحصار . غير أن لكل شىء نهاية ، إذ سرعان ما أحس القائد البيزنطى بشدة فتك الجوع بجنده ، وأدرك أن البقية منهم لن تستطيع الصبر طويلا على ذلك الجهد الشاق ، ومراوحة القتال مع قلة الزاد ، وبعد الديار ، ومشقة الحرب ، فأشار على ملك بيت المقدس بمهاجمة البلد مرة واحدة ، حتى يسقط فى أيديهم ، فيتفرغوا لبقية البلاد التى فى طريقهم والتقدم شطر العاصمة . غير أن أمورى لم يوافقه على خطته ، متعللا بأنها تؤدى إلى هزيمة الجيش ، فأنكر ذلك كونستفانوس ، وعقد — بعد منتصف إحدى الليالى — مجلسا من مقدمى جيشه ، واستعرض معهم الموقف ، وأمرهم بمهاجمة البلد والاضطلاع بالهجوم دون الصليبيين فكان ذلك أول تصدع للحلف البيزنطى الصليبى ، مما أغضب أمورى الذى رأى أنه أدرى من كونستفانوس بخطط القتال فى مصر [٣] . ولعل ملك بيت المقدس الطامع فى الاستبداد بحكم بلاد النيل قد رأى أن البيزنطيين يرمون من وراء انفرادهم بالفتح إلى الانفراد بحكمها ، وبذلك تضيع جميع جهود الصليبيين . أضف إلى هذا ما كان يؤمله أمورى من أن يرهق الحصار صلاح الدين فيعود إلى ما كان

(١) G.T.p. 967. ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٤٦ — ٣٤٧ .

(٢) G.T.p. 968.

(٣) Schlumberger: op. cit. p. 278–280 (d'après Nicetas).

متفقا عليه من قبل بين مصر وبيت المقدس أيام شاور، من دفع الجزية السنوية، التى ينص وليم الصورى على أنها annua tributi pensio ، لذلك دبر أمورى وسيلة للاتصال بينه وبين المصريين، ليفسد على البيزنطيين خطتهم، وإن كان يعتقد فى الوقت ذاته أنه قد أفسد آماله فى الاستيلاء على مصر، ويظهر أن البيزنطيين أنفسهم قد لجأوا إلى مثل ذلك الاتصال بالمصريين (١)، غير أننا لا ندرى على وجه التحقيق الشروط التى تم الاتفاق عليها (٢) ولا ندرى من البادىء بمفاوضة المصريين : البيزنطيون أم الصليبيون؟ ويذهب وليم الصورى إلى أن البيزنطيين هم الذين عمدوا إليها أولا، وقد يبدو ذلك محتملا نظراً لقلة ما بيدهم من الذخيرة، غير أنه يمكن استبعاد هذا لأنهم كانوا يأملون أن تسقط دمياط فى أيديهم فيعوضهم ذلك شيئا، والأمر الثانى أنه يهمهم فتح مصر بحد السيف، لتغدو حقا للإمبراطورية لا ينازعهم فيه منازع.

لكن الأرجح هو أن أمورى كان البادىء بالمفاوضة، ليفسد على حليفه البيزنطى خطته، وليستطيع أن يعود سريعاً إلى فلسطين، لمواجهة نور الدين الذى اغتنم فرصة خلو الإمارات اللاتينية بالشام من أربابها فأخذ فى الإغارة على حصن الكرك (٣) وغيره من النواحى التى بأيديهم، وعلى أية حال فسد أمر الحملة الصليبية البيزنطية على مصر، وما أقسى تهكم ابن الأثير حين شبهها فى خذلانها بالنعامة خرجت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين (٤)، وهكذا انعقدت الهدنة أو الموادعة بين المتحاربين، وأخذوا فى التزاور فيما بينهم، ورحب المصريون بالصليبيين ودعوهم إلى بيوتهم، ورجع مقدم الأسطول البيزنطى

---

(١) G.T.p 968 — 999.

(٢) ليست لدينا أية معلومات عن الشروط التى تم الاتفاق عليها بين المصريين والمغيرين، Schlumberger : Les Campagnes du roi Amaury en Egypte, p. 282. بل إن ليدحض ما يزعمه المؤرخ البيزنطى نكتاس من أن المصريين عرضوا أن يدفعوا لبيزنطة جزية سنوية.

(٣) الكامل، طبعة أوربة، ص ٥٧٠.

(٤) الكامل، ج ١١ ص ١٥٨، الذهبى ص ٢٤٣.

إلى بلاده، وما لبث أن وافاه هناك جماعة من المصريين يحملون الهدايا وشروط الصلح إلى الإمبراطور البيزنطى[١]. أما أمورى فقد رجع بجيشه إلى بلاده، وكانت نكبة الإمبراطورية البيزنطية لا تقل عن نكبة الصليبيين، إذ أتلفت العاصفة فى الرجوع كثيرا من السفن، وهلك كثيرون من الجند والبحارة[٢] ولم يكن ذلك كل ما تمخضت عنه الحملة، بل هناك ما هو أشد وأنكى، ألا وهو تمكن الأمر لصلاح الدين — أو لمولاه نور الدين مؤقتا — فى مصر، الأمر الذى يخشاه كل من البيزنطيين والصليبيين، كما ضعف أمر الخليفة العاضد الذى أصبح تابعا لنور الدين سلطان دمشق ولا عاضد له، كما انقطعت التجارة بين مصر وبلدان الساحل الفلسطينى[٣].

وهكذا باتت القوى الصليبية بين شقى الرحى، وهو ما أراده نور الدين، وما لبثت مملكة بيت المقدس أن أحست بما صارت إليه حين خرج صلاح الدين فى مستهل ديسمبر ١١٧٠ (= ٥٦٦ هـ) قاصدا غزة، حتى إذا وصل إلى دير البلح (الداروم[٤]) استقر هناك، وأرسل سرية هاجمت ربض غزة[١] التى كان أمورى قد أقام بها حصنا وحامية لدفع أى خطر يأتيه من الجنوب، وعلى الرغم من قوة تلك الحامية فإنها عجزت عن دفع هجوم صلاح الدين، الذى استمر يومين سوياً. وبلغ الخبر أمورى، فخشى أن تقع تلك المنطقة فى يد عدوه، فتصبح مملكته أدنى إلى شقى الرحى، وبعث فى جميع الجهات مناديا أن يخرج الفرسان لدفع الخطر الجديد، فلبى الكثيرون نداءه، لا سيما وقد أدركوا أنهم أصبحوا عرضة للغارات وما يتبعها من ضياع السطوة والسلطان،

---

(١) Schlumberger : op. cit. p. 284 (d'aprés Nicétas).

(٢) اغتنم نور الدين هذه الفرصة فأخذ يعيث فساداً فى نواحى البلاد الصليبية، كما فعل فى عشتر التى نزل عليها ولم يبرحها حتى وأتاه خبر زلزال ١١٧٠، الذى أتاح لكل من الفريقين فرصة اشتغلا فيها بعمارة بلادهما، راجع Dassaud : Topogr. Hist. de la Syrie; p. 328

(٣) Heyd : op. cit. p. 399 — 400.

(٤) cf. G. T., p. 973.

(٥) ابن الأثير : الكامل، ج ١١ ص ١٦٤.

وقد يؤدى الأمر فى النهاية إلى إخراجهم من بلاد الشام ، دون أن يجدوا فى أوربا منجدا أو معينا ، لا سيما أنه لم يعد لهم أمل ما فى مساعدة الدولة البيزنطية لهم ، بعد أن فجعوها فى آمالها مرتين متعاقبتين ، أدت ثانيتهما إلى فقد قسم كبير من الأسطول البيزنطى .

ثم خرج الصليبيون فى الشهر ذاته فى العدد الكثيف إلى حيث صلاح الدين ، فرأى أن يغادر « دير البلح » إلى غزة ، معقل فرسان الداوية ، لعله يصيب منها غرضاً ، ولكن قلعتها عزت عليه ، فاضطر للرجوع إلى مصر كما عاد أمورى إلى فلسطين .

غير أن هذه السرية أظهرت للعيان مقدار ما أضحت فيه القوى الصليبية من خطر داهم من الشمال والجنوب ، وتجلى ذلك بأوضح صورة مرة أخرى حينما أغار صلاح الدين مصر على «أيلة» [٢] ، كما أغار نور الدين على أنطاكية وطرابلس فى وقت واحد أى فى سنة ١١٧٠م ، حتى ليمكن القول بأن صلاح الدين كان يسير فى غزواته بأمر نور الدين ، على أن المراجع العربية تجمع على أن صلاح الدين لم يشأ مقابلة نور الدين فى تلك السنوات ، وهو مما لا يدخل فى صلب العلاقات بين الصليبيين وبين الملك نور الدين ، الذى أغار على بعض بلدان الإمارات اللاتينية بالشام ، وذلك أنه استغل حادثة جرت لمركبين خارجين من مصر ، لجآ لمدينة اللاذقية ، فاستولى عليهما أهلوها الصليبيون ، وادعوا أنهما انكسرا ودخلهما الماء ، وكان من الشروط المبرمة بينهم وبين المسلمين أن كل مركب ينكسر ويدخله الماء يأخذونه لهم ، لكن نور الدين لم يقبل هذه الحجة ، بل رأى الفرصة سانحة للإغارة على

(١) لما كانت أيلة على خليج العقبة على ساحل البحر الأحمر مما يلى الحجاز فقد رأى صلاح الدين إنشاء أسطول جديد نقى فى دمه ، تمكن بواسطته من محاصرة البلد بحرا وبراً ، فلم يلبث أن سقط فى يده ، وأسر الحامية وساقها إلى القاهرة واستباح أهل أيلة ، وكان سقوطها فى يده فى ربيع الآخر ٥٦٦ (ديسمبر ١١٧٠ م) . راجع النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨٥ — ٣٨٦ ، ابن الأثير . الكامل ، ج ١١ ص ١٦٤ ، وأتابكة الموصل، ص ٢٧٩ — ٢٨٠ والروضتين ، ص ١٥٥ ، درر التيجان ، ق ٤ ، ص ٣٦٩ .

بلادهم ، فأرسل سرية إلى أنطاكية ، ونهض هو بنفسه فى جماعة من العسكر إلى طرابلس حيث حاصر حصن « عرقة » ، وخرب ربضه ، ولم يستطع الاستيلاء على الحصن ، كما أنفذ سرية أخرى إلى قلعة « العريمة » وصافينا فاستولى عليهما عنوة ، واشتد نور الدين فى بعث تلك السرايا التى أزعجت الصليبيين الذين أدركوا أنهم لن يستفيدوا شيئا من ورائها ، سوى ضياع الكثير من قلاعهم وحصونهم إن استمرت الحال على هذا المنوال ، وأنه من الخير لهم أن يجيبوه إلى ما طلبه ، وهكذا ضمنوا العيش فى هدوء ، وأسلموه شحنة المركبين المصريين[1] ، ولا شك فى أن عدم التعاون بين نور الدين وصلاح الدين فى تلك السنوات جعل أعمال نور الدين بصدد الصليبيين تسير على غير خطة معينة ، وتقتصر أحيانا على مناورات سياسية .

ولعل أوضح الأمثلة على ذلك أنه عندما اتفق « أمورى » والإمبراطور مانويل كومنين مرة أخرى على العمل معا لمقاومة نور الدين ، لجأ نور الدين إلى إثارة سلطان سلاجقة الأناضول ضد الدولة البيزنطية ، وكان أمورى قد رأى — قبل مفاتحة الإمبراطور فى هذا الموضوع الخطير — أن يعقد مؤتمرا من الصليبيين بالشام ، لبحث فكرة الاستعانة بالإمبراطورية البيزنطية ، والتأم المؤتمر فى مستهل سنة ١١٧١ فى بيت المقدس ، ودعى المؤتمرون للنظر فى القيام بحرب صليبية ، والاستعانة بمانويل كومنين . ثم مضى أمورى بنفسه إلى القسطنطينية فى نفر من وجوه الصليبيين وأشرافهم ورجال الدين ، واستثنى من ذلك وليم الصورى حتى لا ينكأ الجرح ، فيذكر القوم الحلف الذى ولد فى بيزنطة وما لبث أن مات فى بيت المقدس ، وأبحر الوفد الصليبى يوم ١٠ مارس ١١٧١ ورافقه فيليب دى بيللى بأسطوله[2] ، وذلك لكى يأمن أمورى حوادث الطريق وعواصفه . وتلقى البيزنطيون الوفد

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ص ١٥٩ ، ١٦٧ ، والأتابكة ، ص ٢٧٩ — ٢٨٠ ، والروضتين ، ص ١٥٥ .

(٢) Du Cange-Rey : Familles d'outre-mer, p. 875.

الصليبي بالترحاب (١) فما هي علة هذا الترحاب ؟ أهي الرغبة من جانب البيزنطيين في العودة إلى التحالف القديم؟ أم هي المتعة في رؤية ملك الصليبيين يغادر بلاده لمفاوضة وريث ألكسيس كومنين ؟ على أية حال فقد بالغ الإمبراطور في الاحتفاء بالملك ، حتى لكأن القوم في استعراض(٢)، وطال دور الترحيب ، حتى كاد أموري أن يمل المقام ومشاهدة آثار البلاد والنزهة على شواطيء البسفور ، ولما جاء دور المفاوضات التي جرت بين العاهلين على انفراد ، استعرض أموري الموقف من جميع نواحيه ، وأشار إلى ما دبّ بين نور الدين وصلاح الدين من الجفوة التي لابد من اغتنامها(٣) ، ولم يفته أن ينص على إثارة المصريين(٤) وأشاد إلى تعلقهم بالشيعة الفاطمية كمذهب(٥)، حتى وافق الإمبراطور مانويل كومنين على القيام بعمل مشترك(٦) .

أما نور الدين فقد رأى أن يقابل تلك الحركة بحركة ضد الدولة البيزنطية ، فدفع قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان صاحب ملاطية وسيواس إلى غزو أطراف الإمبراطورية البيزنطية ، أو إنجاده نور الدين بعسكر من عسكره لمحاربتها (٧) ، وقصد نور الدين من ذلك أن تجد الدولة البيزنطية نفسها بين عدوين يتاخمانها ويغيران عليها هما قلج أرسلان و « مليح » صاحب الدروب الأقصى ، ومن ثم ينصرف الإمبراطور مانويل عن تنفيذ ما اتفق عليه مع أموري . وهذه هي علة إبطاء مانويل كومنين في تنفيذ اتفاقه مع

---

(١) G.T., p. 981 — 982 ويلاحظ سكوت معظم المؤرخين البيزنطيين عن هذه السفارة ، بينما أشار « كناموس » إليها إشارة موجزة لا تعدو ثلاثة أسطر ، وذلك بتحقيق Schlumberger : op. cit. p. 311 غير أن وليم الصوري هو الذى أفاض في ذكر تفاصيلها ودقائقها .

(٢) G.T., p. 984 — 987.

(٣) G.T., p. 984 — 985.

(٤) Ibid., Loc. cit.

(٥) Ibid., loc. cit.

(٦) Ibid., p. 987 — 988.

(٧) ابن الأثير . الكامل ، ج ١١ ص ١٧٦ ، الأتابكة ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

ملك بيت المقدس (١) . ويشير ابن الأثير إلى أن قلج أرسلان أجاب دعوة نور الدين . أما شالندون فيشير إلى أنه رفض ملتمسه ، وأنه التقى بمانويل سنة ١١٧٣ ، وأكد له حرصه على ما بينهما من الموادعة ، عازف عن مد يد المعونة إلى نور الدين ، والظاهر أن الرأى اللاتيني أصح ، لأننا لا نسمع شيئا من جانب قلج أرسلان ، على حين قام « مليح » الأرمنى فاستولى على أذنة والمصيصة وسيواس .

غير أن القدر لم يمهل نور الدين طويلا ، فما لبث أن مات (٣) بقلعة دمشق ودفن بها ، وخيل إلى أمورى أن الفرصة جد مواتية لتحقيق هدفه ، إلا أن الأجل لم ينسأ فى حياته هو الآخر فمات فى ١١ يوليو ١١٧٤ . وبذلك انطوت صفحة من تاريخ الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، لتبدأ صفحة جديدة من التجمع والوحدة .

---

(٢) Schlumberger : op. cit. p. 335.

(٣) درر التيجان ، ص ٣٧٠ ، الذهبى ، تاريخ الإسلام ، ص ٢٥١ ، الجوهر الثمين ، ص ٩٢ ، الدول المنقطعة ، ورقة ١٦٤ ا ، ب .

الفصل الخامس

مظاهر الحياة العامة فى المجتمعين الصليبي والاسلامي

فى الشرق الأدنى خلال القرن الثانى عشر

الجاليات المختلفة فى بلاد الشام . طبقات المجتمع الصليبى . بعض
الوظائف والعادات الدالة على تأثر الصليبيين بالمجتمع الشرقى
ونظمه الحكومية . النظم الصليبية العامة . العلاقات
الاجتماعية بين أفراد المجتمع وطبقاته المختلفة
حفلات الزواج

ربما خرج القارىء للفصول السابقة بصورة للعلاقات بين المسلمين والصليبيين بالشرق الأدنى سداها العداء ، ولحمتها الحروب والبغضاء ، وتكاد الحقيقة تكون عكس ذلك ، وليس أدل على ما كان بين المسلمين والصليبيين من علاقات عامة وخاصة من عبارة لابن جبير — رحالة القرن الثانى عشر — فى أنه كان بينهم حد يعرف بحد المقايسة ، فهم يتشاطرون الغلة على استواء ، ومواشيهم مختلطة ، لاحيف يجرى بينهم فيها [1] . ولقد كانت الحياة الاجتماعية فى بلاد الشام إبان العصر الصليبى مزيجاً من الحياتين : الشرقية الإسلامية ، والغربية الصليبية ، تداخلت إحداهما فى الأخرى ، وأثرت كل منهما فى صاحبتها وتأثرت بها تأثراً يختلف قوة أو ضعفا حسب الاحتكاك بينهما ، غير أنه قد يكون من التعسف أن نحاول وصف ظواهر اجتماعية ثابتة ، اختص بها النصف الأول من القرن الثانى عشر للميلاد ، لأن التطور كان يعمل فى حياة الفريقين عملا متصلا وعلى كر الأيام ، ولم يحدث قط — بين يوم وليلة — أن هجر الناس دفعة واحدة قديما ما ، أو أخذوا بأسباب جديدة ما .

ولقد قدر لبلاد الشام أن تكون مسرحا اختلفت إليه أجناس شتى من

الخلق، ومذاهب متباين بعضها عن بعض سياسياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وفكرياً، ولا نذهب فى القول مذهب القائلين بأن تلك البلاد ألفت أن تهاجم وتغزى كما قال ستيفنسن (١)، ولكنها وسعت فى العصور الوسطى جماعات قد نعجب إذا استعرضنا أسماءها كالبنادقة، وأهل مرسيليا، وأمالفى، والجنوية الذين يمثلون النشاط التجارى البحرى. هذا إلى جماعات من المغامرين المخاطرين الذين قدموا مدفوعين بعوامل شتى، أقلها العامل الدينى وإن كان هو أظهرها للعيان، وقد ربط المغامرون حياتهم بالشرق بعد أن ضاقت بهم سبل الحياة فى بقاع أوربة، وإلى جانب هؤلاء الجماعات الشامية المسيحية من يعاقبة ونسطوريين وأرمن ومارون وسريان، وأولئك جميعا يكونون كتلة دينية متشعبة، لا تقل عنها الكتلة الإسلامية، وقوامها السنيون، والشيعة، والدروز، والباطنية، والحشاشون، ثم هناك أيضاً اليهود، فكانت بلاد الشام بهرة اجتمعت فيها كل هذه القوميات والمذاهب، وتأثرت حضارتها الذاتية بحضارات تلك الفئات العجيبة.

وقد يخطىء من يظن أن العلاقات بين المجتمعين الإسلامى والصليبى إبان القرن الثانى عشر وما تلاه كانت حربية فقط، وعذر من يذهب إلى ذلك واضح فى أن كلا من الفريقين ناضل فى سبيل معتقداته ومقدساته الدينية فى بادىء الأمر، غير أن هذه الفورة الدينية ما لبث أن خمدت — إن لم تكن تلاشت — وحلت مكانها نظرة للمصالح الذاتية عند الجانبين، ومظهر هذا التطور الجديد هو استئناف العلاقات التجارية، والتبادل التجارى، بدرجة أنه تكونت فى بلاد الشام أماكن لجاليات أوربية مختلفة، ساعد على قيامها وجود كثير من بلدان الشام على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فهى منافذ للتجارة بين آسيا وأوربة، وأهم هذه الجاليات جماعة البنادقة الذين أسسوا لأنفسهم حياً معروفا باسمهم، فى كل ثغر من ثغور الشام الهامة، وثبت لهم

---

(١) Stevenson : The Crusaders in the East, Introd., p. 1

هذا الحق بمقتضى الاتفاقية المعقودة بينهم وبين مملكة بيت المقدس سنة ١١٢٤ ، هذا إلى جانب ما كان لهم من القناصل فى صور وجبيل وأنطاكية للإشراف على الفنادق الموسومة باسمهم[١] ، بل لقد ذهب البنادقة أبعد من ذلك ، حين صارت لهم امتيازات خاصة، كعقد محاكم خاصة بهم للنظر فى شئونهم القضائية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أقاموا سجونا تضم المذنبين منهم[٢]. وكان هؤلاء البنادقة يؤلفون مجتمعاً قائماً بذاته ، له قوانينه الخاصة ، وسجونه ، وكنائسه ، وفنادقه ، وقناصله ، وكان البنادقة يقطعون يمين الولاء لهذا القنصل دون غيره ، وهذا يفسر لنا علة وقوفهم أحيانا إلى جانب المسلمين فى صراعهم مع الصليبيين ، محتجين بأنهم فى حل من تأييد إخوانهم فى الدين بهذه اليمين المقطوعة لغيرهم ، كما يلاحظ أن الأجانب الذين يقيمون فى الحى البندقى يخضعون لأحكام الجمهورية ، مهما تكن جنسيتهم .

وهناك أيضا جماعة التجار من أهل أمالفى من أعمال إيطاليا ، وهم أنشط العناصر التجارية الأوربية ، ويرجع وفودهم إلى الشرق إلى ما قبل الحروب الصليبية بعدة قرون ، أعنى منذ القرن السادس للميلاد ، حيث أقاموا فى بيت المقدس بيمارستاناً لمعالجة الحجاج والتجار الأوروبيين الوافدين لزيارة البقاع المقدسة[٣] .

ويلى هؤلاء فى المرتبة جماعة الجنوية ، ومركزهم الرئيسى بيروت ، وقد امتد نفوذهم إلى الداخل حتى بلغ بلدة سيس بأرمينية الصغرى ، فأقاموا بها البيوت وفندقا وكنيسة ، وحذا حذوهم جماعة البيازنة ، الذين أصبح لهم قناصل كما للجنويين منذ سنة ١١٧٠م فى أنطاكية ثم فى طرابلس بعد ذلك بربع قرن[٤] .

---

(١) Rey : Colonies Françaises en Syrie, p. 70

(٢) وذلك حسب اتفاقية يونيو ١٢٧٧ المبرمة بين بوهيمند السادس أمير أنطاكية وبين جاك كونتارينى دوق البندقية . راجع Rey : Recherches sur la Domination Latine en Orient, p. 37.

(٣) Brehiér : L'Eglise et l'Orient, p. 96

(٤) Rey : op. cit. d'après Dol Borgo, Dip. Pisani, p. 85.

أما من الناحية الاجتماعية فهناك فئات ثلاث: هى الرقيق، والطبقة الوسطى، ثم طبقة الأشراف الصليبيين، ومنهم فئة حربية قوامها فئات الجند المختلفة، والعاملون فى ميدان القتال على أية صورة.

أما العبيد، أو الرقيق، أو الأكارون — حسب ما تسميهم المراجع العربية — فيكادون يؤلفون مجتمعا قائما بذاته، وطبيعى أن يزداد عددهم يوما بعد يوم، تبعا للظروف المختلفة التى هى السبب فى وجودهم، وكانت تجارة الرقيق نافقة السوق فى تلك الأيام، يُقبل الأشراف على الانتفاع بها، ولا يتحرجون عن ممارستها، غير أن القائمين بها فى العادة كانوا من التجار الجنويين والبنادقة الذين أثروا أثراء فاحشاً من جراء مزاولتها، ووصل مبعوثوهم إلى البلاد البعيدة، فبلغوا بلاد ما وراء النهر، وتأتّى من جراء ذلك أن أصبح سوق الرقيق الذى يقوم عليه أهل جنوة والبندقية يضم أصنافا مختلفة وأنماطاً متباينة، وألوانا غير متجانسة، فمنهم الأرمنى والنوبى والقوقازى والفارسى والهندى والديلمى، ومنهم اليونانى والروسى. وامتدت أعمال هؤلاء التجار حتى بلغت بلاد العرب ذاتها، فكانت جدة من الموانى الهامة التى عرفت بتجارة الرقيق الذى يجلبه إليها النخاسون من بلاد الحبشة، وهناك مراكز تجارية أخرى لتلك التجارة بالذات، وللرقيق الوارد من جورجيا وروسيا وإيران وأرمينية الصغرى. وكان القوم يقبلون على شراء الرقيق إقبالا عظيما، تدل عليه مغالاة النخاسين فى الأثمان، وكثرة الضرائب التى يدفعها التجار عن الرءوس التى يجلبونها، ونوعها.

على أن هؤلاء الرقيق كانوا يقومون — كما هو المفروض — بخدمة السيد، وتكون حياتهم رهن تصرفه، وقد انتشرت فى البيئة الصليبية عادة ألفها بعض جماعات المسلمين، وهى استعمال الخصيان فى الحريم، حيث يقومون بخدمة نساء الشريف وبناته، بينما يحرم ذلك على الخادم الأوربى أو العبد من أى جنس كان.

على أن هناك نوعا آخر من الرقيق هو أسرى الحروب التى تشب بين المسلمين والصليبيين ، وأفراد هذا الفريق — إذا بقوا فى أسر الشريف — أرغمهم على احتراف الزراعة والقيام بالحرف الصناعية التى يحتاجها السيد فى مزرعته ، أو قهرهم على العمل فى البناء[١] ، غير أنه تحرم عليهم المتاجرة. وعلى الرغم من هذه القيود المفروضة على الرقيق فإنه كان محروما من الحقوق[٢]، وكان الصليبيون يتمسكون أشد التمسك بوجوب تنصير العبد إذا حل ببقعة مسيحية ، وكان مولاه فى الوقت ذاته مسيحياً . وغير بعيد أن يحملوه على اعتناق مذهبهم الدينى الخاص ، فإذا تنصر لم يجيزوا بيعه أصلا لمسلم مهما أغلى[٣] ثمنه ، ويرون فى ذلك حطة للصليبى ، إن لم يكن خرقا دينيا ، على حين كانت الحال على العكس إزاء رقيق الحرب ، فقد يقبل إطلاق سراحه إذا افتدى[٤] . وقد يذهب الصليبيون لعرض أسراهم على سراة المسلمين[٥] ، أما الأسير من الأشراف فلا يسترق بحال من الأحوال ، لكن يحتفظ به للحصول على فدية كبيرة . وقد حدث فى إحدى المعارك بين المسلمين والصليبيين أن أسر المسلمون روبرت صاحب حصن صهيون — الواقع بين اللاذقية وحماة — فلما جىء به إلى إيلغازى أمير ماردين رأى الأسير أن يفتدى نفسه بعشرة آلاف دينار . فقال إيلغازى لمن حوله « امضوا به إلى طغتكين لعله يفزّعه فيزيدنا فى القطيعة » فجاءوا به وهو يشرب ، فما رآه طغتكين حتى تناول سيفه وقتله ، فعتب عليه إيلغازى وقال « نحن محتاجون إلى دينار واحد للتركمان . وهذا كان قد قطع على نفسه عشرة

---

(١) راجع ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٥٤ .

(٢) فيما يتعلق برقيق الأرض ، راجع p.Paris : Les Historiens des Groisades, p. 8.

(٣) Assises de Jerusalem, t. II, p. 141, 281 ; Archives de l'orient latin, t. I, p. 490.

(٤) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٧١ .

(٥) ابن منقذ : شرحه ، ص ٨١ .

آلاف دينار ، أنفذته إليك لتفزعه لعله يزيدنا فى القطيعة[١] » .

أما الفئة الثانية وهى الطبقة الوسطى فتتألف من التجار والزراع وعمال الإدارات المختلفة، عدا الحربية والموظفون ، وكان التجار طبقة ممتازة، تخول من الحقوق مالا يكاد تخوله بقية الفئات الأخرى ، لا ينظر فى ذلك إلى دين التاجر أو جنسيته ، حتى ليحدثنا أحد كتاب القرن الثانى عشر عما شاهده بنفسه من احترام المسلمين والصليبيين على السواء لتاجرين من كبار تجار المسلمين، هما نصر بن قوام ، وأبو در ياقوت « فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما، وقدْرُهما عند الفرنجة والمسلمين خطير[٢] » . كما كان يصرح للتجار بإقامة الخانات فى غير بلادهم ، تنزل فيها قوافلهم .

وينقسم الخان فى العادة إلى قسمين : الطابق الأسفل وينزلون به رحالهم ، أما الطابق العلوى فلإقامة التجار ذاتهم ، ويحسن أرباب البلد معاملة التجار « برفق وتؤدة ، دون تعنيف ولا حمل[٣] » . ولم يكن للدين دخل فى هذه المعاملة ، ورغم ما قد يكون بين بلدين ما من الحرب إلا أن ذلك لا يقف حائلا دون استمرار الحركة التجارية والتبادل التجارى بينهما، وكان المألوف فى هذا العصر أن يطلب التجار المسلمون حماية جماعة معينة فى البلاد التى يدخلونها وتكون فى حوزة الصليبيين ، فلا يمسهم أحد ما بسوء ، وهذا هو الشأن مع التجار المسلمين من أهل الموصل ، الذين كانوا يذهبون إلى عكا ، فيطلبون أن يكونوا تحت حماية فرسان الداوية ، كما أن التجارة قلّلت من الحدة الدينية التى قد تكون بين الجماعتين ، إذ اعتاد القوم من صليبيين ومسلمين أن يعقدوا أسواقا تجارية سنوية ، يفد إليها التجار دون نظر للفارق الجنسى أو الدينى[٤] ، وقصة التاجرين نصر وأبى در خير شاهد على هذا القول .

---

(١) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١١٩ — ١٢٠ .
(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٥٤ — ٤٥٥ .
(٣) ابن جبير : شرحه ، ٣٤٩ .
(٤) G.T., p. 718.

كان من جراء اشتداد التنافس التجارى وارتفاع شأن الطبقة الوسطى اضطرار الصليبيين إلى اصطناع الوظائف المختلفة ، لا سيما التى كانت مألوفة عند المسلمين ، وأهمها المحتسب ، وقد أخذوها عنهم بلفظها ونصها[١]. وكان الصليبيون يؤثرون إيكال هذه الوظيفة إلى رجل مسلم ، علما منهم بأن ذلك أقرب إلى طبيعة الأمور فى بلد شرقى إسلامى ، وإلى جانب وظيفة المحتسب نشأت وظيفة أخرى اقتضاها تعدد الإدارات فى العصر الصليبى هى استعمال « الكتاب » ويتقلدها الموظفون من الصليبيين والمسلمين على السواء» ، وعلى الرغم من أن كتاب الديوان (الجمرك) فى عكا من النصارى[٢] ، إلا أنه كان يتطلب منهم حذق العربية لسانا وكتابة ، ورئيسهم يعرف بالصاحب ، كما أخذ الصليبيون عن المسلمين وظيفة « المستحفظ » وسموها Moafese[٣] ، وهكذا نرى أن الطابع الإسلامى كان بارز الملامح ملموساً فى الإدارة الصليبية . وهناك كثير من الألفاظ فى التجارة والإدارة، يمكن ردها — دون تعسف — إلى أصولها العربية ، وليس ذلك بالمستغرب فى بيئة كان لابد لها من أن تأخذ بقدر ما تعطى .

وأما الطبقة الثالثة فى المجتمع الصليبى فهى طبقة الأشراف والنبلاء ورجال الدين ، وهى طبقة تعيش فى نعيم من الحياة يسَّرته لها أملاكها الشاسعة[٤]، واحتفاظها بما ورثته من أوطانها الأولى وحملته معها إلى الشرق من الاعتراف بالإقطاع كنظام اجتماعى مفروغ منه ، حتى لقد كان الشريف الصليبى فى بلاد الشام يفرض على أتباعه الإقطاعيين إمدادهم إياه بالخيل والجياد إذا مادعت الضرورة الحربية إلى ذلك[٥] . كما أن هؤلاء الأشراف

---

(١) ابن خلدون . المقدمة ، الحسبة للشيزرى (تحرير السيد الباز العرينى) غير مطبوع .

(٢) Brehier : L'Eglise et L'Orient, p. 94.

(٣) Arch. de l'Orient Latin, t. I, p. 256.

(٤) Brehier : L'Eglise et l'Orient, p. 96 – 97

(٥) G.T., p. 975

استطاعوا اكتناز الثروات الضخمة من وراء اشتغالهم بالتجارة ، لاسيما مع بلدان الشرق الأقصى ، التى كانت صلاتها التجارية ببلاد العراق والشام ترجع إلى ما قبل الصليبيين بأكثر من قرنين ، وبلغت ثروة سورية مبلغاً عظيما ، يدل عليه مقدار دخل بيت المال(١) . كما أن المسلمين لم ينقطعوا أصلا عن ركوب بحار الصين سعياً وراء ما اشتهرت به تلك البلاد من أجود أنواع الحرير الذى عم استعماله فى بلاد الشام حتى كان مبتذلا ، واتصلوا بالغرب ، فكانت حلب ودمشق وحمص وحماة معروفة لدى التجار الأوروبيين بأنها مراكز التجارة لهم(٢) .

وهناك من مصادر الثروة المالية « الجرك » أو الديوان كما يسميه المسلمون ، وقد تعددت مصادر دخله المالى، فبعضه يجبى من القوافل لا سيما القادمة من مصر(٣) وبلاد العرب القاصدة دمشق ، وهى قوافل متواصلة السير بين القطرين ، وكانت الضرائب تجبى على أحمالها فى مدينة الداروم(٤) ، وهى محطة للتفتيش والتقدير « والتمكيس » ، كما كان الجرك فى عكا مصدراً أساسياً من مصادر المال ، وقد وصفه لنا شاهد عيان بأنه « خان أمام بابه مصاطب مفروشة ، فيها كتابٌ من النصارى » (٥) . كما كانت هناك جمارك أخرى فى معظم الثغور الصليبية (٦) .

وهناك ناحية جديرة بالملاحظة ، تلك هى أن الصليبيين كانوا يعمدون فى بعض الأحيان إلى زيادة الضرائب المقررة ، وذلك حين تستنفد الحرب قدراً كبيراً من الثروة العامة ، وحين يشعر القائمون ببيت المال بحاجته الملحة

---

(١) Rey : Colonies Fran. p. 264.

(٢) Heyd : His. du Commerce du levant, t. I, p. 373.

(٣) ابن جبير ، ص ٤٤٦ .

(٤) G. T. p. 975

(٥) ابن جبير ، شرحه ص ٤٤٩ .

(٦) Heyd : op. cit. t. I, p. 375, note 1.

إلى ما يسد هذا النقص [١]، كما أنهم قد يفرضون ضرائب إضافية إذا دعت إحدى الضرورات الحربية، كإقامة الأسوار أو ترميم الحصون، دفعاً لأذى المغير [٢].

وكان من مصادر المال «الأخشاب»، وقد عرفت بلاد الشام منذ القديم بوفرة أخشابها وجودة نوعها [٣]، وأهم هذه الأشجار أخشاب الجميز [٤]، ولم يفت هذا الصليبيين ذاتهم فأكثروا من زراعتها.

كانت حياة الأشراف - فيما عدا التجارة والحرب - أميل للدعة والتراخي، وقد دفعهم إلى ذلك جو دافىء وفراغ كبير وإيثار للراحة، وتوفر ضرورات الحياة وكمالياتها، فكانوا يعيشون عيشة فيها شيء من الانصراف عما تقتضيه ظروفهم المحيطة بهم [٥] من وجود المسلمين المتحفزين للوثوب عليهم، واسترداد ما سلبوه منهم من الولايات والبلدان، فكان الأشراف الصليبيون يعيشون فى قصور فخمة، تتألف فى العادة من طابقين، فى وسطها من الداخل نافورة [٦] تتدفق منها المياه، وهذا ما لا نزال نراه فى بعض البيوتات المصرية التى لازالت شرقية فى طرازها؛ ويقاربها كثير من بيوت بغداد، حيث توجد فى وسط الدار ردهة متسعة غير مسقوفة. وكانت أرض قصور هؤلاء الأشراف محلاة بالفسيفساء، وتماشيها من المرمر ولها مشربيات، وفى الداخل صالات فسيحة، قد أبدعت يد الصانع العربى نقشها، وتفنن فى تلوينها بمختلف الأصباغ الزاهية. وعلى كل حال كانت هذه القصور تزيد فى تلك النقوش

---

(١) G. T., p. 1112

(٢) Assises de Jerusalem. t. II, p. 378.

(٣) G.T., p. 475

(٤) ابن ميسر، ص ٤٦٤.

(٥) Barker : The Crusades, p. 48 — 99, 104

(٦) وكانت توجد فى وسط الدار بركة ماء، راجع أسامة : الاعتبار، ص ١٠٧.

والتهاويل حسب ثروة الشريف صاحب الدار (١) .

وهناك صورة شيقة من صور الحياة الشرقية فى العصور الوسطى ، وقد كادت هـذه أن تنقضى : تلك هى وجود الحمامات ، والذين زاروا بغـداد أو دمشق يلحظون تعدّد هذه المسابح فى هاتين العاصمتين ، وقد يعجب المرء أن تتخذ هذه الحمامات نوادى يجتمع فيهـا المستحمون لتناول المشروبات الساخنة ولتجاذب الأحاديث ، فى جو شرقى يعبق بالدفء وأنواع الطيب ، بل لا نغالى إذا قلنا إن كثيرا من المشكلات والصفقات قـد تحل وتبرم فى هذه الحمـــامات ، وهكذا كانت الحال فى بلاد الشام وقت احتكاكها بالصليبيين ، وانتقل هذا إلى الصليبيين أنفسهم ، فكانوا لا يرون غضاضة فى غشيان تلك المسابح هم وزوجاتهم (٢) . وظاهر من تاريخ هذه الفترة أن المسلمين وحدهم ـ دون الصليبيين ـ هم الذين كانوا يقومون بإدارة هذه الحمامات ، وقد يغشاها الصليبيون أنفسهم ، غير أنه يمكن التمييز بين الجماعتين بأن الصليبيين كانوا ينكرون شد المئزر على الوسط فى الحمام ، الأمر الذى كان يثير فى بعض الأحيان مشادة ، أو يبعث على النكتة الرائعة والفكاهة اللطيفة .

* * *

أما الطبقة الحربية فى المجتمع الصليبى فيعنينا منها المشاة ، ويتألفون من رماة السهام والأقواس ، وحملة الفئوس والسيوف القصار التى يشدّونها إلى زنار حول أوساطهم ، ويصف لنا أحد الكتاب المسلمين ممن شاهدوهم بأن رجـّالة الصليبيين كانوا قسمين . قسم يسير أمام الخيالة ، وقسم مستريح يمشى ولا قتال عليه ، فإذا تعب المقاتلة أو أثخنتهم الجراح قام مكانهم المستريح ، أما الخيالة فلا يخرجون عن الرجالة إلا فى وقت الحملة (٣) ، وأما المسلمون فيذهبون فى أثناء

---

(١) هذا مجمل وصف شاهد عيان ألمانى ، راجع

Rey Colonies Fran., d' aprés Hermann. Chronol.

(٢) أسامة ، كتاب الاعتبار ، ص ١٣٦ — ١٣٧ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٥١ .

القتال إلى جعل الرجالة حول الخيالة [١] . وكان الصليبيون والمسلمون يبذلون عناية كبرى فى انتقاء الجياد العربية الأصيلة للسلم والحرب سواء، ولا يدخرون المال فى سبيل اقتنائها مهما أغلى التجار أثمانهـا ، وذاعت عندهم شهرة جياد « هما » القريبة من شيراز بإيران . وكان الشائع فى هذا العصر استعمال النار الإغريقية التى لا تخمد إلا بالخل أو الرمل ، وزاد المسلمون عليها استعمال الآلات لرمى المنجنيق ، وكان هناك مهندس فنى يعاونه جماعة من « الزراقين المقاتلة » ؛ وقد يعمد الأمراء أنفسهم للقيام بذلك العمل [٢] .

وفى منتصف القرن الثالث عشر عرف المسلمون البارود أو « ملح الصين » كما كانوا يسمونه ، وترجع تسميتهم إياه بهذا الاسم إلى أنهم أخذوه عن الصينيين، أول من وفقوا إلى إكتشافه، وكان من الطبيعى لهؤلاء القوم — والعصر عصر حرب ونزال — أن يشتد اهتمامهم بانتقاء السلاح من حيث الصناعة والجودة والنوع ، ومن المدن الهامة التى عرفت إذ ذاك بجودة صنع السلاح القاهرة حتى لقد كان يكفى أن يقال فى العصر الوسيط « المصرية » تزكية للسيوف [٤] ، ونافست دمشق القاهرة فى هذه الناحية، وراح اسمها علما على نوع من السيوف الكريمة . هذا إلى أن الصليبيين عرفوا استعمال الجمال فى الحرب ، ورأوها فى بعض المواضع أصلح من الجياد والصافنات ، وقد تمكنا من الوقوف على هذا بفضل مخطوط أرمنى عثر عليه اليزروبرت الفرنسى فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، وعده « رى » وثيقة غالية تدل على استعمال الصليبيين للهجن .

كان من الواضح أن يتشبه الصليبيون بالمسلمين فى ملابسهم وقد نزلوا بينهم [٤] ونسى الكثيرون منهم لغتهم الأصلية وبلدانهم الأولى ، حتى ليأخذ

---

(١) ابن شداد . شرحه ، ص ٢٥١ .

(٢) النوادر السلطانية ، ص ١٠٩ ، ١٧٧ .

(٣) H. Lamb : The Crusades, p. 292.

(٤) Rey : Colonies Fran., p. 90.

عليهم أحد مؤرخيهم أنهم « تبلدوا » وتزوجوا من أرمنيات وعربيات ، ويقول إن الصليبي قد يظله سقف واحد هو وأهل زوجته الأرمن أو العرب ، وأنهم أصبحوا « أسيويين » ، وهو يعنى بهذا أنهم أصبحوا « شرقيين » فى عاداتهم وتقاليدهم ونمط حياتهم (١) . كما أنهم أخذوا عنهم استعمال «الكوفية» حول القبعة القصيرة الجوانب ، وعمدوا أيضا إلى إطالة ملابسهم وتحليتها بالجواهر حسب مكانة المرء فى قومه واختلاف المراتب (٢) . كما كانوا يلبسون «الكلوثة» على رؤوسهم ، ويؤثر عن بلدوين الأول (١١١٠ — ١١١٨) أنه على الرغم من قرب عهده بأوربة كان يؤثر استعمال الملابس الشرقية ، وكان يحمل أمامه مجن من الذهب محلى بالنسر (٣) .

وكانت السيدات الصليبيات يأخذن عن الجو الشرقى الذى يتنفسن فيه مظاهر الحياة التى انطبعت صورها واضحة جلية فى ملابسهن ، فكن يرتدين ما تلبسه أمثالهن من الصقليات اللائى عاشرن المسلمات ، وتمتاز ملابسهن بأنها مجرجرة الأذيال ، وتتألف من قميصين مرسلين إلى القدمين (٤) ، وكانت بعض طبقات الصليبيين تفرض على نسائها وبناتها — إذا بلغن الحلم — أن يضربن الخمار على وجوههن كما هو مألوف فى البيئة الإسلامية وقتذاك . ويأبون عليهن أن يخرجن إلى الأسواق سافرات ، بل إنهم ما كانوا يسمحون لهن بالخروج إلا للضرورة القصوى ، كالذهاب إلى الكنائس والحمامات . أما الرجال الصليبيون فقد أطلق بعضهم اللحى تشبها بالشرقيين ، وكانوا يستعملون النعال التى يستعملها المسلمون فى بيوتهم (٥) .

---

(١) cf. Lamb : The Crusades, p. 262 (d'aprés Fulcher).

(٢) Rey : op. cit. p. 11 — 12.

(٣) Brehier : L'Eglise et l'Orient p. 61.

(٤) راجع ابن جبير ، الرحلة ، ص ٣٥٤ .

(٥) يذكر Rey : op. cit. p. 16 note 2 أن نساء الطبقة الوسطى من أهل البندقية كن يعشن عيشة شرقية خالصة ، بل إنهن ما كان يسمح لهن بالخروج حتى للكنائس نظراً لوجودها ملحقة فى قصورهن . أما فيما يتعلق بأوجه الشبه بين مملكتى صقلية وبيت المقدس أثناء القرن الثانى عشر فراجع Barker : op. cit. p. 40, note 1.

ولم تكن العلاقات بين المسلمين والصليبيين علاقات عداء ونضال دائما، بل كانت هناك فترات من السلم والتآخي، تزول فيها الحزازات، وينقلب النضال إلى مودة وإلى أخوة عجيبة بين الفريقين، تستوى فى هذا الطبقات المختلفة من البيئتين، وكتاب أسامة ابن منقذ حافل بهذه الصور المشرقة عن الفروسية فى تلك العصور وبيان مدى الارتباط بين الجماعتين، وحسبنا أن نشير إلى أن الصليبيين كانوا يحسنون معاملة من عندهم من الموظفين المسلمين [١]، كما كان المسلمون يؤثرون أن يكونوا فى البلد الصليبي فى حماية جماعة فرسان الداوية فلا تنالهم يد سـوء فى أنفسهم وأموالهم ومتاعهم، وقد تدفعهم العلاقات الودية إلى تبادل الهدايا فيما بينهم رغم ما قد يكون بينهم من حروب عنيفة قاسية، كما حدث من إرسال صلاح الدين إلى ريمو ند الثالث أمير طرابلس مجموعة من الجياد والأسلحة، بعد أن أطلقه من أسر نور الدين [٢].

كان القوم إذ ذاك يهتمون بالغ الاهتمام بالمحافظة على الشرف، وإن أقل طعنة يطعنها الفارس لتقرح لها عيناه إن لم يدفعها، فإن دفعها عاد قرير العين مثلوج الفؤاد [٣]، يستوى فى ذلك الرجال والنساء، وقد صور أسامة أمه « ذات نخوة أشد من نخوات الرجال »، إذ عمدت إلى ابنة لها أجلستها على حافة الوادى وتهيأت لإلقائها على صخراته إذا هاجم الحشاشون دارها، كما أن النساء كن لا يغبن عن القتال بل يباشرنه مباشرة الرجال الفرسان له [٤]، بل إنهن كن يقفن وسط الخيل [٥].

ومع ما انطبع عليه القوم من الفروسية والبطولة إلا أن العصر لم يكن

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٤٧ .

(٢) شرحه ، ص ٤٥٥ .

(٣) الاعتبار ، ص ٣٦ — ٣٧ .

(٤) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٢٣ — ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٩ .

(٥) راجع القسم الأول من قصة بريكة فى الاعتبار ، ص ١٢٢ .

خاليا من المعتقدات الزائفة ، فقد ذكر أسامة أن قائداً تركياً اسمه «برشك» زعم أن هناك شقا فى مسجد لا يستطيع دخوله ولد زنا ، وأصر التركى على رأيه إصرارا حمل أسامة على مجاراته ، رغم أنه « ما يصدق ما قاله » ، وتابعه أكثر العسكر فى هذا الرأى الموهوم ، واضطر إلى تجربة المسألة تجربة اطمأنت لها نفسه ونفوس من حوله [١] . ومثل هذا ما رواه أسامة أيضا من أن أخاه عز الدولة أبا الحسن اشترى حصانا كريما ، ثم أخرجه فى ضمان قرية كانت بين بنى منقذ وبين فارس صليبى من كفر طاب ، فبقى الجواد عند الصليبى سنة ثم مات بعدها ، فبعث يطلب ثمنه من بنى منقذ ، متذرعا « بأنهم سقوه شيئا يموت منه بعد سنة [٢] » ، وكذلك ما يزعمه القوم إذ ذاك من أن جريح النمر يموت إذا بالت عليه الفارة [٣] .

وامتاز العصر الوسيط فى الشرق والغرب بالفروسية ، سمة بارزة له ، وكان الصليبيون لا يستطيعون نقض أمر أبرمه الفرسان ، بل إن الملك الصليبى نفسه لا يستطيع له نقضا [٤] . والظاهر أن الفروسية اختلطت عندهم بالتربية الاستقلالية ، فعمدوا إليها ينشئون عليها أبناءهم ، وإن من مبادىء التربية الحديثة أن نهيىء للطفل فرصة الوقوف على الشىء بنفسه دون أن ننهاه عنه خوفا عليه وإشفاقا به ، فقد حدَّث أسامة أنه رأى حية على جدار ، فتناول سلما صعد به إليها وحز رأسها على مرآى من أبيه الذى ما نهاه عما هو آخذ بسبيله وما فيه من الخطر المحقق عليه . وهذه التربية هى التى كانت تحملهم على الخروج للقنص ، حتى لقد كان الصيد — رغم أخطاره — أحب رياضة إلى القوم إذ ذاك ، وهى رياضة فيها كثير من إعمال الحركة والتفكير المستقيم ، لما تتطلبه بعض المواقف من سرعة البديهة وحضور الذهن ، وهذه الرياضة ذاتها هى التى مكنت رجلا مثل أسامة

---

(١) أسامة ، شرحه ، ص ١٥ .

(٢) أسامة بن منقذ ، شرحه ، ص ١٥ ، ١٧ .

(٣) شرحه ، ص ١١١ .

(٤) راجع الاعتبار ، ص ٦٥ .

أن يلم إلمامة غير ضئيلة بطباع الضوارى[١] .

ولم تخل روح هذا العصر من النكتة الرائعة اللطيفة ، ترسل على لسان الصعلوك أو الأمير ، وقد تكون أشد وقعا من السهام ، ألا ترى إلى قول ابن الأثير فى معرض تهكمه بأحد الصليبيين إذ يشبهه بالنعامة خرجت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين[١] . ويروى أحد المؤلفين المسلمين أن فارسا صليبيا من شياطين الإفرنج اسمه سير آدم كان على كنيسة حناك ، وكان هناك نمر روع أهل تلك الناحية وعز صيده على الكثيرين وخافوا منه ، فكبر الأمر على سير آدم ، وطلب إلى القوم أن يعلموه بخبره إن عاد للظهور فأطاعوه ، فخرج إليه ، فوثب عليه النمر فقتله ، فراح الفلاحون ينعتون النمر « بالنمر المجاهد »[٢] . وشبيه بها قصة الحمار الذى حمله أسامة أربعة آلاف دينار ، فانطلق يسابق الريح ، حتى إذا فقد الخرج منه عاد إلى الدار حيث مربطه ، كأنما « كان قصده أن تضيع أربعة آلاف دينار »[٣] وكذلك تعليق أسامة على قصة الرجل الذى أدخل ابنته الحمام مع القوم .

على أن هناك جانبا جديداً فى الحياة العامة ذلك هو التطبيب ؛ وقد عنى المسلمون ومن قبلهم العرب منذ العصر الجاهلى بهذا الجانب[٤] ، والطب فى العصر الصليبى مجموعة من التجارب ، أنزلها مرور الأيام منزلة الحقائق والبديهيات ، رغم ما ينطوى عليه من البطلان الواضح والجهل الملموس ، ونحن وإن كنا لا نستطيع الحكم على قيمة « الوصفات » العلاجية التى نراها فى ذلك العصر ، إلا أنه لاشك أنها تعطينا صورة واضحة عن تفكير القوم العلاجى ، وهى إلى جانب ذلك تبين لنا قيامها على التجربة ، من ذلك أن رجلا من المسلمين كان مصابا بالقيلة ، فنزل على حى من أحياء العرب فى بادية

---

(١) انظر الدكتور فيليب حتى فى مقدمته العربية لكتاب الاعتبار .

(٢) أسامة ابن منقذ ، كتاب الاعتبار ، ص ١١ .

(٣) أسامة ابن منقذ ، شرحه ، ص ١٤ .

(٤) Browne : Arabic Medicine, p. 7 — 10; et la trad. Française par Dr. Renaud, p. 10 — 12.

السماوة ، فاستضافوه بطيور لم يدر كنهها ، حتى إذا هوَّم النوم أفاق ، وقد زالت القيلة ، فسألهم عما طبخوه له ، فقالوا له إن هى إلا فراخ غربان ، فلما بلغ الرجل بغداد دخل على متولى بيمارستانها ، وروى له قصته ، فجاء بأفراخ غربان لمن بهم هذه العلة فاشفوا . وهذه القصة تبين لنا قيام الطب فى البيئة الإسلامية على الناحية التجريبية[١] وكان المسلمون يداوون بعض الأمراض بالخل، ويعرفون الفارق بين البرص وحب الصبا ، ويدركون ما فى البيض من قيمة غذائية وعلاجية تشفى الخراج[٢] . ولقد تقدم الطب فى أخريات القرن الثانى عشر وطوال القرن الثالث عشر ، وهو القرن الذى شهد حركة فى التأليف العلمى فى هذه الناحية[٣] . وكثرت فى بلاد العالم الإسلامى المستشفيات والمارستانات[٤] .

وينقسم الطب عند الصليبيين فى القرن الثانى عشر إلى قسمين ، أحدهما ضرب يمارسه من لا باع له فيه ، وآخر يقوم على الناحية العلمية الدقيقة ، وهو فى الحالين يتوقف على مهارة المطبب ، وقدرته ، وحسن تصريفه لما هو أمامه . والظاهر أن الصليبيين كانوا يدركون تقدم الطب عند المسلمين ، فقد بعث صاحب أحد الحصون إلى عم أسامة ، يطلب منه أن ينفذ إليه طبيباً عربياً ، يداوى بعض أصحابه ، فبادر بإرسال طبيب نصرانى اسمه ثابت ، ورغم مقدرة ثابت الطبية ، إلا أنه عز على أحد المطبّبين الصليبيين أن يترك الميدان لعربى ، فقام ببتر ساق المريض بالفأس ، وضربها ضربة أسالت مخ الساق ، ومات صاحبها من ساعته ، كما أن هذا المطبب الصليبى ذاته عمد إلى سلخ رأس امرأة ، وحكّ عظمها بالملح ، ليُذْهب عنها الجنون ،

---

(١) الاعتبار ، ص ١٨٢ .

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٨٢ .

(٣) أمثال كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، وتاريخ الحكماء لابن القفطى ، المتوفى سنة ١٢٤٨ .

(٤) Browne : Arabic Medicine, p. 100 — 102.

فاذهبا هى والجنون إلى غير رجعة[١] . كذلك كان الصليبيون يتخذون لهم أطباء خصوصيين من بين العرب[٢] .

على أنه كان إلى جانب هذا الضرب من الدجالين جماعة من الأطباء الصليبيين المهرة ، بشهادة المسلمين أنفسهم ، وفيهم من لا يطلب على علاج مرضاه أجراً ، حتى ولو كان من المسلمين . فقد ذكر أسامة أنه كان بشيزر رجل اسمه أبو الفتح ، وله ولد قد طلعت فى رقبته خنازير ، كلما ختم موضع فتح موضع ، وشاءت الظروف أن يقدم إلى أنطاكية ، وأن يلتقى برجل أفرنجى اطلع على الغلام . فقال لأبيه « تحلف لى بدينك إن وصفت لك دواء يبرئه ، لا تأخذ من أحد تداويه به أجرة » ثم وصف له أشنانا غير مطحون ، يحرقه ويربّه بالزيت والخل والحاذق ، ثم يضعه على حيث الخنازير . فيبرأ الغلام ، واستفاد أسامة نفسه منه ، فى أنه « داوى به من طلع فيه هذا الداء فنفعه ، وأزال ما كان يشكوه »[٣]

ولم يخل العصر — رغم وجود كثير من أعلام الطب فيه — من الإيمان بقدرة القسس على الشفاء ، فقد حدث فى ذات مرة أن مرض أحد الفرسان الصليبيين ، فعرضوه على قس ، إيماناً ببركته وقدرته على شفاء الفارس ، فلما رأى القس المريض ليّن شمعا ، وسد به أنف الفارس ، فأراحه الراحة الأبدية[٤] .

* * *

ومن النواحى الطريفة التى تمثل الحياة الاجتماعية فى بلاد الشام فى القرن الثانى عشر حفلات الزواج عندهم ، ويدعى إليها المسلمون والمسيحيون على السواء ، ويختلط الرجال فيها بالنساء ، وقد حضر ابن جبير الرحالة إحدى

---

(١) أسامة بن منقذ : شرحه ، ص ١٣٢ — ١٣٣ .
(٢) Lamb : op. cit. p. 261.
(٣) الاعتبار ، ص ١٣٣ — ١٣٤ .
(٤) شرحه ، ص ١٣٧ — ١٣٨ .

هذه الحفلات ، وترك لها وصفاً دقيقاً ، إذ ذكر أن الرجال والنساء قد اصطفوا صفين عند باب العروس ، وراحت الأبواق والمزامير وجميع آلات اللهو تضرب بين يديها ، حتى خرجت بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال ، والعروس فى أبهى زى وأفخر لباس ، تسحب أذيال الحرير ، وعلى رأسها عصابة من ذهب ، قد حفت بشبكة ذهب منسوجة ، ومثلها على لبّتها ، وأمامها جلة رجالها من النصارى فى أفخر ملابسهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا فى طريقهم سماطين يتطلعون فيهن ، ولا ينكر عليهم ذلك ، وساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها ، وأقاموا يومهم ذلك فى وليمة [١] .

ولم تكن دعوة المسلمين إلى أمثال هذه الحفلات شيئا منكورا ، فهم فى السلم « أخوة » ، حتى لنرى رجالا من الفريقين يتآخون ، أو ينادى كل منهما صاحبه بـ « ياأخى » [٢] بل لعل الأغرب من ذلك أن الفريقين يصلون فى بقعة واحدة فى عكا ، حيث كان بها مسجد ، أبقى محرابه على حاله ، ووضع الصليبيون فى شرقيه محرابا لهم ، « فالمسلم والكافر يجتمعان فيه ، يستقبل هذا مصلاه ، وهذا مصلاه [٣] » كما أن المسجد الأقصى ، وقد أصبح بيد الداوية ، قد جعل الصليبيون من أحد أجزائه كنيسة لهم ، فكان أسامة إذا وفد على بيت المقدس دخل هذه الكنيسة ، « وأخلى له الداوية ذلك المسجد الصغير ليصلى فيه [٤] » ، وتوثقت وشائج المودة بين أسامة وبين الداوية ، حتى ليسميهم « أصدقائى » [٥] . وكان المسلمون يحمدون سيرة حكامهم الصليبيين ، حتى ليتأسف أحد الكتاب ، فيرى أن هذه « من الفجائع

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٥٣ ، وراجع وصف الحفلات الإسلامية وجلوة العروس فى الاعتبار ، ص ١٧٩ — ١٨٠ .
(٢) أسامة : الاعتبار ، ص ١٣٢ .
(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٥١ .
(٤) الاعتبار ، ص ١٣٤ — ١٣٥ .
(٥) الاعتبار ، ص ١٣٤ .

الطارئة على المسلمين ، أن يشتكى الصنف الإسلامى لجور صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضـده وعدوه من الإفرنج ، ويأنس إلى عدله [١] » ، كما كانت فروسية المرء تقرّبه وتدنى منزلته من القلوب حتى ولو كانوا من الملوك ، كما حدث لأسامة من أنه حضر مجلسـا لفولك الخامس ملك بيت المقدس (١١٣١—١١٤٢) فقال له الملك «وحق دينى لقد فرحت فرحا عظيما»،فأجابه أسامة«الله يفرّح الملك ، لماذا فرحت؟» قال «قالوا لى إنك فارس عظيم [٢]». ولعل أجمل الصور القلمية التى توضح لنا جانب الأخوة بين المجتمعين الصليبى والإسلامى ، ما رواه أسامة بن منقذ ، من أن روجر أمير أنطاكية كان قد بعث رسولا من قبله إلى مملكة بيت المقدس فى شأن خاص له ، وخاف روجر على الرسول عادية الطريق ، فكتب إلى عم أسامة كتابا يقول له فيه « أسألك أن تنفذ خيلك تأخذه من أفامية إلى رفنية [٣]» ، والذى يعنينا من هذا الخبر دلالته الصريحة على المودة التى تربط بين رجال كلا الفريقين ، والظاهر أن العلاقات الودية كانت بين أبى أسامة وعمه ، وبين كبار الصليبيين ، لا سيما بلدوين أمير أنطاكية [٤] .

ولقد كان من المعروف فى هذا العصر استعمال حمام الزاجل ، فقد استعمله نور الدين فى بعض حروبه [٥] ، ولم يفتهم استعمال القدّاحة لإشعال النار .

وبعد، فهذه صورة موجزة من الحيـــاة التى كان يحياها المسلمون والصليبيون فى خلال قرون الحروب الصليبية .

---

(١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٤٨ .
(٢) الاعتبار ، ص ٦٥ .
(٣) الاعتبار ، ص ٨٧ .
(٤) شرحه ، ص ١١٩ — ١٢٠ .
(٥) كتاب الروضتين ، ص ١٥٦ من الطبعة الأوربية .

ثبت

ثبت باختلاف رسم الأعلام فى المراجع العربية والفرنجية فى العصور الوسطى

Ainardus	أنر
Albara	ألبارة
Alexandrette	اسكندرونة
Amaurri	أمورى . عمورى . مرى
Apamée	أفامية
Artesie	أرتاح
Arzen	أرضروم
Ascanios	بحيرة إزنيك
Atareb	الأثارب
Aynart	أنر
Aynarz	أنر
Babiloine	القاهرة
Baccar	البقاع
Barzuyia	قلعة البرزة
Baudas	بغداد
Beben	البابين (موقعة)
Belda	بلدة
Bersaphut	بصرفوت
Bethsan	بيسان
Bile	ألبيرة
Bire	»
Biredjik	»
Biréjik	»
Bir-el-Cani	بير العيش
Borgoldus	آق سنقر البرسقى
Bokobeis	قلعة كبيس
Borsequinus	آق سنقر البرسقى
Borses	»
Bouchie	البقاع
Cahaire	القاهرة
Cahere	»
Calquis	قنسرين
Caphorda	كفرطاب
Cave-Roob	وداى الراهب
Cerep	أثارب
Chalcis	قنسرين
Chipre	قبرص
Cité Bernard d'Etampes	درعات
Civitot	هرسك
Coïble	الحوابى
Cressum	كيسون
Dargan	ضرغام
Demenhut	دمنهور
Doliche	دلوك
Emése	حمص
Ermis	الأرمن
Erzeramus	أرضروم
Escalone	عسقلان
Eski-Alep	قنسرين
Fons Muratez	معرثة
Fons Murez	»
Gaban	جبين (قلعة على أحد فروع جيحون)
Gaktha	كياكية (حصن افتتحه جوسلين الثانى على شاطىء الفرات)
Gaveras	خوريل صاحب ملطية
Germanicée	مرعش
Gerwase	جرفاس (قائد أسره ظهير الدين أتابك دمشق وقتله بها)
Giraut de la Liche	جيرار اللاذقى
Graieus	الإغريق
Habesce	العباسية
Habeys	عباس الصنهاجى
Haly Maiores	الإمام على
Harenc	حارم
Hasart	عزاز
Hascebi	قرية الخشب
Hatab	عينتاب
Hazarth	عزاز
Heus	البرج
Hiaroquin	حسام الدين تمرتاش أمير ماردين
Hierapolis	منبج
Jéricho	أريحا
Koradi	تل الأكراد (حصن)
Lacun	الأكمة
Lamonie	المنيا
Laodicée	اللاذقية

المراجع العربية

ابن الأثير ــ عز الدين أبو الحسين على (+ ٦٣٠ هـ) :

(ا) الكامل فى التاريخ (المطبعة الأزهرية المصرية ، سنة ١٣٠١ هـ) ، ج ١٠ ، ١١ ؛ وفى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ، ج ٧ .

(ب) أتابكة الموصل (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية المسلمين ، ج ٢) سنة ١٨٤٤ .

ابن أيبك ــ أبو بكر بن عبيد الله (+ حوالى ٧٠٩ هـ) :

درر التيجان ، وغرر تواريخ الأزمان ــ (تصوير شمسى بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٦٠٥ تاريخ) .

ابن جبير :

نبذة من رحلة .... (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية المسلمين ، ج ٣) .

ابن الجوزى ــ الحافظ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن (+٥٩٧ هـ) :

(ا) شذور العقود ، فى تاريخ العهود . (تصوير شمسى بدار الكتب المصرية ، رقم ٩٩٤ تاريخ) .

(ب) المنتظم فى أخبار الأمم (تصوير شمسى بدار الكتب المصرية ، رقم ١٢٩٦ تاريخ) .

ابن خلدون ــ عبد الرحمن بن محمد (+ ٨٠٦ هـ) :

العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر (طبع بولاق سنة ١٢٨٤هـ) .

ابن خلكان ــ شمس الدين أبو العباس أحمد (+ ٦٨١ هـ) :

وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان (مجلدان ، طبع بولاق ، سنة ١٢٧٥ هـ) .

ابن دقماق ــ ابراهيم بن محمد بن أيدمر (+٨٠٩ هـ) :

الجوهر الثمين ، فى سير الملوك والسلاطين (مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ١٥٢٢ تاريخ) .

ابن الشحنة ــ أبو الفضل محمد (+ حوالى القرن التاسع الهجرى) :

الدر المنتخب ، فى تاريخ مملكة حلب (بيروت ، ١٩٠٤ م) .
ابن شداد — القاضى بهاء الدين (+ ٦٣٢ ﻫ) :
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية المسلمين ، ج ٣) .
ابن العديم — عمر بن عبد العزيز بن أبى جرادة (+ ٦٦٠ ﻫ) :
(ا) بغية الطلب فى تاريخ حلب (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ، ج ٣) .
(ب) منتخبات من تاريخ حلب (شرحه) .
ابن العماد الحنبلى — عبد الحى بن أحمد (+ ١٠٨٩ ﻫ) :
شذرات الذهب ، فى أخبار من ذهب ، ج ٤ .
ابن القلانسى — أبو يعلى حمزة (+ ٥٥٥ ﻫ) :
ذيل تاريخ دمشق ، (نشره أمدروز . طبع بيروت ، ١٩٠٨ م) :
ابن ميسر — أبو عبد الله محمد بن على (+ ٦٨٧ ﻫ) :
منتخبات من أخبار مصر (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ، ج ٣) .
ابن واصل — القاضى جمال الدين (+ ٦٩٧ ﻫ) :
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب (تصوير شمسى بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٣١٩ تاريخ) .
أبو شامة — شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن (+ ٦٦٥ ﻫ) :
الروضتين فى أخبار الدولتين ، جزءان (مطبعة وادى النيل بالقاهرة ، سنة ١٢٨٨) ومنتخبات منه فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ، ج٤ .
أبو الفداء — الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل (+ ٧٣٢ ﻫ) :
المختصر ، فى أخبار البشر (الأستانة ١٢٨٦ ﻫ) :
أبو المحاسن — ابن تغرى بردى (+ ٨٧٤ ﻫ) .
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٥ ، ٦ (طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة) .
أسامة بن منقذ (+ ٥٨٤ ﻫ) :

كتاب الاعتبار (نشره الدكتور فيليب حتى) ، طبع جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية ، سنة ١٩٣٠ م .

البندارى — الفتح بن على (+ حوالى ق ٧ هـ) :

مختصر تاريخ دولة آل سلجوق (طبع مطبعة الموسوعات القاهرة سنة ١٣١٨ هـ) .

جمال الدين الوزير — أبو الحسن على بن كمال الدين (+ ٦٢٣ هـ) :

الدول المنقطعة (تصوير شمسى بدارالكتب المصرية ، رقم ٨٩٠ تاريخ) .

حبشى — حسن :

الحرب الصليبية الأولى (مذيلة بالترجمة العربية الكاملة للحوليات الفرنجية Gesta Francorum) (مطبعة الاعتماد ، ١٩٤٧) .

حسن — الدكتور حسن ابراهيم :

الفاطميون فى مصر ، وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص (المطبعة الأميرية بالقاهرة ، سنة ١٩٣٢ م) .

الذهبى — الحافظ شمس الدين أبو عبد الله (+ ٧٤٨ هـ) :

تاريخ الإسلام ، وطبقات المشاهير والأعلام (مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٣٨٦ تاريخ) .

سبط بن الجوزى — شمس الدين أبو المظفر يوسف (+ ٦٥٤ هـ) :

منتخبات من مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ، ج ٣) .

العصامى — عبد الله بن حسين بن عبد الله (+ ١١١١ هـ) :

سمط النجوم العوالى ، فى أنباء الأوائل والنوالى ، ج ٢ ، (مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٣ م تاريخ) .

المقريزى — تقى الدين أحمد بن على (+ ٨٤٥ هـ) :

(ا) السلوك لمعرفة دول الملوك (نشره الدكتور زيادة ، طبع دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٣٤ م) .

(ب) المواعظ والاعتبار ، بذكر الخطط والآثار (بولاق ، سنة ١٢٧٠ هـ) .

ياقوت — شهاب الدين أبو عبد الله الرومى (+ ٦٢٦ هـ) :

معجم البلدان (طبع السعادة بالقاهرة ، ١٣٢٢ هـ) .

المراجع الاجنبية

Archives de l'Orient Latin, 2 Vols (Paris)[1]
Assises de Jerusalem, t. II, (R. H. O cc. Cr.*)
Barker, Ernest : The Crusades (London, 1939).
Basile, Dr., :
Oraison Funebre de Baudoin (R. H. Occ. Cr.) Doc. Arm. t. I.
Brehier, Louis : L'Eglise et l'Orient au moyen age, les Croisades, (Paris, 1921).
Browne, Edward : Arabian Medicine (Cambridge, 1921).
La Mẹdecine Arabe (tad. franç. par H. P. Renaud, Paris, 193?).
Chalandon, Ferdinand :
1. Comnènes t. II, (Paris 1908).
2. Essia sur le régne d'Alexis 1er Comnène. (Paris, 1900).
Derenbourg, Hartuig :
1. La Vie d'Ousama, 3 Vols.. (Paris)
2. Autobiographie d'Ousama (R. O. L., 1894).
3. Oumara du Yemen, sa vie et son oeuvre (Paris, 1897).
Diehl, Charles : Figures Byzantines, t. II, (Paris, 1909).
Dussaud, René : Topographie Historique de la Syrie Antique et Medievale. (Paris 1927).
Duval, Rubens :
Histoire Politique, Religieuse et Litteraire d'Edesse jusqu'à la première Croisade. (Journ. Asiat., 1892).
Gesta Francorum. (ed. et trad. Par Brehièr).
Gaudefroy — Demombynes : La Syrie à l'époque des Mamelouks d'après les auteurs Arabes (Paris, 1923).
Gibb, Hamilton A. R. : The Damascus Chronicle of the Crusades. (Lond., 1934).
Grousset, René : Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem. t. II. (Paris, 1934).
Heyd, Giullaume :
Histoire du Commerce du Levant au moyen age. t. I, (Leipzig, 1923).
Cregoire le Prètre : Chroniques (Doc. Arm., t. I).

* R. H. Occ. Cr. = Recueil des Historiens Occidentaux des Croisades.,
R. O. L. = Revue de l'Orient Latin.

Gilluaume de Tyre : (G. T.,). Historia — (R. H. Occ. Cr.) t. VI.

Jorga, (N.) : Brève Histoire des Croisades et de leurs Fondation en Terre Sainte (Paris. 1924).

Lamb, Harold : The Crusades : Iron Men and Saints, (New York, 1942). Lane-Poole, Stanley :

1) History of Egypt in the Middle Ages (London, 1924).

2) Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem (London, 1893).

Lavisse Ernest, Histoire de France depuis les origines jusqu' à la revolution, t. III, partes I et II. (Paris, 1923).

Le Strange, Guy :

1) Palestine Under the Moslems (Lond., 1890).

2) The Lands of the Eastern Caliphate (Cambridge, 1930).

Matthiew d'Edesse : Chroniques (Doc. Arm., t. I).

Michel Le Syrien : Chroniques. (Doc. Am. t: I).

Paris (P.) Historiens des Croisades, (Paris).

Précis de l'Histoire d'Egypte, t. II, (Le Caire, 1932).

Raymond d'Agiles :

Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem. R. H. Occ. Cr. t. III.

Rey. D.

a) Les Colonies Françaises de Syrie aux XII^e et XIII^e siècles (Paris, 1883).

b) Les Familles d'outre-mer (Paris. 1839).

c) Resumé Chronologique de l'Histoire des Princes d'Antioche. (R. O. L. 1896).

c) Les Dignitaires de la Principauté d'Antioche (R. O. L., 1900 — 1901).

e) Les Seigneurs de Berut (R. O. L., 1896).

Riant, P. :

Hist. de l'Eglise (R. O. L. 1900).

Schlumberger, Gustave :

a) Les Campagnes du roi Amaury 1^er de Jerusalem en Egypte (Paris, 1906).

b) Renaud de Chatillon, Prince d'Antioche, Seigneur de la terre d'outre Jourdain (Paris, 1923).

Stevenson, W. B. : The Crusaders in the East (Cambridge, 1907).

Van Berchem, Voyage en Syrie.

فهـــرست